الموعظة الحسنة

مواعظ ودروس قصيرة لعموم المسلمين

(الجزء الأول)

تأليف فضيلة الشيخ
أبي عبد الله محمد بن سعيد رسلان
حفظه الله تعالى

دار الفرقان المصرية للنشر والتوزيع

الْمَوْعِظَةُ الْأُولَى:

احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ!

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

- **أَمَّا بَعْدُ:**

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

- **أَمَّا بَعْدُ:**

فَقَدْ أَخْرَجَ الْإِمَامُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَىٰ اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَىٰ مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَلَا تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ؛ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ؛ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ؛ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**».

فِي هَذَا الْحَدِيثِ: يُبَيِّنُ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ جُمْلَةً مِنَ الْأُمُورِ الْأَصِيلَةِ فِي دِينِ اللهِ جَلَّوَعَلَا، وَأَوَّلُ مَا يُطَالِعُنَا فِي هَذَا الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ: هُوَ الْقَاعِدَةُ الْمُسْتَقِرَّةُ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ؛ مِنْ أَنَّ الْإِيمَانَ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ، وَيَتَفَاضَلُ أَهْلُهُ فِيهِ، وَهُوَ يَزِيدُ بِالطَّاعَاتِ، وَيَقِلُّ عَلَىٰ حَسَبِ عَمَلِ السَّيِّئَاتِ.

«**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ**»: يُرِيدُ بِالْقُوَّةِ هَاهُنَا: عَزِيمَةَ النَّفْسِ، وَقُدْرَتَهَا عَلَىٰ أَنْ تُصَرِّفَ الْجَسَدَ مَعَهَا إِلَىٰ طَاعَةِ اللهِ جَلَّوَعَلَا، وَلَيْسَ الْمُرَادُ -بِالدَّرَجَةِ الْأُولَىٰ- مَا يَتَعَلَّقُ بِقُوَّةِ الْبِنْيَةِ، وَسَلَامَةِ الْجَسَدِ وَالصِّحَّةِ؛ فَإِنَّ هَذَا قَدْ يَكُونُ ابْتِلَاءً مِنَ اللهِ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، يُخْفِقُ وَيَفْشَلُ فِيهِ مَنْ آتَاهُ اللهُ الْقُوَّةَ وَالصِّحَّةَ، فَيُصَرِّفُهَا فِي ظُلْمِ النَّاسِ، وَفِعْلِ السَّيِّئَاتِ.

وَلَكِنْ «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ**» يُرِيدُ عَزِيمَةَ النَّفْسِ الَّتِي تَدْعُو إِلَىٰ طَلَبِ الْعِلْمِ النَّافِعِ، وَتَحُثُّ عَلَىٰ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَتَجْعَلُ الْإِنْسَانَ عَابِدًا لِرَبِّهِ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ كَمَا يُرِيدُهُ سَيِّدُهُ وَمَوْلَاهُ.

---

(١) «صحيح مسلم»: (٤/ ٢٠٥٢، رقم ٢٦٦٤).

«**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَىٰ اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ**»، وَحَتَّىٰ لَا يَتَصَوَّرَ إِنْسَانٌ أَنَّ الْمُؤْمِنَ الضَّعِيفَ -الَّذِي عِنْدَهُ أَصْلُ الْإِيمَانِ وَحَقِيقَةُ الْإِسْلَامِ؛ وَلَكِنَّهُ لَا يَنْبَعِثُ إِلَىٰ فِعْلِ الطَّاعَاتِ، وَلَا يُوَاظِبُ عَلَىٰ طَلَبِ الْخَيْرَاتِ، وَيَقَعُ مِنْهُ بَعْضُ التَّقْصِيرِ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ عِنْدَ الْمُلِمَّاتِ- حَتَّىٰ لَا يَتَصَوَّرَ أَحَدٌ أَنَّ هَذَا لَا خَيْرَ فِيهِ؛ قَالَ الرَّسُولُ ﷺ: «**وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ**»؛ أَيْ: فِي الْمُؤْمِنِ الْقَوِيِّ خَيْرٌ، وَفِي الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ -أَيْضًا- خَيْرٌ.

وَهَذِهِ الْخَيْرِيَّةُ الْمُشْتَرَكَةُ بَيْنَهُمَا؛ إِنَّمَا تَعُودُ إِلَىٰ أَصْلِ الْإِيمَانِ، فَهُوَ مُؤْمِنٌ؛ وَإِنْ كَانَ ضَعِيفًا فِي الْإِتْيَانِ بِمَا يَنْفَعُهُ فِي آخِرَتِهِ؛ مِنْ طَلَبِ الْعِلْمِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَالِانْبِعَاثِ فِي الْخَيْرَاتِ، وَتَمَامِ الْمُلَازَمَةِ لِلطَّاعَاتِ.

«**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَىٰ اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ**».

«**احْرِصْ عَلَىٰ مَا يَنْفَعُكَ**»: وَهَذِهِ الْجُمْلَةِ هِيَ مِنْ جَوَامِعِ كَلِمِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَهِيَ أَسَاسٌ وَقَاعِدَةٌ لِلْمُسْلِمِ، لَوْ أَنَّهُ الْتَزَمَ بِهَا؛ لَأَصْلَحَ اللهُ حَالَهُ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا وَأُمُورِ الْآخِرَةِ.

«**احْرِصْ عَلَىٰ مَا يَنْفَعُكَ**»: لَا تُبَدِّدْ طَاقَتَكَ، وَلَا تُهْدِرْ وَقْتَكَ، وَلَا تُسْرِفْ فِي اسْتِعْمَالِ مَالِكَ، وَإِنَّمَا يَنْبَغِي عَلَيْكَ أَنْ تَكُونَ حَرِيصًا عَلَىٰ مَا يَنْفَعُكَ.

وَهَذَا يَدْعُو إِلَىٰ النَّظَرِ فِي الْمَآلَاتِ -أَيْ: فِيمَا تَؤُولُ إِلَيْهِ الْأُمُورُ-؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَكُونَ الْمُؤْمِنُ بَعِيدَ النَّظَرِ، يَنْظُرُ إِلَىٰ بَعِيدٍ، وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَىٰ الْأُمُورِ الَّتِي يَأْخُذُ بِهَا وَالَّتِي يَتْرُكُهَا، وَلَا يَنْظُرُ أَسْفَلَ مِنْهُ، أَوْ تَحْتَ قَدَمَيْهِ.

«**احْرِصْ عَلَىٰ مَا يَنْفَعُكَ**» وَالَّذِي يَنْفَعُ الْإِنْسَانَ فِي الْحَقِيقَةِ: هُوَ أَنْ يَكُونَ عَارِفًا بِرَبِّهِ؛ بِأَسْمَائِهِ تَعَالَىٰ وَصِفَاتِهِ، مُتَلَقِّيًا لِلْوَحْيِ الَّذِي جَاءَ بِهِ الْمَعْصُومُ ﷺ بِالتَّصْدِيقِ، وَبِالتَّطْبِيقِ.

فَيَعْلَمُ مَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ؛ لِيُحَوِّلَهُ إِلَىٰ اعْتِقَادٍ وَقَوْلٍ وَعَمَلٍ؛ لِأَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يُؤْتِيهِمُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ طَرَفًا مِنَ الْعِلْمِ، يَكُونُ عِلْمًا نَافِعًا عَلَىٰ حَقِيقَتِهِ؛ وَلَكِنَّهُ لَا يَسْتَفِيدُ مِنْهُ.

وَالنَّبِيُّ ﷺ بَيَّنَ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا دَعَا إِلَىٰ الْخَيْرِ وَلَمْ يَفْعَلْهُ؛ فَهُوَ كَالْفَتِيلَةِ - كَالشَّمْعَةِ- تُحْرِقُ نَفْسَهَا؛ لِتُضِيءَ لِغَيْرِهَا، فَكَذَلِكَ الْإِنْسَانُ إِذَا عَلِمَ أَمْرًا مِنْ أُمُورِ الدِّينِ، أَوْ قَامَ بِدَعْوَةٍ إِلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَهُوَ غَيْرُ مُلْتَزِمٍ بِمَا يَقُولُهُ، كَمَا بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ -وَالْحَدِيثُ مِنْ رِوَايَةِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا فِي «الصَّحِيحَيْنِ»[(١)]- أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ أَنَّهُ: «**يُؤْتَىٰ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُلْقَىٰ فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ[(٢)] بَطْنِهِ، فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِالرَّحَىٰ، فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ، فَيَقُولُونَ: يَا فُلَانُ**

---

(١) «**صحيح البخاري**»: (٦/ ٣٣١، رقم ٣٢٦٧)، و«**صحيح مسلم**»: (٤/ ٢٢٩٠، رقم ٢٩٨٩).

وفي رواية للبخاري: (١٣/ ٤٨، رقم ٧٠٩٨): «**يُجَاءُ بِرَجُلٍ فَيُطْرَحُ فِي النَّارِ، فَيَطْحَنُ فِيهَا كَطَحْنِ الحِمَارِ بِرَحَاهُ، فَيُطِيفُ بِهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ: أَيْ فُلَانُ، أَلَسْتَ كُنْتَ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَىٰ عَنِ المُنْكَرِ؟...**» فذكره بنحوه.

(٢) الْأَقْتَابُ: هِيَ الْحَوَايَا وَالْأَمْعَاءُ، وَالِانْدِلَاقُ: خُرُوجُ الشَّيْءِ مِنْ مَكَانِهِ، انظر: شرح النووي علىٰ «**صحيح مسلم**»: (١٨/ ١١٨-١١٩).

مَا لَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنْهَىٰ عَنِ الْمُنْكَرِ؟ فَيَقُولُ: بَلَىٰ، قَدْ كُنْتُ آمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَىٰ عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ».

وَالنَّبِيُّ ﷺ -كَمَا بَيَّنَ الْقُرْآنُ الْمَجِيدُ- يُحَذِّرُ مِنْ أَنْ يُخَالِفَ الْقَوْلُ الْفِعْلَ.

«**احْرِصْ عَلَىٰ مَا يَنْفَعُكَ**»: اجْتَهِدْ فِي مَعْرِفَةِ بِدَايَةِ الطَّرِيقِ؛ لِأَنَّنَا نُولَدُ، فَنَتَشَكَّلُ عَلَىٰ حَسَبِ مَعَارِفِ الْمُجْتَمَعِ الَّذِي نُولَدُ فِيهِ، وَهَذِهِ الْمَعَارِفُ لَيْسَتْ مُصَفَّاةً مِمَّا يَشُوبُ الْأَصْلَ مِنَ الْكُدُورَاتِ وَالشَّوَائِبِ.

فَمَا أَكْثَرَ مَا يَعْتَقِدُهُ النَّاسُ مِمَّا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ الدِّينُ، وَلَمْ يَنْزِلْ بِهِ مِنْ رَبِّنَا سُلْطَانٌ مُبِينٌ!!

فَكَثِيرٌ مِنَ الْعَقَائِدِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْغَيْبِيَّاتِ، أَوْ مَا أَشْبَهَ؛ يَعْتَقِدُ النَّاسُ فِيهَا مَا لَا يُحِبُّهُ اللهُ وَلَا يَرْضَاهُ، بَلْ يَعْتَقِدُونَ مَا يُضَادُّ مَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

وَهَذِهِ أَخَذُوهَا مِمَّنْ حَوْلَهُمْ فِي مُجْتَمَعَاتِهِمْ، وَتَكُونُ مِنَ الْبِدَعِ الْغَلِيظَةِ فِي الِاعْتِقَادِ، وَهُوَ أَمْرٌ مُفْظِعٌ جِدًّا؛ فَأَنْتَ تَسْمَعُ كَثِيرًا كَلَامًا يُقَالُ، وَهُوَ: إِنَّ الصَّلَاةَ -مَثَلًا- لَيْسَتْ لَهَا قِيمَةٌ كَبِيرَةٌ فِي مُقَابِلِ نَقَاءِ الْقَلْبِ وَسَلَامَةِ الصَّدْرِ!!

فَتَسْمَعُ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَقُولُ: مَا دَامَ الْقَلْبُ صَحِيحًا سَلِيمًا؛ فَهَذَا كُلُّهُ لَا يُهِمُّ!! بَلْ رُبَّمَا تَهَكَّمَ عَلَىٰ الْمُصَلِّينَ، فَيَقُولُ: تُصَلُّونَ الْفَرْضَ، وَتَنْقُبُونَ الْأَرْضَ، وَهَذَا لَيْسَ بِمَدْعَاةٍ إِلَىٰ الطَّعْنِ فِي الصَّلَاةِ نَفْسِهَا؛ فَكَمْ مِمَّنْ هُوَ آتٍ بِأَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ الشَّرِيفَةِ يَتَخَلَّفُ عَنِ الْعَمَلِ بِهِ، وَهَذَا لَا يَطْعَنُ فِي الْعَمَلِ، وَإِنَّمَا يَطْعَنُ فِي الْعَامِلِ!!

فَهَؤُلَاءِ يَفْزَعُونَ إِلَىٰ أَمْثَالِ هَذِهِ الِاعْتِقَادَاتِ: أَنَّ الْعَمَلَ لَيْسَ بِشَيْءٍ بِجِوَارِ مَا يَعْتَقِدُهُ الْقَلْبُ، أَوْ مَا يَسْتَقِرُّ فِي الْقَلْبِ؛ مِنَ النَّقَاءِ، وَالطُّهْرِ، وَالصَّفَاءِ، وَالْوَفَاءِ، وَمَا أَشْبَهَ!!

وَهَذَا كُلُّهُ خَطَأٌ مَحْضٌ.

لَا يُهَوِّنَنَّ أَحَدٌ مِنْ سَلَامَةِ الصَّدْرِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَنْجُو أَحَدٌ إِلَّا بِسَلَامَةِ الصَّدْرِ، مَنْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ؛ فَهَذَا مِنَ النَّاجِينَ.

وَسَلَامَةُ الْقَلْبِ إِنَّمَا تَكُونُ بِطَهَارَتِهِ مِنَ الشِّرْكِ، وَطَهَارَتِهِ مِنَ الْبِدْعَةِ، وَطَهَارَتِهِ مِنَ الْأَخْلَاقِ الذَّمِيمَةِ؛ كَالْحَسَدِ، وَالْحِقْدِ، وَالْغِلِّ، وَالْغِشِّ لِلْمُسْلِمِينَ، وَمَا أَشْبَهَ.

فَهَذِهِ كُلُّهَا مِنْ آفَاتِ الْقَلْبِ الَّتِي إِذَا مَا اسْتَقَرَّتْ فِي الْقَلْبِ؛ صَارَ قَلْبًا غَيْرَ سَلِيمٍ؛ فَلَا يُهَوِّنَنَّ أَحَدٌ مِنْ شَأْنِ طَهَارَةِ الْقَلْبِ، وَسَلَامَتِهِ.

وَلَكِنَّ الْعَمَلَ مِنَ الْإِيمَانِ، فَالْإِيمَانُ قَوْلٌ وَعَمَلٌ، اعْتِقَادٌ بِالْقَلْبِ، وَنُطْقٌ بِاللِّسَانِ، وَعَمَلٌ بِالْأَرْكَانِ.

فَالصَّلَاةُ مِنَ الْإِيمَانِ، وَالزَّكَاةُ مِنَ الْإِيمَانِ، وَقَدْ بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ ذَلِكَ صَرَاحَةً فِي حَدِيثِ مُسْلِمٍ: «**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ** -أَوْ: **وَسَبْعُونَ- شُعْبَةً، أَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَىٰ عَنِ الطَّرِيقِ، وَأَعْلَاهَا قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ**»(١).

(١) أخرجه مسلم في «**الصحيح**»: (١/ ٦٣، رقم ٣٥).

=

فَبَيَّنَ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ فِي هَذَا الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ أَنَّ الْإِيمَانَ: اعْتِقَادٌ بِالْقَلْبِ، وَنُطْقٌ بِاللِّسَانِ، وَعَمَلٌ بِالْأَرْكَانِ، يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ** -أَوْ: **وَسَبْعُونَ- شُعْبَةً، أَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَىٰ عَنِ الطَّرِيقِ**»، وَهَذَا عَمَلٌ، إِذَا مَرَّ الْإِنْسَانُ بِغُصْنِ شَوْكٍ فِي الطَّرِيقِ، أَوْ بِحَجَرٍ، أَوْ بِشَيْءٍ يُؤْذِي الْمَارَّةَ؛ فَإِنَّهُ يُنَحِّيهِ جَانِبًا.

وَقَدْ بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ فَضْلَ هَذَا الْعَمَلِ؛ فَقَالَ ﷺ: «**بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ، وَجَدَ غُصْنَ شَوْكٍ عَلَىٰ الطَّرِيقِ، فَأَخَّرَهُ، فَشَكَرَ اللهُ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ**»(١).

فَإِمَاطَةُ الْأَذَىٰ عَنِ الطَّرِيقِ مِنَ الْإِيمَانِ، وَهَذَا مِنْ عَمَلِ الْجَوَارِحِ.

قَوْلُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» هَذَا لَفْظٌ بِاللِّسَانِ، مَعَ مُوَاطَأَةِ الْقَلْبِ بِلَا مَثْنَوِيَّةٍ.

فَهَذَا نُطْقُ اللِّسَانِ، وَهَذَا عَمَلُ الْجَوَارِحِ.

«**وَالْحَيَاءُ** -وَهُوَ مِنْ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ- **شُعْبَةٌ مِنْ شُعَبِ الْإِيمَانِ**».

=

والحديث في «الصحيحين»: «**صحيح البخاري**»: (١/ ٥١، رقم ٩)، و «**صحيح مسلم**»: (١/ ٦٣، رقم ٣٥)، بلفظ: «**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ** [وللبخاري: وَسِتُّونَ] **شُعْبَةً، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ**».

(١) أخرج البخاري في «**الصحيح**»: (٢/ ١٣٩، رقم ٦٥٢)، ومسلم في «**الصحيح**»: (٤/ ٢٠٢١، رقم ١٩١٤)، من حديث: أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

وفي رواية لمسلم: «**مَرَّ رَجُلٌ بِغُصْنِ شَجَرَةٍ عَلَىٰ ظَهْرِ طَرِيقٍ، فَقَالَ: وَاللهِ لَأُنَحِّيَنَّ هَذَا عَنِ الْمُسْلِمِينَ لَا يُؤْذِيهِمْ فَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ**»، وفي أخرىٰ: «**لَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلًا يَتَقَلَّبُ فِي الْجَنَّةِ، فِي شَجَرَةٍ قَطَعَهَا مِنْ ظَهْرِ الطَّرِيقِ، كَانَتْ تُؤْذِي النَّاسَ**».

والحديث بنحوه في «صحيح مسلم» من رواية أبي برزة رضي الله عنه.

فَبَيَّنَ الرَّسُولُ ﷺ لَنَا فِي هَذَا الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَىٰ صِحَّتِهِ أَنَّ الْإِيمَانَ: اعْتِقَادٌ بِالْجَنَانِ، وَقَوْلٌ بِاللِّسَانِ، وَعَمَلٌ بِالْجَوَارِحِ وَالْأَرْكَانِ.

فَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يُخْرِجُ الْعَمَلَ مِنْ مُسَمَّىٰ الْإِيمَانِ، لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ، هَذِهِ بِدْعَةٌ اعْتِقَادِيَّةٌ، سَمَّاهَا عُلَمَاؤُنَا بِـ «الْإِرْجَاءِ»، فَيَكُونُ الرَّجُلُ مُرْجِئًا غَالِيًا فِي الْإِرْجَاءِ وَهُوَ لَا يَدْرِي: مَا الْإِرْجَاءُ؟!!

وَلَا يَعْلَمُ أَنَّهُ قَدْ تَوَرَّطَ فِي بِدْعَةٍ اعْتِقَادِيَّةٍ مِنْ كُبْرَيَاتِ الْبِدَعِ الِاعْتِقَادِيَّةِ الَّتِي دَخَلَتْ عَلَىٰ دِينِ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمِ!!

وَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ يَعْتَقِدُهُ بِقَلْبِهِ؛ مِنْ أَثَرِ مَا تَلَقَّاهُ مِنْ مُجْتَمَعِهِ، وَكَذَلِكَ مِمَّنْ يَتَكَلَّمُ فِي الدِّينِ فِي مُجْتَمَعِهِ، وَلَا يُحَذِّرُهُ مِنْ أَمْثَالِ هَذِهِ الشُّرُورِ، وَلَا يُبَيِّنُ لَهُ عَقِيدَةَ أَهْلِ السُّنَّةِ، فَيَتَوَرَّطُ فِي الْإِرْجَاءِ.

وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ تَجِدُهُ جَبْرِيًّا -أَيْضًا- فِي بَابِ الْإِيمَانِ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ؛ حَتَّىٰ إِنَّكَ لَوْ قُلْتَ لَهُ: إِنَّكَ جَبْرِيٌّ؛ فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ لَا يَفْهَمُ مَا تَقُولُ!!

كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ، ثُمَّ يَحْتَجُّونَ بِالْقَدَرِ عَلَىٰ هَذَا الَّذِي أَتَوْا بِهِ، فَيَفْعَلُ الْمُنْكَرَاتِ، فَإِذَا عُوتِبَ؛ يَقُولُ: كَتَبَ اللهُ عَلَيَّ ذَلِكَ!! فَيَجْعَلُ الْقَدَرَ مُحْتَجًّا بِهِ عَلَىٰ ارْتِكَابِ الْمَعَاصِي وَالذُّنُوبِ.

وَالْقَدَرُ مِنْ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ، يَنْبَغِي أَنْ يُؤْمِنَ الْإِنْسَانُ بِالْقَدَرِ؛ وَإِلَّا فَلَا يَصِحُّ لَهُ إِيمَانٌ، وَهُوَ الرُّكْنُ السَّادِسُ مِنْ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمِ؛ لَكِنْ لَا

يُحْتَجُّ بِالْقَدَرِ عَلَىٰ الْمَعَاصِي، يَعْنِي: إِذَا ارْتَكَبَ الْإِنْسَانُ مَعْصِيَةً؛ فَإِنَّهُ إِنَّمَا ارْتَكَبَهَا بِإِرَادَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ تَحْتَ مَشِيئَةِ اللهِ جَلَّوَعَلَا، هُوَ الَّذِي اخْتَارَ.

فِي الْأُمُورِ الِاخْتِيَارِيَّةِ: مَا يَقَعُ مِنَ الذُّنُوبِ، وَمِنَ الطَّاعَاتِ؛ إِنَّمَا يَقَعُ بِاخْتِيَارِ الْعَبْدِ، وَيُوَفِّقُهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧].

فَإِذَا اهْتَدَىٰ الْإِنْسَانُ الْهِدَايَةَ الْعَامَّةَ؛ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِ بِالْهِدَايَةِ الْخَاصَّةِ، وَبِالتَّسْدِيدِ وَالتَّوْفِيقِ، وَالتَّبْصِيرِ لِأُمُورِ الدِّينِ؛ حَتَّىٰ تَقْوَىٰ عَزِيمَتُهُ عَلَىٰ فِعْلِ الْخَيْرِ.

فَالْقَدَرُ لَا بُدَّ مِنَ الْإِيمَانِ بِهِ؛ لَكِنْ لَا يُذْكَرُ عِنْدَ الْمَعَاصِي، وَإِنَّمَا يُذْكَرُ عِنْدَ الْمَصَائِبِ، يَعْنِي: إِذَا وَقَعَ عَلَىٰ الْإِنْسَانِ مُصِيبَةٌ، وَأَصَابَهُ قَدَرٌ لَا يُلَائِمُهُ؛ فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ يَقُولُ -كَمَا فِي الْحَدِيثِ الَّذِي مَعَنَا-: «**قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ**».

فَحِينَئِذٍ يُنْزِلُ اللهُ السَّكِينَةَ عَلَىٰ قَلْبِهِ، وَيَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ لَمْ يَكُنْ لِيُدْفَعَ بِأَيِّ حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ، وَإِنَّمَا هُوَ قَدَرٌ قَدَّرَهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ لِلِابْتِلَاءِ وَالِاخْتِبَارِ.

فَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَحْتَجُّ بِالْقَدَرِ عَلَىٰ هَذِهِ الْمَعَاصِي، وَيَتَكَلَّمُونَ بِكَلَامٍ يَحْفَظُهُ الْكَبِيرُ وَالصَّغِيرُ، وَالْعَالِمُ وَالْجَاهِلُ، وَأَنَّ الْمَكْتُوبَ عَلَىٰ الْجَبِينِ لَا بُدَّ أَنْ تَرَاهُ الْعَيْنُ!!

إِنْ كَانَ يَقْصِدُ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْقَدَرِ مُجَرَّدًا؛ فَهَذَا لَا بُدَّ مِنْهُ، أَمَّا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ حُجَّةً لَهُ عَلَىٰ رَبِّهِ فِيمَا يَأْتِي بِهِ مِنَ الْمَعَاصِي وَالذُّنُوبِ؛ فَهَذَا مَرْدُودٌ عَلَيْهِ.

يَقُولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَىٰ مَا يَنْفَعُكَ**»: تَعَلَّمْ أُمُورَ الدِّينِ، اضْبِطْ أَحْكَامَ الِاعْتِقَادِ؛ فَهَذَا الْإِيمَانُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ عِنْدَكَ رَاسِخًا عَلَىٰ أَصْلٍ عَرَفْتَهُ وَعَلِمْتَهُ مِنْ كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّكَ.

يَنْبَغِي عَلَيْكَ أَنْ تَجْتَهِدَ فِي مَعْرِفَةِ ذَلِكَ؛ فَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ لَا يَلْتَفِتُونَ إِلَيْهِ؛ وَلَوْ كَانُوا حَاصِلِينَ عَلَىٰ أَكْبَرِ الشَّهَادَاتِ، وَأَعْلَىٰ الْمَرَاكِزِ الْعِلْمِيَّةِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْعُلُومِ؛ شَرْعِيَّةً أَوْ غَيْرَ شَرْعِيَّةٍ.

يَعْنِي: لَوْ سَأَلْتَ إِنْسَانًا؛ فَقُلْتَ: مَا هُوَ أَوَّلُ وَاجِبٍ عَلَىٰ الْعَبْدِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ؟

وَمَا آخِرُ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَأْخُذَ بِهِ فِي آخِرِهَا؟

أَوَّلُ شَيْءٍ، وَآخِرُ شَيْءٍ: هُوَ «**أَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»، فَأَوَّلُ وَاجِبٍ عَلَىٰ الْعَبْدِ: أَنْ يَشْهَدَ شَهَادَةَ الْحَقِّ.

هَذَا أَوَّلُ وَاجِبٍ عَلَىٰ الْعَبْدِ: أَنْ يَشْهَدَ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ.

وَآخِرُ شَيْءٍ يَنْبَغِي أَنْ يَخْرُجَ عَلَيْهِ الْإِنْسَانُ مِنَ الدُّنْيَا؛ «**مَنْ كَانَ آخِرَ كَلَامِهِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؛ دَخَلَ الْجَنَّةَ**»(١).

---

(١) أخرجه أبو داود في «**السنن**»: (٣/ ١٩٠، رقم ٣١١٦)، من حديث: مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه.

والحديث حسنه الألباني في «**إرواء الغليل**»: (٣/ ١٤٩، رقم ٦٨٧).

فَـ«لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» أَوَّلُ شَيْءٍ، وَآخِرُهُ، وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ.

فَإِذَا سَأَلْتَ الْمُسْلِمَ، فَقُلْتَ لَهُ: مَا مَعْنَىٰ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»؟

تَتَفَاوَتُ الْأَجْوِبَةُ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» يَعْنِي: لَا خَالِقَ إِلَّا اللهُ!!

هَذَا لَوْ كَانَ؛ مَا ذُكِرَ فِي الْكَلِمَةِ الطَّيِّبَةِ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»: «لَا رَبَّ إِلَّا اللهُ»!!

هُنَا أُلُوهِيَّةٌ، لَا رُبُوبِيَّة: «لَا إِلَهَ» أَيْ: لَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ «إِلَّا اللهُ»، لَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ فِي الْحَقِيقَةِ إِلَّا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ.

فَإِذَا سَأَلْتَ الْمُسْلِمَ عَنِ الْكَلِمَةِ الطَّيِّبَةِ الَّتِي إِذَا كَانَتْ مَعَهُ، وَدَخَلَ النَّارَ، وَبَقِيَ فِي النَّارِ مَا بَقِيَ؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُحَاسَبَ عَلَىٰ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ، وَأَنْ يَتَطَهَّرَ؛ لِكَيْ يَلْحَقَ بِالطَّيِّبِينَ فِي دَارِ الطِّيبِ الْمَحْضِ، وَهِيَ جَنَّةُ الْخُلْدِ.. هَذِهِ الْكَلِمَةُ لَوْ كَانَتْ مَعَ الْإِنْسَانِ، وَأُدْخِلَ النَّارَ، وَبَقِيَ فِيهَا مَا بَقِيَ؛ لَا بُدَّ أَنْ يَخْرُجَ مِنَ النَّارِ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ.

لَا يَخْلُدُ فِي النَّارِ مَنْ مَعَهُ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ».

هَذِهِ الْكَلِمَةُ الْعَظِيمَةُ؛ كَثِيرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَا يَعْرِفُ مَعْنَاهَا، إِذَا سَأَلْتَهُ؛ يَقُولُ: لَا خَالِقَ إِلَّا اللهُ!! لَا رَبَّ إِلَّا اللهُ!!

وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ: لَا حَاكِمَ إِلَّا اللهُ!!

وَهَذَا كُلُّهُ لَمْ يَقَعْ فِيهِ قَائِلُهُ عَلَىٰ الْجَادَّةِ وَالصَّوَابِ.

مَعْنَىٰ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»: لَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إِلَّا اللهُ.

لِمَاذَا نَقُولُ: «لَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ»؟

لِأَنَّنَا إِذَا لَمْ نَقُلْ: «بِحَقٍّ»، وَقُلْنَا: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» أَيْ: لَا مَعْبُودَ إِلَّا اللهُ؛ جَعَلْنَا اللهَ ﷻ جَمِيعَ الْآلِهَةِ الْمَعْبُودَةِ، فَهُنَاكَ آلِهَةٌ كَثِيرَةٌ تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ.

الْبَشَرُ يُعْبَدُونَ فِي بَعْضِ الدِّيَانَاتِ؛ بَلْ الْبَقَرُ يُعْبَدُونَ فِي الْهِنْدِ عِنْدَ الْهُنْدُوسِ وَغَيْرِهِمْ، وَكَذَلِكَ الْأَصْنَامُ مَا زَالَتْ فِي أَوَاسِطِ أَفْرِيقِيَّةَ، مَا زَالَتْ تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ جَلَّوَعَلَا!!

الْهَوَىٰ يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ جَلَّوَعَلَا، يُطَاعَ فِي مُخَالَفَةِ اللهِ جَلَّوَعَلَا، وَيُؤْخَذُ بِهِ فِي مُصَادَمَةِ الشَّرْعِ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]، فَصَارَ هَوَاهُ إِلَهًا مَعَ اللهِ.

هَذِهِ كُلُّهَا تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ؛ فَهُنَالِكَ مَعْبُودَاتٌ كَثِيرَةٌ فِي الدُّنْيَا؛ وَلَكِنْ لَيْسَ وَاحِدٌ مِنْ هَذِهِ الْمَعْبُودَاتِ مَعْبُودًا بِحَقٍّ، اللهُ وَحْدَهُ، «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» أَيْ: لَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إِلَّا اللهُ.

يَلْحَقُ بِهَذَا أَمْرٌ عَظِيمٌ، وَهُوَ: أَنَّكَ عِنْدَمَا تَقُولُ: «لَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ»؛ ذَكَرْتَ الْعِبَادَةَ، مَا هِيَ الْعِبَادَةُ؟

تَجِدُ كَثِيرًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ الطَّيِّبِينَ يُحِبُّونَ الْخَيْرَ، وَيُقْبِلُونَ عَلَيْهِ؛ وَلَكِنْ فَاتَهُمْ أَنْ يَبْحَثُوا عَنِ الْعِلْمِ الصَّحِيحِ، لَمْ يُرْشَدُوا إِلَىٰ مَا يَنْفَعُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأَوَّلُ ذَلِكَ: مَا يَتَعَلَّقُ بِالْمُعْتَقَدِ، وَأُمُورِ الْإِيمَانِ.

فَإِذَا قُلْتَ لِإِنْسَانٍ طَيِّبٍ، فِي ظَاهِرِهِ الصَّلَاحُ، وَمُقْبِلٌ عَلَىٰ فِعْلِ الطَّاعَاتِ، وَتَرْكِ الْمُنْكَرَاتِ: مَا مَعْنَىٰ الْعِبَادَةِ؟ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُحَدِّدَهَا تَحْدِيدًا صَحِيحًا،

وَإِنَّمَا يَجْعَلُهَا مُشْتَمِلَةً عَلَىٰ بَعْضِ الْأُمُورِ الْعِبَادِيَّةِ، وَيَتْرُكُ أُمُورًا كَثِيرَةً لَا يَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ أُمُورِ الْعِبَادَةِ.

يَعْنِي: سَيَقُولُ لَكَ: الْعِبَادَةُ: الصَّلَاةُ، وَالصِّيَامُ، وَالزَّكَاةُ، وَالْحَجُّ.. فَيَأْتِي بِهَذِهِ الْأُصُولِ -وَهِيَ أَرْكَانُ الْإِسْلَامِ- عَلَىٰ أَنَّهَا هِيَ الْعِبَادَةُ، وَلَا شَيْءَ بَعْدَ ذَلِكَ يَدْخُلُ فِي الْعِبَادَةِ!!

وَهَذَا خَطَأٌ مَحْضٌ يُفَوِّتُ عَلَىٰ الْإِنْسَانِ كَثِيرًا مِنَ الْخَيْرِ؛ لِأَنَّ الْعِبَادَةَ هِيَ: كُلُّ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ.

لَوْ نَظَرْتَ إِلَىٰ هَذَا التَّعْرِيفِ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ -رَحِمَهُمُ اللهُ-؛ لَعَلِمْتَ أَنَّ حَيَاتَكَ كُلَّهَا؛ حَتَّىٰ نَوْمَكَ، حَتَّىٰ أَنْ يَأْتِيَ الرَّجُلُ أَهْلَهُ.

طَعَامُكَ وَشَرَابُكَ، سُكُوتُكَ وَكَلَامُكَ، حَرَكَتُكَ وَانْبِعَاثُكَ، وَتَثْبِيطُكَ إِلَىٰ الْأَرْضِ؛ كُلُّ ذَلِكَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ عِبَادَةً للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِشَرْطِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّهُ مِنَ الْعِبَادَةِ إِذَا كَانَ مَحْبُوبًا للهِ جَلَّ وَعَلَا.

يَقُولُ الْعُلَمَاءُ -عَلَيْهِمُ الرَّحْمَةُ-: «الْعِبَادَةُ: كُلُّ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ».

«وَالْبَاطِنَةِ»، فَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ: اعْتِقَادُ الْقَلْبِ؛ عَمَلُهُ وَقَوْلُهُ، أَنَّ الْقَلْبَ يُحِبُّ وَيُبْغِضُ، وَيَرْجُو، وَيُشْفِقُ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ.

هَذِهِ كُلُّهَا عِبَادَاتٌ مِنْ أَعْظَمِ الْعِبَادَاتِ؛ فَيَنْبَغِي عَلَىٰ الْإِنْسَانِ أَنْ يُحَرِّرَهَا للهِ جَلَّ وَعَلَا؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أَحَبَّ مَعَ اللهِ؛ أَشْرَكَ بِاللهِ جَلَّ وَعَلَا، أَمَّا إِذَا أَحَبَّ للهِ، أَوْ أَحَبَّ فِي اللهِ؛ فَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْقُرُبَاتِ عِنْدَ اللهِ.

فَتَأَمَّلْ فِي هَذِهِ الدَّقَائِقِ فِي دِينِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، وَهِيَ مِنْ أَيْسَرِ مَا يَكُونُ؛ وَلَكِنَّ النَّاسَ لَا تَنْبَعِثُ نِيَّاتُهُمْ، وَلَا يَتَحَفَّزُونَ لِطَلَبِ الْعِلْمِ؛ لِأَنَّ الْعِلْمَ ذَكَرٌ، لَا يُحِبُّهُ إِلَّا الذُّكْرَانُ مِنَ الرِّجَالِ، وَأَمَّا الْمُخَنَّثُونَ مِنَ الرِّجَالِ؛ فَإِنَّهُمْ لَا يُحِبُّونَ الْعِلْمَ، وَلَا يُقْبِلُونَ عَلَيْهِ، وَفِيهِ نَجَاتُهُمْ، وَسَعَادَتُهُمْ، وَفَلَاحُهُمْ دُنْيَا وَآخِرَةً.

فَهَذِهِ أُمُورٌ كَثِيرَةٌ تَلْحَقُ بِهَذَا النَّصِّ النَّبَوِيِّ الْكَرِيمِ مِنْ جَوَامِعِ كَلِمِ نَبِيِّنَا الْعَظِيمِ ﷺ.

«**احْرِصْ عَلَىٰ مَا يَنْفَعُكَ**»: تَعَلَّمِ الْعِلْمَ النَّافِعَ، وَاعْمَلِ الْعَمَلَ الصَّالِحَ، وَاجْتَهِدْ فِي أَنْ تَكُونَ نِيَّتُكَ فِي كُلِّ أَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ تَأْتِي بِهِ؛ أَنَّهُ يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلَىٰ اللهِ: «**اللُّقْمَةُ يَضَعُهَا أَحَدُكُمْ فِي فِي** -أَيْ: فِي فَمِ- **امْرَأَتِهِ؛ لَهُ بِهَا صَدَقَةٌ**»(١).

«**الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ**»(٢).

---

(١) أخرج البخاري في «**الصحيح**»: (١/ ١٣٦، رقم ٥٦)، ومسلم في «**الصحيح**»: (٣/ ١٢٥٠، رقم ١٦٢٨)،من حديث: سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، أَنَّهُ أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «**إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ إِلَّا أُجِرْتَ عَلَيْهَا، حَتَّىٰ مَا تَجْعَلُ فِي فَمِ امْرَأَتِكَ**».

وفي رواية لهما: «...، **حَتَّىٰ اللُّقْمَةَ تَجْعَلُهَا فِي فِي امْرَأَتِكَ**».

(٢) أخرج البخاري في «**الصحيح**»: (٦/ ١٣٢، رقم ٢٩٨٩)، ومسلم في «**الصحيح**»: (٢/ ٦٩٩، رقم ١٠٠٩)، من حديث: أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**كُلُّ سُلَامَىٰ مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ، كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ يَعْدِلُ بَيْنَ الِاثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، وَيُعِينُ الرَّجُلَ عَلَىٰ دَابَّتِهِ فَيَحْمِلُ عَلَيْهَا أَوْ يَرْفَعُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، وَالكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا إِلَىٰ الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ، وَيُمِيطُ الأَذَىٰ عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ**».

«**ابْتِسَامُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ صَدَقَةٌ**»(١).

إِفْرَاغُكَ مِنْ دَلْوِكَ فِي دَلْوِ أَخِيكَ الْعَاجِزِ صَدَقَةٌ، أَنْ تُعِينَهُ عَلَىٰ رُكُوبِ دَابَّتِهِ، تَحْمِلُهُ عَلَيْهَا، أَوْ تَحْمِلُ مَتَاعَهُ عَلَيْهَا صَدَقَةٌ.

كُلُّ هَذِهِ عِبَادَةٌ؛ لِأَنَّ الصَّدَقَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا عِبَادَةً، فَالْإِنْسَانُ إِذَا أَتَىٰ بِهَذِهِ الْأُمُورِ؛ كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَاتٌ بِشَرْطِ أَنْ يَنْوِيَهُ: طَعَامُكَ، عِنْدَمَا تَنْوِي بِطَعَامِكَ وَشَرَابِكَ أَنْ تَتَقَوَّىٰ بِذَلِكَ عَلَىٰ طَاعَةِ اللهِ، وَأَنْ تَتَقَوَّىٰ بِذَلِكَ عَلَىٰ طَلَبِ الرِّزْقِ الْحَلَالِ فِي دُنْيَا اللهِ؛ لِتَكُفَّ نَفْسَكَ عَنِ السُّؤَالِ، وَتَحْفَظَ مَاءَ وَجْهِكَ عَنِ التَّبَذُّلِ، وَكَذَلِكَ لِتَمُونَ أَهْلَكَ وَعِيَالَكَ وَمَنْ لَهُمْ حَقٌّ عَلَيْكَ.

إِذَا مَا نَظَرْتَ إِلَىٰ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ عَلَىٰ هَذَا النَّحْوِ؛ كَانَ تَلَذُّذُكَ بِالطَّعَامِ وَبِالشَّرَابِ مِنْ عَطَايَا رَبِّكَ عَلَيْكَ، مَعَ مَا أَتَيْتَ بِهِ مِنْ تَوْجِيهِ ذَلِكَ لِلْخَيْرِ بِنِيَّةٍ صَالِحَةٍ، فَيَكُونُ لَكَ بِهِ أَجْرٌ.

بَلْ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَيَّنَ لَنَا مَا هُوَ أَبْعَدُ عَنْ أَذْهَانِنَا مِنْ ذَلِكَ بِكَثِيرٍ، فَقَالَ: «**وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ**».

قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟!!

---

(١) أخرج الترمذي في «**الجامع**»: (٤/ ٣٣٩، رقم ١٩٥٦)، من حديث: أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ**،...» الحديث.

والحديث حسنه الألباني في «**الصحيحة**»: (٢/ ١١٦، رقم ٥٧٢)، وفي «**صحيح الترغيب والترهيب**»: (٢/ ٥٨١، رقم ٢٣٢١).

قَالَ: «**أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ**»(١).

فَسُبْحَانَ الْوَهَّابِ الْكَبِيرِ!!

فَكُلُّ هَذِهِ عِبَادَةٌ للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فَكُلُّ حَرَكَةِ الْحَيَاةِ مِنْ ظَاهِرٍ وَبَاطِنٍ عِبَادَةٌ للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِشَرْطِ: أَنْ تُوَجِّهَ ذَلِكَ بِالنِّيَّةِ الصَّالِحَةِ.

الْمُوَفَّقُونَ يُحَوِّلُونَ الْعَادَاتِ إِلَىٰ عِبَادَاتٍ، وَالْمَخْذُولُونَ يُحَوِّلُونَ الْعِبَادَاتِ إِلَىٰ عَادَاتٍ، هُوَ يُصَلِّي؛ وَلَكِنَّ نِيَّتَهُ بَعِيدَةٌ عَنِ الصَّلَاةِ، وَفَهْمُهُ لِلصَّلَاةِ بِالسُّجُودِ للهِ، وَالْقِيَامِ بَيْنَ يَدَيْهِ: مَعْدُومٌ، فَهَذَا حَوَّلَ الْعِبَادَةَ إِلَىٰ عَادَةٍ.

وَأَمَّا الْمُوَفَّقُ؛ فَإِنَّهُ يُحَوِّلُ الْعَادَةَ إِلَىٰ عِبَادَةٍ، النَّاسُ يَأْكُلُونَ، وَيَشْرَبُونَ، وَيَتَنَاكَحُونَ، وَيَلْبَسُونَ؛ وَلَكِنْ فِي إِطَارِ الشَّرْعِ: بِالنِّيَّةِ الصَّالِحَةِ تَصِيرُ عِبَادَةً للهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.

«**احْرِصْ عَلَىٰ مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ**»: لِتَكُنْ اسْتِعَانَتُكَ بِاللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وَحْدَهُ، «**وَلَا تَعْجِزْ**».

إِذَنْ؛ مَعَنَا فِي الْفَاتِحَةِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾: لَا نَعْبُدُ إِلَّا أَنْتَ، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]: لَا نَسْتَعِينُ إِلَّا بِكَ؛ فَمَدَارُ الدِّينِ عَلَىٰ هَاتَيْنِ الْقَاعِدَتَيْنِ، وَهُمَا: الْعِبَادَةُ، وَالِاسْتِعَانَةُ.

فِي هَذَا الْحَدِيثِ: «**احْرِصْ عَلَىٰ مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَلَا تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ**» يَعْنِي: إِنْ بَعَثْتَ فِي طَلَبِ أَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ الْمَحْمُودَةِ لَدَيْكَ: فِي

(١) أخرجه مسلم في «الصحيح»: (٢/ ٦٩٧، رقم ١٠٠٦)، من حديث: أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه.

طَلَبِ وَظِيفَةٍ، أَوْ تِجَارَةٍ، أَوْ مَا أَشْبَهَ، فَلَمْ يُقَدَّرْ -لَمْ يُقَدِّرْهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لَكَ- وَأَنْتَ لَمْ تُقَصِّرْ؛ وَلَكِنَّ اللهَ صَرَفَ عَنْكَ شَيْئًا قَدْ يَكُونُ شَرًّا عَلَيْكَ فِي الْحَالِ وَفِي الْمَآلِ، وَحِكْمَةُ اللهِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ.

«**وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ**» يَعْنِي: مِمَّا تَكْرَهُ؛ «**فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ؛ لَكَانَ كَذَا وَكَذَا**».

هَذَا اعْتِرَاضٌ عَلَىٰ الْمَقْدُورِ، وَهَذَا مِنَ اسْتِعْمَالَاتِ (لَوْ) الْمُحَرَّمَةِ؛ لِأَنَّ (لَوْ) يُؤْتَىٰ بِهَا أَحْيَانًا فِي الِاعْتِرَاضِ عَلَىٰ الْمَقْدُورِ، كَمَا فِي هَذَا الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ: «**لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ؛ لَكَانَ كَذَا وَكَذَا**»، يُؤْتَىٰ بِهَا أَحْيَانًا لِلِاعْتِرَاضِ عَلَىٰ الشَّرِيعَةِ، عَلَىٰ الْأَحْكَامِ: ﴿**لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟**﴾ [آل عمران: ١٦٨]، كَمَا قَالَ الْمُنَافِقُونَ عَنْ شُهَدَاءِ أُحُدٍ رضي الله عنهم.

عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ بْنِ سَلُولٍ انْحَازَ وَانْخَذَلَ بِثُلُثِ الْجَيْشِ فِي غَزْوَةِ أُحُدٍ، وَوَقَعَ مِنَ الْمَقْتَلَةِ عَلَىٰ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ مَا وَقَعَ، قُتِلَ سَبْعُونَ، فَكَانَ الْمُنَافِقُونَ يَقُولُونَ: ﴿**لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟**﴾، فَهَذَا اعْتِرَاضٌ عَلَىٰ الشَّرِيعَةِ، وَ(لَوْ) هَا هُنَا مُحَرَّمَةٌ.

وَكَذَلِكَ فِي الِاعْتِرَاضِ عَلَىٰ الْمَقْدُورِ: «**لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ؛ كَانَ كَذَا وَكَذَا**»، وَكَذَلِكَ فِي اتِّخَاذِ الْقَدَرِ حُجَّةً عَلَىٰ الْمَعْصِيَةِ: ﴿**لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا**﴾ [الأنعام: ١٤٨].

فَهَذَا اسْتِعْمَالٌ لِـ (لَوْ) فِي الِاعْتِرَاضِ بِالْقَدَرِ عَلَىٰ الْمَعَاصِي.

وَأَمَّا إِذَا كَانَ الْأَمْرُ مَبْنِيًّا عَلَىٰ أَمْرٍ شَرْعِيٍّ يَكُونُ طَاعَةً للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ مِنْ تَمَنِّي فِعْلِ الْخَيْرِ، وَلَا اعْتِرَاضَ عَلَىٰ الشَّرْعِ وَلَا عَلَىٰ الْقَدَرِ، وَلَا احْتِجَاجَ بِالْقَدَرِ عَلَىٰ

مَا أَتَىٰ بِهِ الْإِنْسَانُ مِنَ الْمَعَاصِي وَالذُّنُوبِ؛ فَهَذَا لَا شَيْءَ فِيهِ؛ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَوِ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ؛ مَا سُقْتُ الْهَدْيَ**»(١).

لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ قَارِنًا فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ؛ لِأَنَّهُ سَاقَ الْهَدْيَ، فَلَمَّا سَاقَ الْهَدْيَ؛ لَيْسَ لَهُ أَنْ يَتَحَلَّلَ مِنَ الْعُمْرَةِ إِلَىٰ الْحَجِّ، فَيَكُونُ مُتَمَتِّعًا، مَعَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَ الْمُسْلِمِينَ -مِمَّنْ لَمْ يَسُقِ الْهَدْيَ- أَمَرَهُمْ بِأَنْ يَتَحَلَّلُوا مِنْ إِحْرَامِهِمْ بَعْدَ الْعُمْرَةِ، وَأَنْ يَتَمَتَّعُوا؛ حَتَّىٰ يُهِلُّوا بِالنُّسُكِ الْأَكْبَرِ: بِالْحَجِّ إِلَىٰ بَيْتِ اللهِ الْعَتِيقِ.

وَأَمَّا هُوَ ﷺ؛ فَيَقُولُ: «**لَوِ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ؛ مَا سُقْتُ الْهَدْيَ**»؛ يَعْنِي: لَكُنْتُ تَمَتَّعْتُ، وَلَمْ أَكُنْ قَارِنًا ﷺ.

فَهَذَا لَا شَيْءَ فِيهِ.

«**لَا تَقُلْ: لَوْ؛ فَإِنَّ (لَوْ) تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**»، تَجْعَلُ الْإِنْسَانَ قَلِقًا مُشَوَّشًا.

«مَا اسْتَأْثَرَ اللهُ بِهِ؛ فَالْهُ عَنْهُ»: انْسَهُ، مَا اسْتَأْثَرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِهِ؛ فَالْهُ عَنْهُ.

هَذِهِ كَلِمَةُ الْخَلِيفَةِ الرَّاشِدِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ لَمَّا مَاتَ وَلَدُهُ عَبْدُ الْمَلِكِ، وَكَانَ عَبْدُ الْمَلِكِ سَبَبًا فِي كَثِيرٍ مِنَ الْخَيْرِ الَّذِي حَازَهُ أَبُوهُ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ، كَانَ صُلْبًا فِي السُّنَّةِ، مُوَاظِبًا مُحَافِظًا عَلَىٰ مَا يُحِبُّهُ اللهُ، وَكَانَ كَثِيرًا مَا يَطْلُبُ مِنْ أَبِيهِ أَنْ يُقِيمَ أُمُورًا تَوَرَّطَ فِيهَا بَنُو أُمَيَّةَ قَبْلَ أَنْ تَصِيرَ الْخِلَافَةُ إِلَىٰ عُمَرَ رضي الله عنه.

فَلَمَّا مَاتَ -وَكَانَ لَهُ مُحِبًّا، وَمَاتَ شَابًّا- دَفَنَهُ، فَلَمَّا أَنْ فَرَغَ مِنْ دَفْنِهِ؛ وَجَدَ شَابًّا يُشِيرُ بِشِمَالِهِ؛ فَقَالَ: «يَا ابْنَ أَخِي! أَشِرْ بِيَمِينِكَ».

---

(١) أخرجه البخاري في «**الصحيح**»: (١٣/ ٢١٨، رقم ٧٢٢٩)، ومسلم في «**الصحيح**»: (٢/ ٨٧٩، رقم ١٢١١)، من حديث: عَائِشَةَ رضي الله عنها.

وَأَيْضًا: رَأَىٰ شَابًّا قَدِ اسْتَرْسَلَ إِزَارُهُ، فَقَالَ: «يَا ابْنَ أَخِي! ارْفَعْ إِزَارَكَ»؛ لِأَنَّ الْإِسْبَالَ مِنَ الْكَبَائِرِ، فَقَالَ: «ارْفَعْ إِزَارَكَ».

قَالَ مَنْ وُجِّهَ إِلَيْهِ هَذَا الْخَيْرُ: فِي هَذَا الْمَوْطِنِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟!! يَعْنِي: الْعَبْرَةُ عَلَىٰ وَلَدِكَ عَبْدِ الْمَلِكِ لَمْ تَجِفَّ بَعْدُ، اللَّوْعَةُ عَلَيْهِ لَمْ تَذْهَبْ عَنِ الْقَلْبِ بَعْدُ، مَا زَالَ تُرَابُ قَبْرِهِ عَالِقًا بِيَدَيْكَ.

فَيَقُولُ لِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ؟!! يَعْنِي: لَا تَنْسَىٰ النَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ، لَا تَنْسَىٰ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ، لَا تَنْسَىٰ الِالْتِزَامَ بِالشَّرِيعَةِ فِي هَذَا؟!!

فَقَالَ: «يَا ابْنَ أَخِي! مَا اسْتَأْثَرَ اللهُ بِهِ؛ فَالْهُ عَنْهُ».

مَاتَ، مَاذَا تَصْنَعُ؟!!

الصَّبْرُ صَبْرَانِ: صَبْرُ الْكِرَامِ، وَصَبْرُ اللِّئَامِ.

فَأَمَّا الْكَرِيمُ؛ فَإِنَّهُ يَرْضَىٰ بِقَلْبِهِ عَنْ قَدَرِ اللهِ فِيهِ، وَيَنْطَلِقُ لِسَانُهُ بِالرِّضَا عَنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَجَوَارِحُهُ لَا تَأْتِي بِشَيْءٍ يُغْضِبُ الرَّبَّ جَلَّ وَعَلَا؛ مِنْ شَقِّ الْجُيُوبِ، وَلَطْمِ الْخُدُودِ، وَنَتْفِ الشُّعُورِ.

وَكَذَلِكَ اللِّسَانُ يَنْضَبِطُ، وَلَا يَنْطِقُ إِلَّا بِمَا يُرْضِي اللهَ جَلَّ وَعَلَا: «**إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، اللهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي، وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا**»(١).

---

(١) أخرج مسلم في «**الصحيح**»: (٢/ ٦٣١، رقم ٩١٨)، من حديث: أُمِّ سَلَمَةَ، قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ، فَيَقُولُ مَا أَمَرَهُ اللهُ: إِنَّا لِلَّهِ**

لَا يَقُولُ: وَا جَبَلَاهُ، وَا كَذَا، وَا كَذَا.. مِمَّا يَعْتَرِضُ بِهِ عَلَىٰ قَدَرِ اللهِ.

فَيَنْبَغِي عَلَىٰ الْإِنْسَانِ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي أَنْ يَكُونَ صَابِرًا صَبْرَ الْكِرَامِ.

أَمَّا صَبْرُ اللِّئَامِ؛ فَلَا بُدَّ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَتَسَلَّىٰ عَنْ فَقِيدِهِ؛ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ.

هَذِهِ سُنَّةُ اللهِ فِي خَلْقِهِ، جَعَلَهَا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هَكَذَا؛ وَإِلَّا مَا اسْتَطَاعَ الْبَشَرُ أَنْ يَعِيشُوا فِي هَذِهِ الْأَرْضِ.

الْأَحْزَانُ تَطْمُرُهَا الْأَيَّامُ وَاللَّيَالِي، وَكَرُّ السِّنِينَ، الْأَحْدَاثُ الَّتِي تَمُرُّ بِالْعَبْدِ يُنْسِي بَعْضُهَا بَعْضًا، وَهَذَا يَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ؛ وَلَكِنْ عَلَىٰ الْإِنْسَانِ أَنْ يَصْبِرَ صَبْرَ الْكِرَامِ.

وَأَمَّا الَّذِي يَصْبِرُ صَبْرَ اللِّئَامِ؛ فَسَيَسْلُو بَعْدَ حِينٍ رَاغِمًا، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَظَلَّ مُوَاظِبًا عَلَىٰ حُزْنِهِ إِلَىٰ الْمَمَاتِ، بَلْ سَيَخِفُّ ذَلِكَ شَيْئًا فَشَيْئًا.

فَخُذْ بِمَا يَنْفَعُكَ، وَبِمَا يَنْفَعُ مَيِّتَكَ.

ادْعُ اللهَ لَهُ أَنْ يُثَبِّتَهُ عِنْدَ السُّؤَالِ، وَأَنْ يَغْفِرَ لَهُ.

وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.

❀❀❀

=

وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، اللهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي، وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا أَخْلَفَ اللهُ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا»،... الحديث.

الْمَوْعِظَةُ الثَّانِيَةُ:

تَوَقَّفْ!

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

- **أَمَّا بَعْدُ:**

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

- **أَمَّا بَعْدُ:**

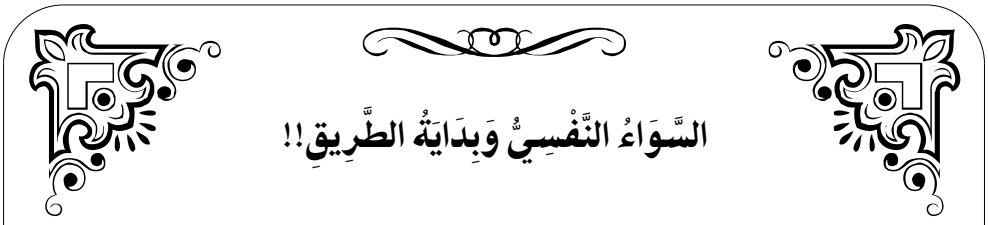

السَّوَاءُ النَّفْسِيُّ وَبِدَايَةُ الطَّرِيقِ!!

فَإِنَّ السَّوَاءَ النَّفْسِيَّ أَمْرٌ عَزِيزٌ فِي الْبَشَرِ، قَدْ تَحْيَا حَيَاتَكَ كُلَّهَا لَا تَرَىٰ رَجُلًا سَوِيًّا قَدْ حَصَّلَ السَّوَاءَ النَّفْسِيَّ كَمَا يَنْبَغِي أَنْ يُحَصِّلَهُ!!

الْبَشَرُ دَائِمًا يَحْيَوْنَ فِي الْأَكَاذِيبِ، يَسْتَمْرِئُونَهَا، وَيُبْغِضُونَ الْحَقَائِقَ، وَيُبْغِضُونَ مَنْ يُوَاجِهُهُمْ بِهَا؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يُشَارِكُ فِي صُنْعِ نَفْسِيَّتِهِ وَفِي تَهْيِئَةِ خَلْفِيَّتِهِ الْعَقْلِيَّةِ وَالْفِكْرِيَّةِ كَثِيرٌ مِنَ الْأُمُورِ؛ لَا يَنْفَرِدُ أَمْرٌ وَاحِدٌ بِتَشْكِيلِ نَفْسِيَّةِ الْمَرْءِ، وَإِنَّمَا يُشَارِكُ فِي صُنْعِ هَذِهِ النَّفْسِيَّةِ أَطْرَافٌ كَثِيرَةٌ، وَهَذِهِ الْأَطْرَافُ قَدْ تَكُونُ مُتَعَارِضَةً؛ فَيَقَعُ الصِّرَاعُ النَّفْسِيُّ عَلَىٰ الْمُسْتَوَىٰ الشَّخْصِيِّ، وَرُبَّمَا أَدَّىٰ إِلَىٰ كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرَاضِ الَّتِي لَا تُنْظَرُ وَلَا تُحَسُّ.

السَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يُحَدِّدُ طَرِيقَهُ بِرَوِيَّةٍ وَفِكْرٍ وَعَقْلٍ، وَإِنَّمَا يَجِدُ نَفْسَهُ فِي مُجْتَمَعٍ مَا؛ فِي زَمَانٍ مَا؛ فِي ظُرُوفٍ مَا؛ فِي وَقْتٍ مَا؛ عَلَىٰ هَيْئَةٍ مَا، خُلِقَ لِأَبَوَيْنِ لَمْ يَخْتَرْهُمَا، وَفِي ظُرُوفٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ وَعِلْمِيَّةٍ وَاقْتِصَادِيَّةٍ لَمْ يُحَدِّدْهَا، ثُمَّ يَمْضِي فِي الْحَيَاةِ، وَيَظَلُّ مَاضِيًا فِيهَا عَلَىٰ حَسَبِ النُّقْطَةِ الَّتِي بَدَأَ مِنْهَا، قَدْ تَكُونُ الْبِدَايَةُ غَيْرَ صَحِيحَةٍ، فَكُلَّمَا أَمْعَنَ وَاجْتَهَدَ فِي السَّيْرِ؛ ابْتَعَدَ عَنِ الْغَايَةِ.

وَالْأَمْرُ يَسِيرٌ.. لَوْ أَنَّنَا الْآنَ نُرِيدُ أَنْ نَقِفَ مِنْ أَجْلِ الصَّلَاةِ؛ نَتَوَجَّهُ إِلَىٰ قِبْلَةِ اللهِ جَلَّوَعَلَا، لَوْ أَخَذْنَا خَطًّا مِنَ النُّقْطَةِ الَّتِي نَقِفُ عَلَيْهَا -خَطًّا مُسْتَقِيمًا- يَصِلُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْكَعْبَةِ، مَعَ أَنَّ ذَلِكَ لَا يَلْزَمُنَا بِالتَّوَجُّهِ إِلَىٰ عَيْنِهَا مَا دُمْنَا لَا نَرَاهَا، وَلَكِنْ نَتَوَجَّهُ إِلَىٰ جِهَتِهَا.

عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ لَوْ أَنَّنَا أَخَذْنَا خَطًّا مُسْتَقِيمًا مِنَ النُّقْطَةِ الَّتِي نَقِفُ فِيهَا مُهَيِّئِينَ أَنْفُسَنَا لِلصَّلَاةِ مُتَوَجِّهِينَ إِلَىٰ قِبْلَةِ اللهِ، وَهَذَا الْخَطُّ الْمُسْتَقِيمُ يَبْدَأُ مِنْ بَيْنِ أَرْجُلِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الْكَعْبَةِ الْمُشَرَّفَةِ، فَانْحَرَفْنَا فِي بِدَايَةِ الْوُقُوفِ عَنْ هَذَا الْخَطِّ الْمُسْتَقِيمِ الَّذِي يَصِلُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْغَايَةِ الَّتِي نَتَغَيَّاهَا، انْحَرَفْنَا عَنْ هَذَا الْخَطِّ دَرَجَةً وَاحِدَةً مِنَ الدَّرَجَاتِ الْهَنْدَسِيَّةِ الْمَعْرُوفَةِ؛ كُلَّمَا أَمْعَنَّا فِي السَّيْرِ؛ ابْتَعَدْنَا عَنِ الْغَايَةِ.

إِذَنْ؛ الْبِدَايَةُ لَا يَتَوَقَّفُ الْمَرْءُ حِينًا يَسِيرًا لِلنَّظَرِ فِيهَا، وَإِنَّمَا يَمْضِي فِي طَرِيقِهِ!!

قَدْ تَكُونَ بَدَأْتَ بِدَايَةً خَاطِئَةً، وُضِعْتَ فِي مَكَانٍ مَا لَمْ تُفَكِّرْ فِيهِ، وَلَمْ تَلْتَفِتْ إِلَىٰ عَوَاقِبِهِ وَنَتَائِجِهِ، الدَّلِيلُ عَلَىٰ ذَلِكَ: أَنَّكَ رُبَّمَا لَا تَعْرِفُ أَحَدًا فِي هَذَا الْكَوْنِ غَيَّرَ مَسَارَ حَيَاتِهِ بَعْدَ نَظَرٍ وَفِكْرٍ ورَوِيَّةٍ، وَأَخَذَ يَتَأَمَّلُ فِي حَالِهِ وَمَآلِهِ، ثُمَّ تَبَيَّنَ خَطَأَ مَا هُوَ عَلَيْهِ؛ فَغَيَّرَ مَسَارَ حَيَاتِهِ.

أَنْتَ لَا تَعْلَمُ مِنْ هَؤُلَاءِ الْبَشَرِ إِلَّا أَنَّهُمْ يَمْضُونَ فِيمَا وُجِدُوا فِيهِ، جَادِّينَ فِي تَحْصِيلِ مَا تَوَهَّمُوهُ، مَعَ أَنَّ هَذَا فِي النِّهَايَةِ لَا يَكُونُ إِلَّا خَيَالًا وَسَرَابًا.

النَّبِيُّ ﷺ دَلَّنَا عَلَىٰ أَمْرٍ مَا، وَهَذَا الْأَمْرُ قَدْ نُخَالِفُهُ كَثِيرًا -بَلْ نَحْنُ نُخَالِفُهُ كَثِيرًا-: نَهَىٰ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُضْرَبَ الصَّغِيرُ عَلَىٰ الصَّلَاةِ إِذَا تَرَكَهَا حَتَّىٰ يَصِلَ إِلَىٰ عَشْرِ سَنَوَاتٍ: «**مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ لِسَبْعٍ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا** -أَيْ: عَلَىٰ تَرْكِهَا- **لِعَشْرٍ**»(١).

فَمَنَعَ النَّبِيُّ ﷺ الْأَمْرَ بِالصَّلَاةِ أَمْرًا جَازِمًا؛ لِأَنَّهُ لَا يَلْزَمُهُ الصَّلَاةُ وَلَيْسَتْ بِفَرْضٍ عَلَيْهِ، وَإِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ يُعَوَّدَ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَلَكِنَّهُ يُؤْمَرُ أَمْرًا رَفِيقًا فِيهِ تَرْغِيبٌ وَتَرْهِيبٌ؛ لَا يَصِلُ إِلَىٰ حَدِّ الضَّرْبِ، وَلَكِنْ لَا يُضْرَبُ إِلَّا إِذَا بَلَغَ عَشْرَ سَنَوَاتٍ.

يَقُولُ النَّفْسِيُّونَ: إِنَّهُ لَا عُصَابَ فِي الْكِبَرِ إِلَّا بِعُصَابٍ فِي الصِّغَرِ؛ يَعْنِي: لَنْ تَجِدَ أَحَدًا أُصِيبَ بِالِاكْتِئَابِ أَوْ بِالْفِصَامِ أَوْ بِالْجُنُونِ أَوْ بِالْهَلَاوِسِ السَّمْعِيَّةِ أَوِ الْبَصَرِيَّةِ أَوِ الْحِسِّيَّةِ، بِأَيِّ مَرَضٍ نَفْسِيٍّ؛ لَنْ يُصَابَ بِهِ عَلَىٰ كِبَرٍ إِلَّا وَقَدْ بَدَأَتِ الْإِصَابَةُ بِهِ فِي الصِّغَرِ، فِي أَيِّ سِنٍّ؟ إِلَىٰ سِتِّ سَنَوَاتٍ.

فَلَا عُصَابَ فِي الْكِبَرِ إِلَّا بِعُصَابٍ فِي الصِّغَرِ؛ لِذَلِكَ يُرْجِعُونَ ذَلِكَ إِلَىٰ الْخَلْفِيَّةِ الْقَدِيمَةِ فِي حَالِ الطُّفُولَةِ.

النَّاسُ يَحْيَوْنَ دَائِمًا فِي الْأَوْهَامِ وَالْأَكَاذِيبِ، وَيَأْخُذُونَ بِمَا يُسَمَّىٰ بِالْحِيَلِ الدِّفَاعِيَّةِ مِنْ أَجْلِ أَلَّا يَنْكَسِرَ أَمَامَ نَفْسِهِ وَأَمَامَ مُجْتَمَعِهِ!!

---

(١) أخرجه أبو داود: (١/ ١٣٣، رقم ٤٩٥)، من حديث: عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.
والحديث صححه الألباني في «**إرواء الغليل**»: (١/ ٢٦٦، رقم ٢٤٧)، وله شاهد من حديث: سبرة بن معبد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

مِنَ الْحِيَلِ النَّفْسِيَّةِ: شَيْءٌ مَعْرُوفٌ وَهُوَ «التَّبْرِيرُ»، وَكَذَلِكَ مِنَ الْحِيَلِ النَّفْسِيَّةِ: «الْإِسْقَاطُ»، وَهُوَ أَمْرٌ مَعْرُوفٌ -أَيْضًا-.

التَّبْرِيرُ يَعْرِفُهُ النَّاسُ جَمِيعًا، وَيَضْرِبُونَ عَلَيْهِ الْمَثَلَ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَلْتَفِتُونَ إِلَىٰ مَعْنَاهُ، وَلَا يَجْتَهِدُونَ فِي مَعْرِفَةِ مَغْزَاهُ، حَتَّىٰ لَا يَأْخُذُوا بِتِلْكَ الْحِيلَةِ الدِّفَاعِيَّةِ مَعَ وُقُوعِهِمْ فِي الْأَخْطَاءِ، فَيُبَرِّرُونَ لِأَنْفُسِهِم أَخْطَاءَهُمْ.

تَذْكُرُونَ قِصَّةَ الثَّعْلَبِ الَّذِي أَرَادَ أَنْ يَتَحَصَّلَ عَلَىٰ قِطْفِ الْعِنَبِ -وَكَانَ عَالِيًا-، فَأَخَذَ يَثِبُ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُحَصِّلَهُ؛ فَلَمْ يَبْلُغْهُ، فَفِي النِّهَايَةِ قَالَ هُوَ حَامِضٌ؛ فَهَذَا تَبْرِيرٌ!!

تَجِدُ هَذَا كَثِيرًا عِنْدَ الطُّلَّابِ؛ مَثَلًا إِذَا مَا تَحَصَّلُوا عَلَىٰ الثَّانَوِيَّةِ، ثُمَّ تَقَدَّمُوا لِكُلِّيَّةٍ مِنَ الْكُلِّيَّاتِ الَّتِي تَتَطَلَّبُ مُقَدَّرَاتٍ وَقُدُرَاتٍ خَاصَّةً، وَيَكُونُ حَرِيصًا غَايَةَ الْحِرْصِ عَلَىٰ الِالْتِحَاقِ بِهَا؛ فَيَفْشَلُ، فَيَقُولُ إِذَا مَا أُخْبِرَ بِفَشَلِهِ: تَعْلَمُونَ لَوْ أَنَّنِي قُبِلْتُ فِيهَا؛ مَا دَخَلْتُهَا، هَلْ هَذِهِ كُلِّيَّةٌ؟ هَلْ هَذَا مُسْتَقْبَلٌ؟

هَذَا تَبْرِيرٌ، وَهُوَ يُحَاوِلُ جَاهِدًا أَلَّا يَنْكَسِرَ أَمَامَ نَفْسِهِ.

النَّاسُ فِي الْجُمْلَةِ يَحْيَوْنَ فِي الْأَكَاذِيبِ، لَا يُوَاجِهُونَ الْحَقَائِقَ، وَإِذَا وَاجَهَهُمْ أَحَدٌ بِالْحَقِيقَةِ عَارِيَةً؛ فَإِنَّهُمْ يُبْغِضُونَهُ وَيُحَارِبُونَهُ، مَعَ أَنَّ الْحَقِيقَةَ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَمْتَرِيَ فِيهَا أَحَدٌ.

أَيْضًا الْإِسْقَاطُ..

وَتَعْجَبُ غَايَةَ الْعَجَبِ عِنْدَمَا تَجِدُهُ فِي الْحَيَاةِ وَلَا تَكُونُ مُطَّلِعًا عَلَىٰ خَلْفِيَّتِهِ وَمَغْزَاهُ.. أَبٌ قَاسٍ فِيهِ صَرَامَةٌ وَخُشُونَةٌ وَعُنْفٌ؛ فَيَقْسُو عَلَىٰ وَلَدِهِ قَسْوَةً مُفْرَطَةً مِنْ غَيْرِ مَا مُبَرِّرٍ، وَعَمٌّ أَلِيفٌ شَفِيقٌ رَحِيمٌ وَدُودٌ يَحْنُو عَلَىٰ ابْنِ أَخِيهِ أَكْثَرَ مِمَّا يَحْنُو عَلَيْهِ أَبُوهُ، فَمَاذَا تَجِدُ؟

تَجِدُ الْوَلَدَ -الَّذِي يَقْسُو عَلَيْهِ أَبُوهُ- يَطْعَنُ وَيَذُمُّ عَمَّهُ، هَذَا إِسْقَاطٌ، هُوَ لَا يُرِيدُ أَنْ يَذُمَّ عَمَّهُ الَّذِي يَحْنُو عَلَيْهِ وَيَرْحَمُهُ وَيَوَدُّهُ، وَإِنَّمَا يُرِيدُ بِالذَّمِ وَبِالْقَدْحِ أَبَاهُ، وَلَكِنَّهُ لَا يُوَاجِهُ نَفْسَهُ، فَمَاذَا يَصْنَعُ؟!!

يُنْزِلُ سُخْطَهُ كُلَّهُ وَنِقْمَتَهُ عَلَىٰ عَمِّهِ الَّذِي يَرْحَمُهُ، هَذَا إِسْقَاطٌ.

نَحْنُ نَفْعَلُ هَذَا طُوَالَ الْوَقْتِ، النَّاسُ لَا يُحِبُّونَ الْحَقِيقَةَ، وَإِذَا وَاجَهَهُمْ أَحَدٌ بِالْحَقِيقَةِ أَبْغَضُوهُ كَمَا يُبْغِضُونَ الْحَقِيقَةَ.

❀❀❀

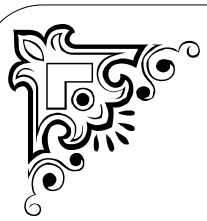
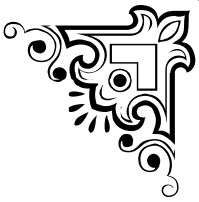

حَقِيقَةُ الْمَوْتِ وَضَعْفُ الِاسْتِعْدَادِ لَهُ

مِنَ الْحَقَائِقِ الْكُبْرَىٰ فِي هَذَا الْوُجُودِ: الْمَوْتُ؛ فَإِذَا قُلْتَ لِإِنْسَانٍ سَتَمُوتُ، بَلْ أَنْتَ مَيِّتٌ كَمَا قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لِنَبِيِّهِ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]؛ يَعْنِي سَتَمُوتُ وَسَيَمُوتُونَ، هَذِهِ حَقِيقَةٌ لَا يَمْتَرِي فِيهَا أَحَدٌ.

وَكُلُّ النَّاسِ يَتَأَكَّدُونَ غَايَةَ التَّأَكُّدِ مِنْ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ، وَمَعَ ذَلِكَ يُبْغِضُونَهَا وَيُبْغِضُونَ مَنْ يُذَكِّرُهُمْ وَيُوَاجِهُهُمْ بِهَا، وَإِذَا وُوجِهُوا بِهَا فَتَذَكَّرُوهَا؛ لَمْ يَعْمَلُوا لَهَا، مَعَ أَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وَاجَهَ بِهَا نَبِيَّهُ وَمُصْطَفَاهُ وَأَحَبَّ الْخَلْقِ إِلَيْهِ وَأَشْرَفَ خَلْقِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا؛ فَقَالَ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾.

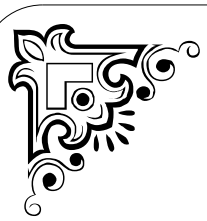

تَوَقَّفْ.. سَتَمُوتُ!!

كَثِيرٌ مِنَ الْأُمُورِ تَبْدَأُ بِدَايَةً خَاطِئَةً، فَيَجِبُ عَلَىٰ الْإِنْسَانِ أَنْ يَتَوَقَّفَ:

لِمَاذَا أَنْتَ فِي هَذَا الْمَسَارِ؟!!

لِمَاذَا أَنْتَ فِي هَذَا السَّبِيلِ؟!!

مَا الَّذِي أَوْجَدَكَ فِي هَذَا الْمَجَالِ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ؟!!

لِمَاذَا تَأْخُذُ بِهَذِهِ الْحِرْفَةِ، وَلِمَاذَا تَمْتَهِنُ هَذِهِ الْمِهْنَةَ؟!!

وَلِمَاذَا تَتَعَامَلُ مَعَ النَّاسِ بِهَذَا الْأُسْلُوبِ؟!!

وَلِمَاذَا تُحَصِّلُ غَايَاتِكَ بِهَذِهِ الْأَسَالِيبِ؟!!

يَنْبَغِي عَلَىٰ الْإِنْسَانِ أَنْ يَتَوَقَّفَ؛ لِأَنَّكَ لَمْ تَبْدَأْ بِدَايَةً اخْتِيَارِيَّةً، وَإِنَّمَا فُرِضَ عَلَيْكَ ذَلِكَ فَرْضًا، وَلَمْ تَتَوَقَّفْ مِنْ أَجْلِ أَنْ تُرَاجِعَ.

وَاللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ قَدْ أَرْسَلَ إِلَيْنَا نَبِيَّهُ الْكَرِيمَ ﷺ يُذَكِّرُنَا بِالْحَقَائِقِ؛ بِضَعْفِ الْإِنْسَانِ، فَالْإِنْسَانُ ضَعِيفٌ، وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ ضَعْفٍ، وَيَحْيَا فِي الضَّعْفِ وَيَمُوتُ ضَعِيفًا، وَيُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلَا حَوْلٍ وَلَا حِيلَةٍ.

الْإِنْسَانُ لَا يَسْتَطِيعُ -أَبَدًا- أَنْ يُوَاجِهَ نَفْسَهُ بِضَعْفِهِ، هَلْ تَجِدُ مُتَكَبِّرًا قَطُّ يُقِرُّ بِضَعْفِ نَفْسِهُ، وَأَنَّهُ لَا حَوْلَ لَهُ وَلَا حِيلَةَ، مَعَ أَنَّ هَذِهِ حَقِيقَةٌ، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَفْعَلَ شَيْئًا، بَلْ إِنَّهُ لَوْ حَاوَلَ أَنْ يُثْبِتَ لِنَفْسِهِ قُوَّتَهُ وَقُدْرَتَهُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَاتِهِ بِأَنْ يَرْفَعَ يَدَهُ -مَثَلًا- هَكَذَا لَيْلًا طَوِيلًا!! لَا يَسْتَطِيعُ.

فَإِذَا كَانَ لَا يَسْتَطِيعُ السَّيْطَرَةَ عَلَىٰ عُضْوٍ مِنْ أَعْضَائِهِ؛ فَكَيْفَ بِجَسَدِهِ كُلِّهِ؟!! فَكَيْفَ بِمُسْتَقْبَلِهِ؟!! فَكَيْفَ بِمُسْتَقْبَلِ النَّاسِ مِنْ حَوْلِهِ؟!!

يَنْبَغِي عَلَيْنَا -أَيُّهَا الْأَحِبَّةُ- أَنْ نَتَرَوَّىٰ قَلِيلًا؛ فَإِنَّ الْحَيَاةَ فُرْصَةٌ وَاحِدَةٌ لَا تَتَكَرَّرُ، وَإِذَا مَضَتْ فَلَنْ تَعُودَ، وَالَّذِي يَمْضِي مِنْهَا مِنْ غَيْرِ مَا نَفْعٍ وَلَا ثَمَرَةٍ وَلَا نَتِيجَةٍ يُحَصِّلُهَا الْإِنْسَانُ؛ هَذَا هَدَرٌ ضَائِعٌ؛ بَلْ إِنَّهُ يَكُونُ فِي الْجُمْلَةِ عَلَىٰ مَنْ ضَيَّعَهُ.

سَتَمُوتُ.. حَتْمًا سَتَمُوتُ، هَلْ يُمْكِنُ أَنْ تُمَارِيَ فِي هَذَا؟!!

مَنِ الَّذِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ إِنَّهُ خَالِدٌ لَنْ يَمُوتَ؟!!

سَيَمُوتُ..

فَمَاذَا تَصْنَعُ؟!!

مُنْذُ أَنْ وُلِدْتَ إِلَىٰ يَوْمِ لِقَاءِ رَبِّكَ زَمَانٌ مَحْدُودٌ، مَسَافَةٌ زَمَنِيَّةٌ لَا تَمْتَدُّ طُولًا، وَلَكِنْ يُمْكِنُ أَنْ تَتَّسِعَ عَرْضًا بِالْبَرَكَةِ فِي الْعُمُرِ.. بِالْبَرَكَةِ فِي الْآثَارِ.. بِحُسْنِ الذِّكْرِ بَعْدَ الْمَوْتِ.. بِمَا يَتْرُكُهُ الْإِنْسَانُ مِمَّا يَدْعُو لَهُ بِهِ النَّاسُ الَّذِينَ عَايَشَهُمْ وَعَاصَرَهُمْ؛ بَلْ مَنْ لَمْ يُعَاصِرْهُ مِمَّنْ يَأْتِي بَعْدَهُ.

اتْرُكْ أَثَرًا فِي الْحَيَاةِ يَذْكُرُكَ بِهِ النَّاسُ بَعْدَ أَنْ تَمْضِيَ مِنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ..

لَا تَتْرُكْ أَثَرًا سَيِّئًا، يَفْرَحُ النَّاسُ بِمَوْتِكَ وَبِتَخَلُّصِ الْحَيَاةِ مِنْكَ، وَيَقُولُونَ: كَانَ شَرًّا يَمْضِي عَلَىٰ الْأَرْضِ، وَلَكِنْ لِيَبْكِيَ عَلَيْكَ مَنْ يَبْكِي بَعْدَ أَنْ تَمُوتَ؛ لِأَنَّهُ يُحِسُّ أَنَّهُ فَقَدَ بِفَقْدِكَ بَعْضَهُ، لَا أَنَّهُ تَخَلَّصَ مِنْ شَرٍّ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يُزَالَ مِنَ الْحَيَاةِ.

الْفُرْصَةُ سَانِحَةٌ وَالْأَمْرُ يَسِيرٌ، وَدَعْكَ مِنَ التَّهْوِيلِ وَالتَّعْقِيدِ؛ فَإِنَّ اللهَ لَمْ يَجْعَلِ الْحُجَّةَ الْقَائِمَةَ عَلَىٰ الْبَشَرِ فِي الْأَرْضِ شَيْئًا عَسِيرًا لَا يُنَالُ، وَلَا أَمْرًا صَعْبًا لَا يُفْهَمُ، بَلْ إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ مِنْ أَيْسَرِ الْأُمُورِ، وَإِلَّا مَا قَامَتْ حُجَّةُ اللهِ عَلَىٰ خَلْقِهِ فِي أَرْضِهِ!!

الْأَمْرُ يَسِيرٌ، لَا تُعَقِّدِ الْأُمُورَ، فَالْعِلْمُ قَرِيبُ الْمُتَنَاوَلِ، سَهْلٌ دَانِي الْقِطَافِ، يَسْتَطِيعُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُحَصِّلَ أُصُولَهُ؛ لِأَنَّ الْعِلْمَ نُقْطَةٌ كَثَّرَهَا الْجَاهِلُونَ!!

دَعُوكُمْ مِنَ شَقْشَقَةِ الْكَلَامِ، وَتَطْوِيلِ الْبَيَانِ، وَالْهَذَرِ الْفَارِغِ الَّذِي لَا حَصِيلَةَ مِنْ تَحْتِهِ، وَانْظُرْ فِيمَا فَرَضَ اللهُ عَلَيْكَ، وَمَا لِأَجْلِهِ خَلَقَكَ اللهُ؛ فَحَصِّلْهُ وَأَقْبِلْ عَلَيْهِ، وَأَقْبِلْ عَلَىٰ شَأْنِكَ كَمَا أَمَرَ بِذَلِكَ نَبِيُّكَ ﷺ.

سَتَمُوتُ وَحْدَكَ، وَتُبْعَثُ وَحْدَكَ، وَتُسْأَلُ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَحْدَكَ..

وَسَوْفَ تُحَاسَبُ عَلَىٰ مَا أَظْهَرْتَ وَمَا أَضْمَرْتَ، وَسَوْفَ تُحَاسَبُ عَلَىٰ مَا قَدَّمْتَ وَمَا أَخَّرْتَ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْإِنْسَانَ سَيَقِفُ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ كَمَا وَلَدَتْهُ أُمُّهُ، لَا يَخْفَىٰ عَلَىٰ اللهِ مِنْهُ شَيْءٌ، وَكُلُّ مَا قَدَّمَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ -فِي الْفُرْصَةِ الَّتِي أَعْطَاهُ اللهُ

إِيَّاهَا- مَسْطُورٌ مَكْتُوبٌ ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦]؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَظُنُّ أَنَّهُ لَا يُحْصَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ!!

بَلْ إِنَّ اللهَ سَيَسْتَنْطِقُ الْأَعْضَاءَ؛ لِكَيْ تَنْطِقَ بِمَا عَمِلَ الْإِنْسَانُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ، وَمَا اقْتَرَفَهُ وَمَا اجْتَنَاهُ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ سَيُدَافِعُ عَنْ نَفْسِهِ أَمَامَ اللهِ، وَاللهُ لَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ خَافِيَةٌ، وَلَكِنَّ الْإِنْسَانَ سَيَقِفُ يُدَافِعُ عَنْ نَفْسِهِ أَمَامَ اللهِ عَمَّا اقْتَرَفَتْ يَدَاهُ!!

فَيَقُولُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ: سَأَجْعَلُ عَلَيْكَ الْيَوْمَ شَاهِدًا مِنْ نَفْسِكَ!!

فَمَا ظَلَمَهُ، وَإِنَّمَا عَدَلَ فِيهِ غَايَةَ الْعَدْلِ، وَهُوَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

يَخْتِمُ عَلَىٰ فَمِهِ، وَيَأْمُرُ أَعْضَاءَهُ بِأَنْ تَنْطِقَ بِمَا عَمِلَتْ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ، وَمَا اقْتَرَفَتْ مِنَ السَّيِّئَاتِ وَالْخَطَايَا وَالذُّنُوبِ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يُنْطِقُهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فَيُقْبِلُ عَلَىٰ أَعْضَائِهِ لَائِمًا يَقُولُ: وَيحَكُنَّ! عَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ!!

فَتَقُولُ أَعْضَاؤُهُ وَجَوارِحُهُ: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت: ٢١].

يَنْبَغِي أَنْ تُغَيِّرَ مِنْ حَيَاتِكَ!

لَا تَسْتَسْلِمْ!

طَعَامُكَ وَشَرَابُكَ.. لِمَاذَا أَنْتَ سَمِينٌ بَدِينٌ مِنْ غَيْرِ مَا مُبَرِّرٌ؟!!

لِمَاذَا؟!!

سَوْفَ تُوزَنُ عِنْدَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لَحْمًا وَشَحْمًا؟!!

لِمَاذَا تُسْرِفُ فِي الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، وَفِي الْكَلَامِ وَالْمَنَامِ؟!!

لِمَاذَا لَا تُغَيِّرُ حَيَاتَكَ؟!!

لِمَاذَا لَا تَتَوَقَّف مِنْ أَجْلِ أَنْ تُرَاجِعَ مَا كَانَ؟!!

وَمِنْ أَجْلِ أَنْ تَنْظُرَ فِيمَا هُوَ آتٍ؟!! مِنْ أَجْلِ أَنْ تُبَدِّلَ مَسَارًا خَاطِئًا سِرْتَ فِيهِ وَأَنْتَ مُمْعِنٌ فِي السَّيْرِ فِيهِ، وَكُلُّ لَحْظَةٍ تَمْضِي فِي هَذِهِ الطَّرِيقِ فَإِنَّهَا تُوَصِّلُكَ إِلَىٰ الْخَرَابِ وَالدَّمَارِ وَالْبَوَارِ!!

تَوَقَّفْ! وَتَأَمَّلْ فِي أَخْلَاقِكَ وَطِبَاعِكَ؛ فَإِنَّكَ تَجِدُ الْغَضُوبَ إِذَا مَا رَاجَعْتَهُ وَقُلتَ لَهُ: هَذَا لَا يَجْمُلُ بِكَ، أَنْتَ رَجُلٌ عَاقِلٌ مُتَّزِنٌ، وَإِذَا مَا غَضِبْتَ؛ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا يَخْرُجُ مِنْ فَمِكَ، لَوْ أَنَّكَ نَظَرْتَ فِي مِرْآةٍ فِي حَالِ غَضَبِكَ؛ لَأَبْغَضْتَ نَفْسَكَ، كَالشَّيْطَانِ ثَائِرَ الرَّأْسِ، مُنْتَفِضَ الْبَدَنِ، لَا تَكَادُ تَسْتَقِرُّ عَلَىٰ حَالٍ، اتَّقِ اللهَ!!

سَيَقُولُ لَكَ: هَذَا طَبْعِي فَقَدْ خُلِقْتُ غَضُوبًا!!

نَعَمْ؛ وَقَدْ نَزَلَ الشَّرْعُ مِنَ السَّمَاءِ لِيُغَيِّرَ الطِّبَاعَ، فَحُجَّتُكَ غَيْرُ مَقْبُولَةٍ.

يَنْبَغِي عَلَيْنَا أَنْ نَجْتَهِدَ فِي تَغْيِيرِ مَا نَحْنُ فِيهِ بَعْدَ أَنْ نَنْظُرَ فِيهِ بِرَوِيَّةٍ وَرِفْقٍ، وَأَنْ نَعْلَمَ أَنَّ الْمُسْتَقْبَلَ الْحَقِيقِيَّ هُوَ مَا يَأْتِي لَا مَا مَضَىٰ، وَلَا مَا نَتَخَيَّلُهُ وَنَتَوَهَّمُهُ.

وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصحَابِهِ أَجمَعِينَ.

الْمَوْعِظَةُ الثَّالِثَةُ:

فَضْلُ تَعْلِيمِ الْعِلْمِ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

- **أَمَّا بَعْدُ:**

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

- **أَمَّا بَعْدُ:**

فَمِنَ الثَّابِتِ الْمُتَقَرَّرِ عِنْدَ عُلَمَائِنَا -رَحِمَهُمُ اللهُ-: أَنَّ النَّاسَ كُلَّمَا اقْتَرَبُوا مِنْ عَهْدِ النُّبُوَّةِ؛ زَادَ فِيهِمُ الْخَيْرُ، وَقَلَّ مِنْهُمُ الشَّرُّ، وَكُلَّمَا ابْتَعَدُوا عَنْ عَهْدِ النُّبُوَّةِ؛ زَادَ فِيهِمُ الشَّرُّ، وَقَلَّ فِيهِمُ الْخَيْرُ.

*** وَقَدِ اسْتَدَلُّوا عَلَىٰ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ بِكَثِيرٍ مِنَ الْأَدِلَّةِ، مِنْهَا:**

مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(١): أَنَّ نَاسًا ذَهَبُوا إِلَىٰ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ خَادِمِ النَّبِيِّ ﷺ وَصَاحِبِهِ، فَشَكَوْا إِلَيْهِ ظُلْمَ الْحَجَّاجِ،، فَقَالَ: «**اصْبِرُوا! فَإِنَّهُ لَا يَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ إِلَّا الَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ، حَتَّىٰ تَلْقَوْا رَبَّكُمْ**» سَمِعْتُهُ مِنْ نَبِيِّكُمْ ﷺ.

فَكُلَّمَا اقْتَرَبَ النَّاسُ مِنْ عَهْدِ النُّبُوَّةِ؛ زَادَ فِيهِمُ الْخَيْرُ، وَقَلَّ فِيهِمُ الشَّرُّ، وَالنَّبِيُّ ﷺ أَرْشَدَنَا إِلَىٰ الْأُصُولِ الْجَامِعَةِ، وَالْمَبَانِي الْكَامِلَةِ فِي مَعَانِيهَا التَّامَّةِ، وَمَدْلُولَاتِهَا الْعَظِيمَةِ.

فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَخْبَرَنَا -وَذَلِكَ فِي الْوَحْيَيْنِ: فِي كِتَابِ اللهِ جَلَّوَعَلَا، وَفِي سُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ- أَنَّ خَيْرَ النَّاسِ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ وَبَعْدَ الْمَلَائِكَةِ: أُولُوا الْعِلْمِ، وَقَدِ اسْتَشْهَدَ بِهِمُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَلَىٰ أَجَلِّ وَأَعْظَمِ مَشْهُودٍ عَلَيْهِ، وَهُوَ شَهَادَةُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨].

وَقَدْ بَيَّنَ الْعُلَمَاءُ أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا كَانَ عَالِمًا عَامِلًا مُعَلِّمًا؛ فَإِنَّهُ يُدْعَىٰ فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ كَبِيرًا(٢).

---

(١) «**صحيح البخاري**»: ١٣/ ١٩-٢٠، رقم (٧٠٦٨): عَنِ الزُّبَيْرِ بْنِ عَدِيٍّ، قَالَ: أَتَيْنَا أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ، فَشَكَوْنَا إِلَيْهِ مَا نَلْقَىٰ مِنَ الحَجَّاجِ، فَقَالَ: «**اصْبِرُوا**..». الحديث.

(٢) أخرج الترمذي في «**الجامع**»: ٥/ ٥٠، رقم (٢٦٨٥م)، بإسناد صحيح، عن الفُضَيْلِ بْنِ عِيَاضٍ، قال: «عَالِمٌ عَامِلٌ مُعَلِّمٌ يُدْعَىٰ كَبِيرًا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ».

=

وَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ اللهَ جَلَّوَعَلَا وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَأَهْلَ الْأَرْضِ؛ حَتَّىٰ الْحِيتَانُ فِي الْبَحْرِ، وَحَتَّىٰ النِّمَالُ فِي جُحُورِهَا يُصَلُّونَ -أَيْ: يَدْعُونَ- عَلَىٰ مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرَ(١).

وَقَدْ بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ الْعِلْمَ فَرْضٌ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ**». وَهُوَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ، رَوَاهُ ابْنُ مَاجه فِي «سُنَنِهِ»(٢).

وَأَمَّا زِيَادَةُ: «وَمُسْلِمَةٍ»؛ فَإِنَّهَا لَا تَثْبُتُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَهِيَ دَاخِلَةٌ فِي قَوْلِهِ: «**عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ**» عَلَىٰ سَبِيلِ التَّغْلِيبِ.

وَالْعِلْمُ مِنْهُ مَا هُوَ فَرْضٌ مُتَعَيَّنٌ عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ فِي ذَاتِهِ، وَهُوَ مَا لَا تَصِحُّ عِبَادَتُهُ وَلَا اعْتِقَادُهُ إِلَّا بِهِ، فَهَذَا فَرْضٌ عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ، وَوَاجِبٌ وُجُوبًا عَيْنِيًّا عَلَيْهِ أَنْ يَتَعَلَّمَهُ.

=

وروي نحوه من قول المسيح عيسىٰ عليه السلام ومن قول سفيان بن عيينة رحمه الله.

(١) أخرج الترمذي في «**الجامع**»: ٥/ ٥٠، رقم (٢٦٨٥)، من حديث: أَبِي أُمَامَةَ البَاهِلِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالأَرَضِينَ حَتَّىٰ النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّىٰ الحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَىٰ مُعَلِّمِ النَّاسِ الخَيْرَ**».
قال الترمذي: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ»، والحديث حسنه لغيره الألباني في «**صحيح الترغيب والترهيب**»: ١/ ١٤٤، رقم (٨١)، وروي عن أبي الدرداء وعائشة رضي الله عنهما، بنحوه.

(٢) أخرجه ابن ماجه في «**السنن**»: ١/ ٨١، رقم (٢٢٤)، من حديث: أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه.
والحديث صححه بشواهده الألباني في «**صحيح الترغيب والترهيب**»: ١/ ١٤٠، رقم (٧٢).

فَوَاجِبٌ عَلَيْهِ أَنْ يَتَعَلَّمَ: أُصُولَ الِاعْتِقَادِ، وَمُجْمَلَ التَّوْحِيدِ.

وَوَاجِبٌ عَلَيْهِ إِذَا بَلَغَ أَنْ يَتَعَلَّمَ: كَيْفَ يَتَطَهَّرُ؟ كَيْفَ يَغْتَسِلُ؟ وَكَيْفَ يَتَوَضَّأُ؟

وَإِذَا مَا كَانَ فَاقِدًا لِلْمَاءِ حَقِيقَةً أَوْ حُكْمًا؛ فَعَلَيْهِ أَنْ يَتَعَلَّمَ: كَيْفَ يَتَيَمَّمُ؟ ثُمَّ عَلَيْهِ أَنْ يَتَعَلَّمَ: كَيْفَ يُصَلِّي للهِ جَلَّوَعَلَا؟

فَإِذَا رَاهَقَ الْبُلُوغَ، وَاحْتَلَمَ، وَصَارَ مُكَلَّفًا، وَدَخَلَ عَلَيْهِ رَمَضَانُ؛ فَقَدْ وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَتَعَلَّمَ: كَيْفَ يَصُومُ؟ وَمَا الَّذِي يَفْسُدُ بِهِ صِيَامُهُ؟ وَمَا الْمَكْرُوهُ فِي الصِّيَامِ؟ وَمَا الْمُسْتَحَبُّ فِيهِ؟

فَإِذَا كَانَ ذَا مَالٍ مِنْ أَيِّ أَلْوَانِ الْأَمْوَالِ الزَّكَوِيَّةِ كَانَ، وَبَلَغَ مَالُهُ النِّصَابَ، وَحَالَ عَلَيْهِ الْحَوْلُ؛ فَقَدْ وَجَبَ عَلَيْهِ وُجُوبًا عَيْنِيًّا أَنْ يَتَعَلَّمَ: كَيْفَ يُزَكِّي أَمْوَالَهُ؟

وَكَذَلِكَ إِذَا نَوَىٰ الْحَجَّ؛ فَإِنَّهُ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَتَعَلَّمَ الْمَنَاسِكَ وُجُوبًا عَيْنِيًّا.

وَإِهْمَالُ هَذَا الْأَصْلِ الْعَظِيمِ يُؤَدِّي إِلَىٰ خَلَلٍ خَطِيرٍ، فَكَثِيرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَذْهَبُونَ -مَثَلًا- إِلَىٰ الْحَجِّ، وَيَعُودُونَ وَلَمْ يَحُجُّوا؛ لِأَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ يُخِلُّ بِأَرْكَانِ الْحَجِّ، فَيَفْسُدُ حَجُّهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُ.

ثُمَّ إِنَّ الْمِسْكِينَ يَتَكَلَّفُ الْمَالَ، وَيُعَرِّضُ نَفْسَهُ لِلْمَخَاطِرِ -خَاصَّةً مَعَ عُلُوِّ السِّنِّ-، ثُمَّ لَا يُحَصِّلُ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا، وَهُوَ آثِمٌ؛ لِأَنَّ الْجَهْلَ هَا هُنَا لَا يَنْفَعُهُ مَا دَامَ عِنْدَهُ مَنْ يُعَلِّمُهُ؛ فَيَنْبَغِي عَلَيْهِ إِذَا نَوَىٰ الْحَجَّ -مَثَلًا- أَنْ يَسْأَلَ؛ حَتَّىٰ يَتَعَلَّمَ: كَيْفَ يُؤَدِّيَ الْمَنَاسِكَ؟

إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْعِبَادَاتِ.

فَإِذَا كَانَ يَأْخُذُ بِالتِّجَارَةِ؛ فَيَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَتَعَلَّمَ الْأُصُولَ الْعَامَّةَ فِي إِدَارَةِ الْأَمْوَالِ، وَفِي التِّجَارَةِ بِهَا؛ حَتَّىٰ لَا يَتَوَرَّطَ فِي الْغِشِّ، وَلَا فِي الْخِدَاعِ، وَلَا فِي غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الْمُحَرَّمَةِ، فَيَكْتَسِبُ أَمْوَالًا مِنَ الْحَرَامِ، يُغَذِّي بِهَا الْمَسَاكِينَ مِنْ أَوْلَادِهِ وَزَوْجِهِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «**كُلُّ لَحْمٍ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ؛ فَالنَّارُ أَوْلَىٰ بِهِ**»(١).

فَيَجِبُ عَلَىٰ الْإِنْسَانِ أَنْ يَتَعَلَّمَ هَذِهِ الْأُمُورَ وُجُوبًا عَيْنِيًّا، وَأَمَّا مَا وَرَاءَ ذَلِكَ؛ فَهُوَ فَرْضُ كِفَايَةٍ، إِذَا قَامَ بِهِ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ؛ سَقَطَ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْمُطَالَبَةِ بِهِ عَنْ مَجْمُوعِ الْمُسْلِمِينَ.

النَّبِيُّ ﷺ دَلَّ عَلَىٰ فَضْلِ تَعْلِيمِ الْعِلْمِ، فَهُوَ أَشْرَفُ شَيْءٍ يَأْتِي بِهِ الْإِنْسَانُ.

تَعْلِيمُ الْعِلْمِ وَظِيفَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَلَا أَشْرَفَ مِنَ الْأَخْذِ بِوَظِيفَةِ الْأَنْبِيَاءِ.

وَالنَّبِيُّ ﷺ رَغَّبَ فِي ذَلِكَ، وَبَيَّنَ لَنَا أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا كَانَ آتِيًا بِالْخَيْرِ الْمُتَعَدِّي؛ فَهُوَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَأْتِيَ بِالْخَيْرِ اللَّازِمِ الَّذِي لَا يَتَعَدَّىٰ أَثَرُهُ إِلَىٰ غَيْرِهِ؛ لِأَنَّ الْأَعْمَالَ مِنْهَا مَا هُوَ لَازِمٌ لِلْعَبْدِ فِي نَفْسِهِ؛ كَذِكْرِهِ لِرَبِّهِ -مَثَلًا-، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ

---

(١) أخرجه الترمذي في «**الجامع**»: ٢/ ٥١٢-٥١٤، رقم (٦١٤)، من حديث: كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «...، **يَا كَعْبَ بْنَ عُجْرَةَ، إِنَّهُ لَا يَرْبُو لَحْمٌ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ إِلَّا كَانَتِ النَّارُ أَوْلَىٰ بِهِ**».
قال الترمذي: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ»، والحديث صححه لغيره الألباني في «**صحيح الترغيب والترهيب**»: ٢/ ٢٣٠، رقم (١٧٢٩)، وروي بنحوه عن أبي بكر وحذيفة وابن عباس وابن مسعود وجابر رضي الله عنهم.

الْأُمُورِ الَّتِي يَأْتِي بِهَا لَا يَتَعَدَّىٰ نَفْعُهَا إِلَىٰ غَيْرِهِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ؛ فَهَذِهِ مِنْ أَجْمَلِ وَأَحْسَنِ شَيْءٍ يَكُونُ.

وَأَعْلَىٰ مِنْ ذَلِكَ: أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أَتَىٰ بِالْخَيْرِ الْمُتَعَدِّي -وَمِنْهُ: أَنْ يُعَلِّمَ الْعِلْمَ -إِذَا عَلَّمَ الْعِلْمَ-؛ فَإِنَّهُ مَا يَزَالُ أَجْرُهُ مَوْصُولًا؛ حَتَّىٰ بَعْدَ مَوْتِهِ، كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ؛ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**»(١).

وَفِي غَيْرِ هَذَا الْحَدِيثِ أُمُورٌ أُخْرَىٰ دَلَّ عَلَيْهَا الرَّسُولُ ﷺ؛ كَاتِّخَاذِ السَّبِيلِ؛ فَإِنَّ سَقْيَ الْمَاءِ مِنْ أَعْظَمِ الْقُرُبَاتِ عِنْدَ اللهِ جَلَّوَعَلَا؛ يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَوْ نَهْرًا أَجْرَاهُ، أَوْ بَيْتًا لِابْنِ السَّبِيلِ بَنَاهُ، أَوْ مُصْحَفًا وَرَّثَهُ**»(٢).

إِلَىٰ جُمْلَةٍ وَافِرَةٍ مِنَ الْأَعْمَالِ الَّتِي يَتَعَدَّىٰ نَفْعُهَا إِلَىٰ غَيْرِ فَاعِلِهَا؛ حَتَّىٰ وَلَوْ مَاتَ وَلَحِقَ بِرَبِّهِ؛ لِأَنَّهُ مِنَ الْمَعْلُومِ: أَنَّ الْمَوْتَ لَيْسَ نِهَايَةَ الرِّحْلَةِ، بَلْ إِنَّهُ ضَرْبٌ فِي عُمْقِ الْوُجُودِ بِأَسْبَابِ الْوُجُودِ؛ لِأَنَّهُ مَرْحَلَةٌ يَنْتَقِلُ إِلَيْهَا الْعَبْدُ مُنْتَظِرًا

---

(١) أخرجه مسلم في «**الصحيح**»: ٣/ ١٢٥٥، رقم (١٦٣١)، من حديث: أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن ماجه في «**السنن**»: ١/ ٨٨، رقم (٢٤٢)، من حديث: أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ مِمَّا يَلْحَقُ الْمُؤْمِنَ مِنْ عَمَلِهِ وَحَسَنَاتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ عِلْمًا عَلَّمَهُ وَنَشَرَهُ، وَوَلَدًا صَالِحًا تَرَكَهُ، وَمُصْحَفًا وَرَّثَهُ، أَوْ مَسْجِدًا بَنَاهُ، أَوْ بَيْتًا لِابْنِ السَّبِيلِ بَنَاهُ، أَوْ نَهْرًا أَجْرَاهُ، أَوْ صَدَقَةً أَخْرَجَهَا مِنْ مَالِهِ فِي صِحَّتِهِ وَحَيَاتِهِ، يَلْحَقُهُ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ**».

والحديث حسنه الألباني في «**صحيح الترغيب والترهيب**»: ١/ ١٤٢-١٤٣، رقم (٧٧).

الْبَعْثَ؛ لِكَيْ يُعْرَضَ عَلَىٰ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَمِنْ أَجْلِ أَنْ تُعْرَضَ عَلَيْهِ صَحَائِفُ أَعْمَالِهِ فِي الْقِيَامَةِ.

فَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَذَلِكَ -نَسْأَلُ اللهَ السَّلَامَةَ وَالْعَافِيَةَ-.

وَمِنَ الْمَعْلُومِ: أَنَّ الْمُعَلِّمِينَ الَّذِينَ كَانُوا فِي السِّنِينَ الْغَابِرَةِ؛ هُمَ -لَا شَكَّ- أَعْظَمُ نَفْعًا مِمَّنْ جَاءَ بَعْدَهُمْ مِنْ تَلَامِيذِهِمْ، وَمِنْ تَلَامِيذِ تَلَامِيذِهِمْ، وَقَدْ أَدْرَكْنَا مِنْ هَؤُلَاءِ جُمْلَةً وَافِرَةً -رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ رَحْمَةً وَاسِعَةً-.

كَانُوا يُعَلِّمُونَ الْأَدَبَ وَالتَّرْبِيَةَ كَمَا يُعَلِّمُونَ الْعِلْمَ؛ بَلْ رُبَّمَا حَرِصُوا عَلَىٰ ذَلِكَ فَوْقَ مَا يَحْرِصُونَ عَلَىٰ تَعْلِيمِ الْعِلْمِ.

وَكَانُوا دَائِمًا يُسْمِعُونَنَا وَأَجْيَالًا قَبْلَنَا أَنَّ الْأَدَبَ فَضَّلُوهُ عَلَىٰ الْعِلْمِ؛ حَتَّىٰ إِنَّ الْوَزَارَةَ سُمِّيَتْ بِـ «وَزَارَةِ التَّرْبِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ»، فَذُكِرَتِ التَّرْبِيَةُ قَبْلَ التَّعْلِيمِ، وَكَانُوا مُوَفَّقِينَ؛ لِأَنَّ نِيَّاتِهِمْ كَانَتْ خَالِصَةً -نَحْسَبُهُمْ كَذَلِكَ-.

وَمِنَ الْمَعْلُومِ: أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا عَلَّمَ وَاحِدًا مِنْ أَبْنَاءِ الْمُسْلِمِينَ: كَيْفَ يَقْرَأُ، وَكَيْفَ يَكْتُبُ -مَثَلًا-، فَمَضَىٰ هَذَا الْمُعَلَّمُ فِي طَرِيقِهِ؛ فَصَارَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، أَوْ مِنْ طَلَبَتِهِ، أَوْ مِنْ أَهْلِ النَّفْعِ لِلْمُسْلِمِينَ؛ فَإِنَّ جَمِيعَ حَسَنَاتِهِ تَكُونُ فِي صَحِيفَةِ حَسَنَاتِ مُعَلِّمِهِ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي عَلَّمَ الْخَيْرَ، وَ«**الدَّالُّ عَلَىٰ الْخَيْرِ كَفَاعِلِهِ**»، كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ(١).

---

(١) أخرجه مسلم في «**الصحيح**»: ٣/ ١٥٠٦، رقم (١٨٩٣)، من حديث: أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: إِنِّي أُبْدِعَ بِي فَاحْمِلْنِي، فَقَالَ: «مَا =

فَعَلَيْنَا جَمِيعًا أَنْ نَلْتَفِتَ إِلَىٰ هَذَا الْأَصْلِ الْعَظِيمِ، وَهُوَ: تَعَلُّمُ الْعِلْمِ، وَالْعَمَلُ بِهِ، وَتَعْلِيمُهُ لِلْمُسْلِمِينَ، وَيَبْقَىٰ شَيْءٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ الدَّعْوَةُ إِلَىٰ ذَلِكَ، وَالتَّرْغِيبُ وَالْحَثُّ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ رَبَّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَخْبَرَنَا فِي سُورَةٍ فِي كِتَابِهِ جَلَّ وَعَلَا -وَهِيَ مِنَ السُّوَرِ الْقِصَارِ، قَالَ فِيهَا الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ-: «إِنَّ فِي الْقُرْآنِ لَسُورَةً لَوْ أَخَذَ بِهَا النَّاسُ لَوَسِعَتْهُمْ»، وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ رَحِمَهُ اللهُ: «لَكَفَتْهُمْ»-(١).

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣].

فَأَقْسَمَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِالْعَصْرِ، وَهُوَ: مَحَلُّ وُقُوعِ الْحَوَادِثِ، وَهُوَ الزَّمَانُ الَّذِي تَجْرِي فِيهِ أَحْدَاثُ هَذَا الْعَالَمِ، وَمَا يَقَعُ فِيهِ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ.

أَقْسَمَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بِالْعَصْرِ أَنَّ جِنْسَ الْإِنْسَانِ فِي خُسْرَانٍ.

﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ فَيُقْسِمُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُحْوِجَهُ إِلَىٰ الْقَسَمِ أَحَدٌ وَلَا شَيْءٌ، وَلَكِنْ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُؤَكِّدَ عَلَىٰ هَذِهِ الْقَضِيَّةِ الْعَظِيمَةِ؛ لِتَكُونَ قَائِمَةً فِي وَعْيِ

=

عِنْدِي»، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنَا أَدُلُّهُ عَلَىٰ مَنْ يَحْمِلُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ دَلَّ عَلَىٰ خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ**».

والحديث بحوه عند الترمذي في «**الجامع**»: ٥/ ٤١، رقم (٢٦٧٠)، من رواية: أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، بلفظ: «**إِنَّ الدَّالَّ عَلَىٰ الخَيْرِ كَفَاعِلِهِ**».

(١) ذكر نحوه النووي في «**رياض الصالحين**»: باب التعاون عَلَىٰ البر والتقوىٰ، ص ٨٠، وفي «**تهذيب الأسماء**»: ١/ ٥٤، وابن القيم في «**مفتاح دار السعادة**»: ١/ ٥٦، وابن كثير في «**تفسير القرآن العظيم**»: ١/ ٢٠٣ و ٨/ ٤٧٩.

الْمُتَلَقِّي، وَفِي وُجْدَانِهِ، وَلِكَيْ تَكُونَ بِإِزَاءِ عَيْنِ بَصِيرَتِهِ؛ حَتَّىٰ لَا تَغِيبَ عَنْهُ فِي حِينٍ وَلَا حَالٍ، وَلَا فِي زَمَانٍ وَلَا مَكَانٍ.

﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ يُقْسِمُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِهَذَا الزَّمَانِ -الَّذِي هُوَ مَحَلٌّ لِوُقُوعِ الْأَحْدَاثِ فِي الْعَالَمِ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ- أَنَّ جِنْسَ الْإِنْسَانِ فِي خُسْرَانٍ.

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ فَأَقْسَمَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ثُمَّ أَتَىٰ بِهَذِهِ الْمُؤَكِّدَةِ، وَهِيَ «إِنَّ» ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾، وَتَدْخُلُ عَلَىٰ الْجُمْلَةِ الِاسْمِيَّةِ، وَهِيَ أَيْضًا مِمَّا يُؤَكِّدُ، ثُمَّ أَتَىٰ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِهَذِهِ اللَّامِ ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ أَيْ: لَفِي خُسْرَانٍ.

فَبَيَّنَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَنَّ جِنْسَ الْإِنْسَانِ فِي خُسْرَانٍ، وَهَذَا مِنْ بَابِهِ: مَا قَالَهُ الرَّسُولُ ﷺ: «**الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا؛ إِلَّا ذِكْرَ اللهِ وَمَا وَالَاهُ، وَعَالِمًا وَمُتَعَلِّمًا**»(١).

فَبَيَّنَ الرَّسُولُ ﷺ أَنَّ الدُّنْيَا بَعِيدَةٌ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، وَأَنَّ مَا فِيهَا بَعِيدٌ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا؛ إِلَّا مَنِ اسْتَثْنَاهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا؛ إِلَّا ذِكْرَ اللهِ وَمَا وَالَاهُ، وَعَالِمًا وَمُتَعَلِّمًا**».

وَالذِّكْرُ وَمَا وَالَاهُ يَدْخُلُ فِي الْعِلْمِ -أَيْضًا-.

---

(١) أخرجه الترمذي في «**الجامع**»: ٤/ ٥٦١، رقم (٢٣٢٢)، وابن ماجه في «**السنن**»: ٢/ ١٣٧٧، رقم (٤١١٢)، من حديث: أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.
قال الترمذي: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ»، والحديث حسنه الألباني في «**الصحيحة**»: ٦/ ٧٠٣، رقم (٢٧٩٧).

فَاسْتَثْنَىٰ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَلَىٰ لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ فِيمَا أَوْحَىٰ إِلَيْهِ -وَالسُّنَّةُ وَحْيٌ مِنَ اللهِ جَلَّ وَعَلَا- اسْتَثْنَىٰ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الْعِلْمَ وَأَهْلَهُ؛ لِأَنَّ الْعَالَمَ لَا يَصْلُحُ حَالُهُ إِلَّا بِعِلْمِ الرَّسُولِ ﷺ.

فَيَقُولُ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾.

فَمَنْ أَتَىٰ بِهَذِهِ الْأُمُورِ الْأَرْبَعَةِ؛ فَهَذَا الَّذِي اسْتَثْنَاهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مِنَ الْخُسْرَانِ، وَدَلَّ عَلَىٰ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْفَوْزِ وَالْفَلَاحِ.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: آمَنُوا بِاللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَبِنَبِيِّهِ ﷺ، وَبِالْكِتَابِ الْمُنَزَّلِ عَلَىٰ قَلْبِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾، فَهَذِهِ أَرْبَعَةُ أُمُورٍ:

١- الْعِلْمُ.

٢- وَالْعَمَلُ بِهِ.

٣- وَالدَّعْوَةُ إِلَيْهِ.

٤- وَالصَّبْرُ عَلَىٰ الْأَذَىٰ فِيهِ.

وَقَدْ يَتَعَجَّبُ الْإِنْسَانُ مِنْ قَوْلِ رَبِّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾، لِمَاذَا ذُكِرَ الصَّبْرُ هَا هُنَا بَعْدَ الْأَمْرِ بِالتَّوَاصِي بِالْحَقِّ؟

لِأَنَّهُ مِنَ الْمَعْلُومِ: أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا دَعَا إِلَىٰ الْخَيْرِ؛ فَإِنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَجِدَ مِنْ مُعَاكَسَاتِ الشَّيْطَانِ وَأَوْلِيَائِهِ مَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ الصَّبْرِ؛ لِذَلِكَ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ [لقمان: ١٧].

فَأَمَرَهُ بِالصَّبْرِ بَعْدَ أَمْرِهِ بِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَأَمْرِهِ بِالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَإِذَا أَمَرَ وَنَهَىٰ؛ فَلَا بُدَّ أَنْ يُصِيبَهُ مِنَ الْأَذَىٰ مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ جَلَّوَعَلَا.

وَالنَّبِيُّ ﷺ كَانَ أَعْظَمَ النَّاسِ إِيذَاءً فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ؛ فَقَدْ وَقَعَ عَلَيْهِ -وَهُوَ أَشْرَفُ الْخَلْقِ- مَا هُوَ مَعْلُومٌ؛ مَعَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَا دَلَّ إِلَّا عَلَىٰ الْخَيْرِ، وَمَا دَعَا إِلَّا إِلَيْهِ.

عَلَىٰ الْإِنْسَانِ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي مَعْرِفَةِ دِينِ الرَّسُولِ الَّذِي بَعَثَ اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ بِهِ النَّبِيَّ الْخَاتَمَ ﷺ، وَأَنْ يَجْتَهِدَ فِي مَعْرِفَةِ الْأُصُولِ؛ لِأَنَّ الْفُرُوعَ لَا تَنْضَبِطُ؛ وَهِيَ كَثِيرَةٌ كَثْرَةً ضَافِيَةً؛ بِحَيْثُ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَسْتَطِيعُ لَهَا حَصْرًا، وَالْمُسْتَجَدَّاتُ تَتَجَدَّدُ مَعَ تَوَارُدِ الْعُصُورِ وَالْأَزْمَانِ.

وَأَمَّا الْأُصُولُ؛ فَإِنَّهَا ثَابِتَةٌ، وَالنَّبِيُّ ﷺ سُئِلَ عَنْ مِثْلِ هَذَا الْأَمْرِ؛ فَقَدْ جَاءَهُ صَحَابِيٌّ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ إِنَّ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ؛ فَدُلَّنِي عَلَىٰ أَمْرٍ أَتَمَسَّكُ بِهِ جَامِعٍ.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا بِذِكْرِ اللهِ** جَلَّوَعَلَا»(١).

---

(١) أخرجه الترمذي في «**الجامع**»: ٥/ ٤٥٧، رقم (٣٣٧٥)، وابن ماجه في «**السنن**»: ٢/ ١٢٤٦، رقم (٣٧٩٣)، من حديث: عَبْدِ اللهِ بْنِ بُسْرٍ رضي الله عنه.
قال الترمذي: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ»، والحديث صححه الألباني في «**صحيح الترغيب والترهيب**»: ٢/ ٢٠٣، رقم (١٤٩١).

لَقَدْ دَلَّنَا النَّبِيُّ ﷺ -كَمَا دَلَّنَا اللهُ جَلَّوَعَلَا- عَلَىٰ أَنَّ الِاسْتِغْفَارَ مِنْ أَعْظَمِ مَا يَتَقَرَّبُ بِهِ الْعَبْدُ إِلَىٰ اللهِ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ؛ لِأَنَّ الْعَبْدَ لَا يَخْلُو مِنَ الذَّنْبِ، وَالنَّاسُ لَهُمْ طَبَقَاتٌ ثَلَاثٌ، لَا يُمْكِنُ أَنْ يُوجَدَ الْمَرْءُ فِي غَيْرِ هَذِهِ الطَّبَقَاتِ:

١- إِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي نِعْمَةٍ؛ فَحَقُّهَا الشُّكْرُ.

٢- وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي بَلِيَّةٍ وَمُصِيبَةٍ؛ فَحَقُّهَا الصَّبْرُ.

٣- وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي ذَنْبٍ وَخَطِيئَةٍ؛ فَحَقُّ ذَلِكَ: التَّوْبَةُ وَالِاسْتِغْفَارُ.

لَا يَخْلُو الْإِنْسَانُ مِنْ هَذِهِ الطَّبَقَاتِ:

* إِمَّا أَنْ يُصَابَ بِالنِّعْمَةِ؛ فَيَجِبُ عَلَيْهِ الشُّكْرُ.

* وَإِمَّا أَنْ يُصَابَ بِمَا يَكْرَهُ؛ فَوَاجِبٌ عَلَيْهِ الصَّبْرُ، وَالصَّبْرُ وَاجِبٌ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ.

* وَأَمَّا الشُّكْرُ.. وَأَمَّا الرِّضَا؛ فَلَيْسَ بِوَاجِبٍ -فِي أَصَحِّ الْقَوْلَيْنِ-، وَهُنَالِكَ مَنْ قَالَ: إِنَّ الرِّضَا بِالْمُصِيبَةِ وَاجِبٌ؛ وَلَكِنَّ هَذَا فِي الْحَقِيقَةِ لَيْسَ بِرَاجِحٍ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ لَا تَسْمَحُ النَّفْسُ بِالرِّضَا، وَيَجِبُ عَلَيْهَا الصَّبْرُ.

وَالنَّبِيُّ ﷺ أَخْبَرَ أَنَّ الصَّبْرَ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَىٰ، وَقَدْ مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَىٰ امْرَأَةٍ عِنْدَ قَبْرٍ تَبْكِي، فَقَالَ لَهَا: «**يَا أَمَةَ اللهِ! اتَّقِي اللهَ وَاصْبِرِي**»، وَلَمْ تَكُنْ تَعْرِفُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَتْ: إِلَيْكَ عَنِّي؛ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَبْ بِمِثْلِ مُصِيبَتِي!!

فَلَمْ يُعَقِّبْ ﷺ، وَمَضَىٰ لِطِيَّتِه رَاشِدًا، فَقَالَ لَهَا مَنْ حَضَرَ: وَيْحَكِ!! إِنَّهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَامَتْ تَشْتَدُّ فِي أَثَرِهِ حَتَّىٰ وَصَلَتْ إِلَىٰ بَيْتِهِ، فَلَمْ تَجِدْ عَلَيْهِ بَوَّابِينَ، فَاسْتَأْذَنَتْ عَلَيْهِ، فَأُذِنَ لَهَا، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ! لَمْ أَعْرِفْكَ.

قَالَ: «**إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَىٰ**»(١).

وَعَلَّمَنَا رَبُّنَا مَا نَقُولُ عِنْدَ وُقُوعِ الْمُصِيبَةِ: «**إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**».

وَعَلَّمَنَا النَّبِيُّ ﷺ مَا نَقُولُ: «**اللهم أْجُرْنَا فِي مُصِيبَتِنَا، وَأَخْلِفْ لَنَا خَيْرًا مِنْهَا**»(٢).

❀❀❀

(١) أخرجه البخاري في «**الصحيح**»: ٣/ ١٤٩، رقم (١٢٨٣)، ومسلم في «**الصحيح**»: ٢/ ٦٣٧، رقم (٩٢٦)، من حديث: أَنَس رضي الله عنه.

(٢) أخرج مسلم في «**الصحيح**»: ٢/ ٦٣١، رقم (٩١٨)، من حديث: أُمِّ سَلَمَةَ، أَنَّهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ، فَيَقُولُ مَا أَمَرَهُ اللهُ: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]، اللهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي، وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا أَخْلَفَ اللهُ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا**».

قَالَتْ: فَلَمَّا مَاتَ أَبُو سَلَمَةَ، قُلْتُ: أَيُّ الْمُسْلِمِينَ خَيْرٌ مِنْ أَبِي سَلَمَةَ؟ أَوَّلُ بَيْتٍ هَاجَرَ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، ثُمَّ إِنِّي قُلْتُهَا، فَأَخْلَفَ اللهُ لِي رَسُولَ اللهِ ﷺ،... الحديث.

الْمَوْعِظَةُ الرَّابِعَةُ:

الْإِسْلَامُ دِينُ نِظَامٍ وَالْتِزَامٍ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

- **أَمَّا بَعْدُ:**

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

- **أَمَّا بَعْدُ:**

فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَكْرَمَنَا بِدِينِ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمِ، وَهَذَا الدِّينُ الْعَظِيمُ دِينُ الْتِزَامٍ وَنِظَامٍ، لَا مَدْخَلَ لِلْفَوْضَىٰ فِيهِ بِحَالٍ؛ بَلْ إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَنْزَلَ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ؛ لِتَضْبِطَ حَرَكَةَ حَيَاةِ الْمُسْلِمِ مُنْذُ يَسْتَيْقِظُ إِلَىٰ أَنْ يَنَامَ بِانْضِبَاطٍ كَامِلٍ لَا مُيُوعَةَ فِيهِ، وَلَا فَوْضَىٰ تَحْتَوِيهِ وَلَا تَعْتَرِيهِ.

الِانْفِلَاتُ مِنْ قَيْدِ النِّظَامِ الَّذِي وَضَعَهُ الْإِسْلَامُ فِي أُمُورِ الْعَقِيدَةِ يُؤَدِّي إِلَىٰ الشِّرْكِ، وَفِي أُمُورِ الِاتِّبَاعِ يُلْقِي فِي الْبِدْعِ، لَيْسَ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَخْرُجَ عَنِ النِّظَامِ الَّذِي شَرَعَهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

وَهَذَا النِّظَامُ يَتَعَلَّقُ بِكُلِّ أَمْرٍ مِنْ أُمُورِهِ مِنْ ظَاهِرٍ وَبَاطِنٍ؛ فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ضَبَطَ النِّيَّةَ كَمَا ضَبَطَ الْعَمَلَ، وَضَبَطَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ الْكَسْبَ كَمَا ضَبَطَ الْإِنْفَاقَ.

ضَبَطَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ الْحَرَكَةَ كَمَا ضَبَطَ السُّكُونَ، ضَبَطَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الضَّرْبَ فِي الْأَرْضِ، وَضَرَبَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لَنَا الْأَمْثَالَ، وَجَعَلَ صَلَاتَنَا صُفُوفًا نَصُفُّ فِيهَا كَمَا تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ كَمَا قَالَ الرَّسُولُ ﷺ، فَنَصُفُّ فِي الصَّلَوَاتِ كَمَا تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، لَا نَدَعُ فُرَجًا لِلشَّيْطَانِ، وَلَا يَتَقَدَّمُ إِنْسَانٌ وَلَا يَتَأَخَّرُ إِنْسَانٌ، وَجَعَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ اعْوِجَاجَ الصَّفِّ مَنُوطًا بِمُصَلٍّ وَاحِدٍ يَتَقَدَّمُ خُطْوَةً أَوْ يَتَأَخَّرُ قَلِيلًا؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَا تَقُولُ: فُلَانٌ مُعْوَجٌّ، وَلَكِنْ يَقُولُونَ: صَفٌّ مُعْوَجٌّ.

فَمِنْ أَجْلِ أَنْ يَتَقَدَّمَ رَجُلٌ أَوْ يَتَأَخَّرَ رَجُلٌ -وَلَوْ يَسِيرًا- فِي الصَّفِّ فِي الصَّلَاةِ؛ يَكُونُ مَدْعَاةً لِاعْوِجَاجِ الصَّفِّ كُلِّهِ، وَهَذَا مِمَّا نَهَىٰ عَنْهُ الرَّسُولُ ﷺ، «**أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا**»(١)؛ يَعْنِي فِي الصَّلَوَاتِ، يُحَاذُونَ بَيْنَ الْمَنَاكِبِ، وَيُحَاذُونَ بَيْنَ الْكُعُوبِ، فَيُحَاذُونَ فِي الصَّلَوَاتِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَكُونُوا كَالْمَلَائِكَةِ عِنْدَ رَبِّ الْأَرْبَابِ.

النَّبِيُّ ﷺ ضَبَطَ لَنَا اللَّفْظَ، وَضَبَطَ لَنَا النَّظَرَ، وَضَبَطَ لَنَا السَّمْعَ، وَضَبَطَ لَنَا الْحَرَكَةَ فِي الْحَيَاةِ؛ مِنْ حَرَكَةِ الْيَدِ، وَمِنْ حَرَكَةِ الرِّجْلِ، وَمِنْ حَرَكَةِ الْجَسَدِ، وَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ الْمُخَالَفَةَ فِي ذَلِكَ مُؤَدِّيَةً إِلَىٰ الْهَلَاكِ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ؛ فَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «**الْعَيْنَانِ تَزْنِيَانِ وَزِنَاهُمَا النَّظَرُ، وَالْأُذُنَانِ تَزْنِيَانِ وَزِنَاهُمَا الِاسْتِمَاعُ، وَالْيَدَانِ تَزْنِيَانِ وَزِنَاهُمَا الْبَطْشُ، وَالرِّجْلَانِ تَزْنِيَانِ وَزِنَاهُمَا السَّعْيُ، وَالْقَلْبُ يَتَمَنَّىٰ وَيَتَشَهَّىٰ، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ**»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم في «**الصحيح**»: (١/ ٣٢٢، رقم ٤٣٠)، من حديث: جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رضي الله عنه، وتمامه: فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَكَيْفَ تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟ قَالَ: «**يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الْأُوَلَ، وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ**».

(٢) أخرجه مسلم: (٤/ ٢٠٤٧، رقم ٢٦٥٧)، من حديث: أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه:
عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «**كُتِبَ عَلَىٰ ابْنِ آدَمَ نَصِيبُهُ مِنَ الزِّنَا، مُدْرِكٌ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ؛ فَالْعَيْنَانِ زِنَاهُمَا النَّظَرُ**،...» فذكره.
والحديث بنحوه متفق عليه؛ أخرجه البخاري: (١١/ ٢٦، رقم٦٢٤٣)، ومسلم: (٤/ ٢٠٤٦) أيضًا، من حديث: ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: مَا رَأَيْتُ شَيْئًا أَشْبَهَ بِاللَّمَمِ مِمَّا قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ كَتَبَ عَلَىٰ ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَا، أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ؛ فَزِنَا الْعَيْنِ النَّظَرُ، وَزِنَا اللِّسَانِ الْمَنْطِقُ، وَالنَّفْسُ تَمَنَّىٰ وَتَشْتَهِي، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ كُلَّهُ وَيُكَذِّبُهُ**».

دِينُ الْإِسْلَامِ دِينُ الْتِزَامٍ وَنِظَامٍ، وَهُوَ دِينٌ صَارِمٌ جِدًّا، لَا كَمَا يَظُنُّ النَّاسُ؛ لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: دِينُ الرَّحْمَةِ.. نَعَمْ، هُوَ دِينُ الرَّحْمَةِ، وَلَكِنَّهُ دِينُ النِّظَامِ، وَدِينُ الِالْتِزَامِ، لَيْسَ لَكَ أَنْ تُؤَخِّرَ الصَّلَاةَ عَنْ وَقْتِهَا، وَمَنْ أَخَّرَ الصَّلَاةَ عَنْ وَقْتِهَا بِغَيْرِ عُذْرٍ فَعِنْدَ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ هُوَ كَافِرٌ كُفْرًا أَكْبَرَ يَنْقُلُهُ مِنَ الْمِلَّةِ(١)، وَعِنْدَ آخَرِينَ كَفَرَ كُفْرًا أَصْغَرَ، «**مَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ فَقَدْ كَفَرَ**»(١).

---

(١) **عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ شَقِيقٍ قَالَ**: «كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَا يَرَوْنَ مِنَ الْأَعْمَالِ شَيْئًا تَرْكُهُ كُفْرٌ سِوَىٰ الصَّلَاةِ». أخرجه الترمذي في «الجامع» في (الإيمان، باب٩، رقم٢٦٢٢)، وقال: سَمِعْتُ أَبَا مُصْعَبٍ المَدَنِيَّ، يَقُولُ: «مَنْ قَالَ: الْإِيمَانُ قَوْلٌ يُسْتَتَابُ، فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا ضُرِبَتْ عُنُقُهُ».

والأثر صحح إسناده الألباني في هامش «المشكاة» (١/ ١٨٣، رقم٥٧٩).

وَذَهَبَ إِلَىٰ هَذَا الْقَوْلِ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ، وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ نَصْرٍ الْمَرْوَزِيُّ: «هُوَ قَوْلُ جُمْهُورِ أَهْلِ الْحَدِيثِ»؛ يَعْنِي: كُفْرُ تَارِكِ الصَّلَاةِ كُفْرًا أَكْبَرَ يُخْرِجُ مِنَ الْمِلَّةِ.

والمقصود بهذا القول: هو من ترك الصلاة عمدا واسْتِهَانَة من غير عذر ولا جهل حتىٰ ذهب وقتها واستتيب مرارا ولم يتب، وذهاب الوقت: أن يؤخر الظهر إلىٰ غروب الشمس، والمغرب إلىٰ طلوع الشمس؛ لأن ما دونهما مختلف فيه، ولا يجوز التكفير إلا بإجماع أهل العلم علىٰ ذهاب الوقت، أما من تركها علىٰ جهة الجهل وغير الاستهانة رفق به حتىٰ يرجع.

وقد أخرج ابن ماجه في «السنن» في (الفتن، باب٢٣، ص: ٤٠٣٤)، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، قَالَ: «**أَوْصَانِي خَلِيلِي ﷺ أَلَّا تَتْرُكْ صَلَاةً مَكْتُوبَةً مُتَعَمِّدًا، فَمَنْ تَرَكَهَا مُتَعَمِّدًا، فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُ الذِّمَّةُ**»، والحديث حسنه لغيره الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ رقم٥٦٧) و(٢/ رقم٢٣٦٩)، وروي نحوه أيضا عن أبي ذر وأم أيمن وعبادة بن الصامت ومعاذ رضي الله عنهم، وعن مكحول مرسلا.

=

الْأَمْرُ لَيْسَ كَمَا يَظُنُّ النَّاسُ!! لِأَنَّ اللهَ خَلَقَكَ لِعِبَادَتِهِ، وَأَنْتَ تَسْرَحُ فِي الْحَيَاةِ تَخْبِطُ فِيهَا بِجَمِيعِ جَوَارِحِكَ؛ بِالنَّظَرِ، وَالِاسْتِمَاعِ، وَبِالْقَلْبِ، بَلْ وَبِالْفَرْجِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ!!

=

وهو قول سعيد بن جبير وعبد الله بن المبارك ووكيع وأحمد بن حنبل وأَبُو أَيُّوبَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ الْهَاشِمِيُّ وأَبُو خَيْثَمَةَ وإسحاق بن راهويه.

وَقَدِ اسْتَدَلَّ أَحْمَدُ وَإِسْحَاقُ عَلَىٰ كُفْرِ تَارِكِ الصَّلَاةِ بِكُفْرِ إِبْلِيسَ بِتَرْكِ السُّجُودِ لِآدَمَ، وَتَرْكُ السُّجُودِ لِلَّهِ أَعْظَمُ، قَالَ إِسْحَاقُ: «وَاجْتَمَعَ أَهْلُ الْعِلْمِ عَلَىٰ أَنَّ إِبْلِيسَ إِنَّمَا تَرَكَ السُّجُودَ لِآدَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لِأَنَّهُ كَانَ فِي نَفْسِهِ خَيْرًا مِنْ آدَمَ عليه السلام فَاسْتَكْبَرَ عَنِ السُّجُودِ لِآدَمَ، فَلَمْ يَشُكَّ إِبْلِيسُ فِي أَنَّ اللهَ قَدْ أَمَرَهُ، وَلَا جَحَدَ السُّجُودَ، فَصَارَ كَافِرًا بِتَرْكِهِ أَمْرَ اللهِ تَعَالَىٰ وَاسْتِنْكَافُهُ أَنْ يَذِلَّ لِآدَمَ بِالسُّجُودِ لَهُ، وَلَمْ يَكُنْ تَرْكُهُ اسْتِنْكَافًا عَنِ اللهِ تَعَالَىٰ وَلَا جُحُودًا مِنْهُ لِأَمْرِهِ»، وقال: «فَكَمَا وَقَعَتِ اسْتِهَانَةُ إِبْلِيسَ وَتَكَبُّرِهِ عَنِ السُّجُودِ لِآدَمَ مَوْقِعَ الْحُجَّةِ فَصَارَ بِذَلِكَ كَافِرًا، فَكَذَلِكَ تَارِكُ الصَّلَاةِ عَمْدًا مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ حَتَّىٰ يَذْهَبَ وَقْتُهَا كَافِرٌ»، وقال: «وَقَدْ كُفِيَ أَهْلُ الْعِلْمِ مُؤْنَةَ الْقِيَاسِ فِي هَذَا عَنْ مَا سَنَّ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ وَالْخُلَفَاءُ مِنْ بَعْدِهِ، جَعَلُوا حُكْمَ تَارِكِ الصَّلَاةِ عَمْدًا حُكْمَ الْكَافِرِ»، وكذا حمل إسحاق قول الصحابة والتابعين -فيمن أطلق الكفر منهم علىٰ تارك الصلاة- علىٰ من تركها متعمدا، انظر: «تعظيم قدر الصلاة» (٢/ ٨٧٣-٩٣٦).

وَالعَمْدُ: ضِدُّ الخطإِ، قَالَ الْخَلِيلُ فِي «العين» (٢/ ٥٨): «الْعَمْدُ: ارْتِكَابك أَمْرًا بِجِدٍّ وَيَقِينٍ، تَقُولُ: فَعَلْتُ ذَلِكَ عَمْدًا وَعَمْدَ عَيْنٍ، وَتَعَمَّدْتُ لَهُ وأتيت ذلك الأمر متعمّدًا ومعتمدًا بمعناه»، وانظر: «الصحاح» (٢/ ٥١١)، و«مقاييس اللغة» (٤/ ١٣٧-١٣٨)، و«لسان العرب» (٣/ ٣٠٢).

(١) أخرج مسلم: (١/ ٨٨، رقم ٨٢)، من حديث: جابر رضي الله عنه، قال:

سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكُ الصَّلَاةِ**».

وَالنَّاسُ يَبْطِشُونَ، تَمْتَدُّ الْأَيْدِي إِلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّا حَرَّمَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، يُحَصِّلُونَ الْحَرَامَ، وَيَأْكُلُونَ الْحَرَامَ، وَيَكْنِزُونَ الْحَرَامَ، وَيُرَبُّونَ أَوْلَادَهُمْ مِنَ الْحَرَامِ، بَلْ تَتَخَلَّقُ النُّطَفُ فِي الْأَرْحَامِ مِنَ الْحَرَامِ، وَتُغْذَىٰ مِنَ الْحَرَامِ فِي أَعْمَالٍ هِيَ حَرَامٌ، وَفِي كَسْبٍ هُوَ حَرَامٌ، وَفِي مَسَالِكَ هِيَ حَرَامٌ، وَبِطُرُقٍ هِيَ حَرَامٌ، وَلَا يُبَالِي أَحَدٌ بِشَيْءٍ!!

إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ أَخْبَرَ أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ إِلَىٰ أَهْلِ النَّارِ وَاحِدٌ فِي كُلِّ أَلْفٍ، فَفِي النَّارِ تِسْعُمَائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ فِي النَّارِ، وَوَاحِدٌ فِي الْجَنَّةِ، كَمَا أَخْبَرَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ آدَمَ عليه السلام.

قَالَ: «**يَا آدَمُ! أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ**».

قَالَ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟

قال: «**مِنْ ذُرِّيَّتِكَ مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعُمَائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ فِي النَّارِ، وَوَاحِدٌ فِي الْجَنَّةِ**».

الْأَمْرُ لَيْسَ هَيِّنًا كَمَا تَظُنُّونَ!!

لَمَّا سَمِعَ الْأَصْحَابُ رضي الله عنهم هَذَا الْحَدِيثَ؛ جَثَوْا عَلَىٰ الرُّكَبِ وَبَكَوْا، وَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! وَأَيُّنَا ذَلِكَ الْوَاحِدُ؟!!

وَبَشَّرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ بِأَنَّهُ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ نِصْفُ عَدَدِ أَهْلِ الْجَنَّةِ مِنْ جَمِيعِ الْأُمَمِ، مَعَ أَنَّنَا نُوفِي سَبْعِينَ أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ نَحْنُ أَكْرَمُهَا عَلَىٰ اللهِ، وَنَحْنُ

أَفْضَلُهَا فِي دِينِ اللهِ، أُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ(١).

ضَبَطَ لَنَا رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ كُلَّ شَيْءٍ، وَالنَّاسُ يَخْبِطُونَ فِي الْحَيَاةِ!!

وَالرَّسُولُ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مَا يَتَبَيَّنُ مَا فِيهَا؛ يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ**»(٢).

النَّاسُ لَا يَحْسَبُونَ أَنَّ دِينَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يَضْبِطُهُمْ فِي شَيْءٍ، مَعَ أَنَّ الْقَانُونَ لَوْ نُفِّذَ لَضَبَطَهُمْ، وَهُوَ لَيْسَ مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ، فَكَيْفَ بِدِينِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؟!!

لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَخْطُوَ خُطْوَةً إِلَّا بِأَمْرِ اللهِ، وَلَا أَنْ يَسْكُنَ إِلَّا بِأَمْرِ اللهِ، وَلَا أَنْ يُرِيدَ إِرَادَةً بِقَلْبِهِ إِلَّا بِأَمْرِ اللهِ؛ لِأَنَّ النِّيَّةَ تَنْضَبِطُ، وَلَا بُدَّ مِنْ ضَبْطِهَا، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا تَقَاتَلَ الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا؛ فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ**».

قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! هَذَا الْقَاتِلُ، فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ؟!!

إِذَا تَوَاجَهَ مُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا، لَا يُشْتَرَطُ أَنْ يَكُونَ بِسَيْفَيْهِمَا؛ بِخِنْجَرَيْهِمَا، بِسِكِّينَيْهِمَا، بِسِنْجَتَيْهِمَا، بِأَيِّ شَيْءٍ، بِعِصِيِّهِمَا، فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ.

---

(١) أخرجه البخاري: (٦/ ٣٨٢، رقم ٣٣٤٨)، ومسلم: (١/ ٢٠١، رقم ٢٢٢)، من حديث: أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري: (١١/ ٣٠٨، رقم ٦٤٧٧)، ومسلم: (٤/ ٢٢٩٠، رقم ٢٩٨٨)، من حديث: أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

وفي رواية للبخاري: (١١/ ٣٠٨، رقم ٦٤٧٨)، بلفظ: «**إِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ، لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَرْفَعُهُ اللهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ، لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ**».

قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! هَذَا الْقَاتِلُ، فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ؟!!

قَالَ: «**إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَىٰ قَتْلِ صَاحِبِهِ**»(١).

فَنَزَّلَهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مَنْزِلَةَ الْقَاتِلِ.

النَّاسُ تَأْخُذُ الدِّينَ بِاسْتِخْفَافٍ!! مَعَ أَنَّ الْوَاحِدَ لَوْ نَزَلَ مَنْزِلًا مِنْ مَنَازِلِ أَهْلِ الدُّنْيَا؛ لَكَانَ مُؤَدَّبًا فِيهِ الْأَدَبَ الَّذِي لَا أَدَبَ بَعْدَهُ، وَأَمَّا بَيْتُ اللهِ فَلَا حُرْمَةَ لَهُ!!

إِنَّ الدِّينَ يَطْلُبُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ النَّظَافَةِ، وَلَوْ قَامَ كُلُّ إِنْسَانٍ بِتَنْظِيفِ مَا أَمَامَ بَيْتِهِ مِنْ مَكَانٍ؛ لَاسْتَقَامَتْ أُمُورُنَا.

لَوْ رَاقَبَ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنَّا رَبَّهُ فِي مَطْعَمِهِ وَمَشْرَبِهِ؛ لَاسْتَقَامَتِ الْحَيَاةُ، لَا رِشْوَةَ، وَلَا سَرِقَةَ، وَلَا غَصْبَ، وَلَا اعْتِدَاءَ، وَإِنَّمَا خَلَّفُوا الدِّينَ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، وَقَدْ قَالَ لَنَا نَبِيُّنَا ﷺ: «**إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ؛ سَلَّطَ اللهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ عَنْكُمْ حَتَّىٰ تَرْجِعُوا إِلَىٰ دِينِكُمْ**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري: (١/ ٨٤-٨٥، رقم ٣١)، ومسلم: (٤/ ٢٢١٣-٢٢١٤، رقم ٢٨٨٨)، من حديث: أَبِي بَكْرَةَ رضي الله عنه.

وفي رواية لمسلم: «**إِذَا الْمُسْلِمَانِ حَمَلَ أَحَدُهُمَا عَلَىٰ أَخِيهِ السِّلَاحَ، فَهُمَا عَلَىٰ جُرُفِ جَهَنَّمَ، فَإِذَا قَتَلَ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ، دَخَلَاهَا جَمِيعًا**».

(٢) أخرجه أبو داود: (٣/ ٢٧٤، رقم ٣٤٦٢)، من حديث: ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما.

والحديث صححه بمجموع طرقه الألباني في «**الصحيحة**»: (١/ ٤٢، رقم ١١).

أُمَّةٌ تُنيِّفُ عَلَىٰ مِلْيَارٍ وَخَمْسِمِائَةٍ مِنَ الْمَلَايِينِ مِنَ الْبَشَرِ؛ هُمْ فِي جُمْلَتِهِمْ كُلٌّ مِنْهُمْ يَقُولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ»، وَعِدَّةُ مَلَايِينَ لَا تَتَجَاوَزُ أَصَابِعَ الْيَدِ الْوَاحِدَةِ مِنَ الْيَهُودِ الْمَلَاعِينِ الَّذِينَ غَضِبَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَلَيْهِمْ.. لَا تَسْتَطِيعُ أُمَّةٌ تَجَاوَزَتِ الْمِلْيَارَ، وَتَمْتَلِكُ مِنَ الثَّرْوَاتِ مَا لَا تَمْتَلِكُهُ أُمَّةٌ عَلَىٰ ظَهْرِ الْأَرْضِ، أَجْسَامٌ وَهَيْئَاتٌ، وَلَا حَقِيقَةَ.. «**غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ**»(١).

اخْرُجْ مِنَ الِاسْتِخْفَافِ!

اخْرُجْ مِنَ اللَّامُبَالَاةِ؛ لِأَنَّهَا هِيَ الَّتِي ضَيَّعَتِ الْأُمَّةَ، فَأَكْثَرُ أَهْلِ الْأُمَّةِ وَأَكْثَرُ أَبْنَائِهَا عِنْدَهُمُ اسْتِخْفَافٌ، يَأْخُذُونَ كُلَّ شَيْءٍ بِاسْتِخْفَافٍ، لَا جِدِّيَّةَ!! وَهَذَا أَمْرٌ لَيْسَ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمِ، لَا تَضْحَكْ إِلَّا بِقَدْرٍ، لَا تَبْتَسِمْ إِلَّا بِقَدْرٍ، لَا تَتَكَلَّمْ إِلَّا بِقَدْرٍ، فَكَذَلِكَ كَانَ نَبِيُّكَ ﷺ.

وَأَمَّا هَذَا الِانْفِلَاتُ؛ فَعَاقِبَتُهُ أَنْ يُسَلِّطَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ أَهْلَ الْكُفْرِ عَلَىٰ دِيَارِ الْإِسْلَامِ كَمَا هُوَ وَاقِعٌ فِي كَثِيرٍ مِنَ الدُّوَلِ الْمُسْلِمَةِ حَتَّىٰ يَسُومُوا الْمُسْلِمِينَ سُوءَ الْعَذَابِ، لَا تَنْفَعُهُمْ كَثْرَةٌ، وَلَا تَنْفَعُهُمْ ثَرْوَةٌ، وَلَا يَنْفَعُهُمْ شَيْءٌ يَلُوذُونَ بِهِ؛ لِأَنَّهُمْ

---

(١) أخرج أبو داود: (٤/ ١١١، رقم ٤٢٩٧)، من حديث: ثَوْبَانَ، قَالَ:
قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَىٰ عَلَيْكُمْ، كَمَا تَدَاعَىٰ الْأَكَلَةُ إِلَىٰ قَصْعَتِهَا**»، فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «**بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزِعَنَّ اللهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ**»، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: «**حُبُّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ**».
والحديث صححه الألباني في «**الصحيحة**»: (٢/ ٦٤٧، رقم ٩٥٨).

لَا يَلُوذُونَ بِكَنَفِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ الْكَرِيمُ ﷺ: «**سَلَّطَ اللهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ عَنْكُمْ حَتَّىٰ تَرْجِعُوا إِلَىٰ دِينِكُمْ**».

لَمَّا وَقَعَ نَقْضٌ لِلْعَهْدِ مِنْ كَبِيرِ الرُّومِ وَعَظِيمِهَا؛ أَرْسَلَ إِلَيْهِ الرَّشِيدُ خِطَابًا فِي سَطْرَيْنِ: «مِنْ عَبْدِ اللهِ هَارُونَ الرَّشِيدِ إِلَىٰ نِقْفُورَ كَلْبِ الرُّومِ: إِذَا جَاءَكَ خِطَابِي هَذَا فَاعْلَمْ أَنِّي مُسَيِّرٌ إِلَيْكَ جُنْدًا أَوَّلُهُمْ عِنْدَكَ وَآخِرُهُمْ عِنْدِي، وَالْأَمْرُ مَا تَرَىٰ لَا مَا تَسْمَعُ»(١).

وَقَدْ كَانَ.. أَذَلَّهُ وَدَوَّخَهُ.

الْمُعْتَصِمُ وَفِي يَدِهِ كَأْسٌ مِنْ مَاءٍ.. لِأَنَّ عِنْدَهُ رِجَالًا، لَا يَسْتَطِيعُ حَاكِمٌ مَهْمَا بَلَغَ مِنْ قُوَّتِهِ أَنْ يَفْعَلَ شَيْئًا إِلَّا بِرِجَالِهِ.. بِشَعْبِهِ.. بِأَفْرَادِ أُمَّتِهِ، فَإِذَا كَانُوا مُنْحَلِّينَ، وَلَا يَتَمَسَّكُونَ بِدِينِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ فَمَاذَا يُمْكِنُ أَنْ يَصْنَعَ هَذَا أَوْ هَذَا؟!!

لَمَّا كَانَ الْكَأْسُ فِي يَدِهِ وَجَاءَهُ مَا جَاءَهُ؛ أَقْسَمَ لَا يَشْرَبُ هَذَا الْكَأْسَ حَتَّىٰ يَرُدَّ الْكَرَامَةَ الْمَسْلُوبَةَ، وَأَمَرَ بِأَنْ يُجْعَلَ فِي خِزَانَتِهِ حَتَّىٰ رَدَّ الْكَرَامَةَ، وَأَعَادَ الْعِزَّةَ الْمَسْلُوبَةَ، ثُمَّ رَجَعَ فَشَرِبَ الْمَاءَ(٢).

كَانُوا رِجَالًا، لَمْ يَكُونُوا يَمْلِكُونَ شَيْئًا، كَانَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ لَا يَمْلِكُ ثَوْبًا وَاحِدًا، وَإِذَا مَلَكَهُ فَإِنَّهُ لَا يَسْتُرُ الْعَوْرَةَ إِلَّا بِالْكَادِ، إِذَا سَجَدَ يُمْسِكُ عَلَيْهِ حَتَّىٰ لَا

---

(١) «**تاريخ الرسل والملوك**» للطبري: (٨/ ٢٦٨، و ٣٠٧ - ٣١٠)، و«**الكامل**» لابن الأثير: (٥/ ٣٥٨ - ٣٥٩).

(٢) «**تاريخ الرسل**»: (٩/ ٥٥ - ٧١)، و«**الكامل**»: (٦/ ٣٧ - ٤٤).

تَبْدُوَ عَوْرَتُهُ، وَكَذَلِكَ إِذَا رَكَعَ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا رِجَالًا، وَكَانَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ بِأَلْفٍ - بَلْ بِأَكْثَرَ- مِنَ الرِّجَالِ؛ لِأَنَّهُمْ لَيْسُوا مِنْ أَهْلِ الطَّرَاوَةِ، وَلَا مِنْ أَهْلِ اللَّامُبَالَاةِ، وَإِنَّمَا كَانُوا مُتَمَسِّكِينَ بِدِينِهِمْ، فَأَعَزَّهُمُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ.

أَسْأَلُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ أَنْ يَجْمَعَ الْأُمَّةَ عَلَىٰ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، وَأَنْ يُبَصِّرَنَا بِحَقِيقَةِ الدِّينِ، وَأَنْ يُخْرِجَنَا مِنْ ذُلِّ الْمَعْصِيَةِ إِلَىٰ عِزِّ الطَّاعَةِ.

اللَّهُمَّ أَخْرِجْنَا مِنْ ذُلِّ الْمَعْصِيَةِ إِلَىٰ عِزِّ الطَّاعَةِ، وَاجْمَعْ قُلُوبَ الْمُسْلِمِينَ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا عَلَىٰ طَاعَتِكَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ، وَامْتِثَالِ أَمْرِكَ وَاتِّبَاعِ نَبِيِّكَ ﷺ.

اخْرُجْ مِمَّا أَنْتَ فِيهِ، وَاكْسِرِ الْحَلْقَةَ الَّتِي تَدُورُ فِيهَا؛ فَأَنْتَ تَدُورُ فِي حَلْقَةٍ تُكْسَرُ بِمَوْتِكَ!!

وَيْحَكَ! أَلَا تَنْتَبِهُ؟!!

أَفِقْ؛ فَإِنَّهُ يَأْتِيكَ مِنْ حَيْثُ لَا تَحْتَسِبُ، وَلَعَلَّ مَرَضًا يَرْتَعُ فِي بَدَنِكَ؛ فِي كَبِدِكَ أَوْ فِي كُلْيَتِكَ؛ سَرَطَانٌ زَاحِفٌ لَا تَدْرِي عَنْهُ شَيْئًا، حَتَّىٰ إِذَا مَا أَمْسَكَ بِخِنَاقِكَ صَرَعَكَ، وَلَا تَمْلِكُ شَيْئًا حِينَئِذٍ، لَا يَنْفَعُكَ مَالٌ جَمَعْتَهُ مِنْ حَرَامٍ؛ لِأَنَّهُ يَصِيرُ إِلَىٰ مَنْ يَتَمَتَّعُ بِهِ، وَعَلَيْكَ وِزْرُهُ، وَلَا شَيْءَ عَلَيْهِ، وَلَا يَنْفَعُكَ كَثْرَةُ وَلَدٍ وَلَا مُقْتَنَيَاتٍ.

اعْمَلْ لِآخِرَتِكَ، وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ رَبِّكَ، وَاكْسِرِ الْحَلْقَةَ!

اخْرُجْ مِنْ هَذَا الْإِلْفِ لِلْعَادَةِ، تَصْحُو وَتَنَامُ وَأَنْتَ فِي دَائِرَةٍ، كَثِيرٌ مِنَ الْخَلْقِ كَالثَّوْرِ قَدْ عُصِبَتْ عَيْنَاهُ يَدُورُ فِي السَّاقِيَةِ لَا يَدْرِي أَيْنَ هُوَ!

أَكْثَرُ الْمُسْلِمِينَ لِلْأَسَفِ كَالثَّوْرِ فِي السَّاقِيَةِ، لَا يَدْرِي أَيْنَ هُوَ!!

أَرْحَامٌ تَدْفَعُ، وَأَرْضٌ تَبْلَعُ، وَهُوَ بَيْنَ صَرْخَةِ الْوَضْعِ وَأَنَّةِ النَّزْعِ لَا يَكَادُ يُحِسُّ بِشَيْءٍ، مُغَيَّبٌ، وَإِذَا أَفَاقَ فَإِنَّمَا هِيَ لَحْظَةٌ!!

يَا أَخِي.. إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ أُرْسِلَ إِلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ، كَانُوا يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ، يُقَدِّسُونَ الْأَوْثَانَ، لَا يَعْرِفُونَ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُونَ مُنْكَرًا، فَصَارُوا سَادَةَ الدُّنْيَا وَقَادَتَهَا لَمَّا تَمَسَّكُوا بِكِتَابِ اللهِ وَبِسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

فَعَلَىٰ الْمُسْلِمِ أَنْ يَكُونَ فَرَحُهُ لِلهِ، وَأَنْ يَكُونُ حُزْنُهُ لِلهِ، وَأَنْ يَكُونَ إِقْبَالُهُ لِلهِ، وَأَنْ يَكُونَ إِدْبَارُهُ لِلهِ، وَأَنْ يَكُونَ ضَحِكُهُ لِلهِ، وَأَنْ يَكُونَ بُكَاؤُهُ لِلهِ، وَأَنْ تَكُونَ حَرَكَتُهُ لِلهِ، وَسُكُونُهُ لِلهِ، هَذَا هُوَ الَّذِي يُنْجِينَا مِنْ هَذَا الذُّلِّ الَّذِي وَصَلْنَا إِلَيْهِ.

نَتَكَفَّفُ الْأُمَمَ مِنْ أَجْلِ رَغِيفِ الْعَيْشِ، وَنَحْنُ أَكْثَرُ النَّاسِ ثَرْوَةً فِي الدُّنْيَا؛ لِأَنَّنَا فَرَّطْنَا فِي طَاعَةِ رَبِّنَا، لَوْ عُدْنَا إِلَيْهِ لَأَكَلْنَا مِنْ فَوْقِنَا وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِنَا، إِذَا أَقَمْنَا دِينَهُ، وَحَفِظْنَا سُنَّةَ نَبِيِّهِ ﷺ؛ أَكْرَمَنَا، وَأَعَزَّنَا، فَأَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَرُدَّنَا أَجْمَعِينَ إِلَىٰ الْحَقِّ رَدًّا جَمِيلًا.

وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.

الْمَوْعِظَةُ الْخَامِسَةُ:

تَحْذِيرٌ شَدِيدٌ لِمَنْ يَتْرُكُ الصَّلَاةَ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

- **أَمَّا بَعْدُ:**

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

- **أَمَّا بَعْدُ:**

لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ ﷻ

فَفِي الْحَدِيثِ الثَّابِتِ الصَّحِيحِ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَرْسَلَ سَرِيَّةً، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ، فَلَمَّا كَانُوا فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ أَغْضَبُوهُ، فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَجْمَعُوا حَطَبًا، فَجَمَعُوهُ، فَقَالَ: أَشْعِلُوا فِيهِ النَّارَ، فَأَشْعَلُوهَا.

فَقَالَ: ادْخُلُوا النَّارَ.

فَوَقَفَ بَعْضُهُمْ يَنْظُرُ إِلَىٰ بَعْضٍ، وَهُوَ يَقُولُ لَهُمْ: أَلَمْ يَأْمُرْكُمُ النَّبِيُّ ﷺ بِطَاعَتِي؟

فَقَالُوا: وَاللهِ مَا دَخَلْنَا الْإِسْلَامَ إِلَّا فِرَارًا مِنَ النَّارِ.

فَسَكَنَ غَضَبُهُ، وَانْطَفَأَتِ النَّارُ.

فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ النَّبِيِّ الْمُخْتَارِ ﷺ أَخْبَرُوهُ، فَقَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ، لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ٥٨، رقم ٤٣٤٠)، ومسلم: (٣/ ١٤٦٩-١٤٧٠، رقم ١٨٤٠)، من حديث: عَلِيٍّ رضي الله عنه.

«**إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ، لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ**»؛ وَلِذَلِكَ جَعَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ طَاعَةَ أُولِي الْأَمْرِ مُؤَسَّسَةً عَلَىٰ طَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ ﷺ، ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ [النساء: ٥٩]، وَلَمْ يَقُلْ: وَأَطِيعُوا أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ، وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾، فَلَمْ يُكَرِّرِ الْفِعْلَ مَعَهُمْ، وَهَذَا دَلَالَةٌ عَلَىٰ أَنَّ طَاعَتَهُمْ إِنَّمَا تَكُونُ فِي طَاعَتِهِمْ لِلهِ وَرَسُولِهِ ﷺ؛ لِأَنَّهُ «لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ».

❀❀❀

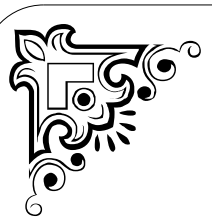

اللهُ ﷻ هُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ وَحْدَهُ

اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هُوَ خَالِقُنَا، وَهُوَ رَازِقُنَا، وَهُوَ كَالِؤُنَا وَحَافِظُنَا، وَهُوَ مُدَبِّرُ أُمُورِنَا، وَهُوَ مُحْيِينَا، وَهُوَ مُمِيتُنَا، لَا يُنَازِعُهُ فِي ذَلِكَ أَحَدٌ؛ فَاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مُتَفَرِّدٌ بِالْخَلْقِ، وَبِالْمُلْكِ، وَبِالتَّدْبِيرِ، لَا يُنَازِعُ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي ذَلِكَ أَحَدٌ مِنَ الْخَلْقِ، فَمَا دَامَ ذَلِكَ كَذَلِكَ؛ فَهُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ وَحْدَهُ، إِذَا كَانَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ، وَهُوَ الَّذِي يَرْزُقُ، لَمْ يَخْلُقْ سِوَاهُ، وَلَا يَرْزُقُ سِوَاهُ، وَلَا يُدَبِّرُ الْأَمْرَ إِلَّا إِيَّاهُ؛ فَهُوَ مُسْتَحِقٌّ لِلْعِبَادَةِ وَحْدَهُ.

وَلَدُكَ؛ تَقُولُ لَهُ: إِنَّكَ لَا تَسْتَحِقُّ لُقْمَتِي إِذَا عَصَيْتَ أَوَامِرِي؛ لِأَنَّكَ تُطْعِمُهُ وَتَسْقِيهِ، وَتَقُومُ عَلَىٰ شَأْنِهِ، فَإِذَا عَصَىٰ أَمْرَكَ؛ فَإِنَّكَ لَا تَقْبَلُ مِنْهُ عِصْيَانَ أَمْرِكَ، هَذَا وَلَدُكَ، وَأَنْتَ لَمْ تَخْلُقْهُ، وَأَنْتَ لَمْ تَرْزُقْهُ، وَإِنَّمَا الَّذِي خَلَقَكَ وَخَلَقَهُ هُوَ اللهُ، وَالَّذِي يَرْزُقُكَ وَيَرْزُقُهُ هُوَ اللهُ.

تَقُولُ لَهُ: لَا تَأْكُلْ خَيْرِي وَتَعْصَ أَمْرِي، وَأَنْتَ إِذَا اسْتَأْجَرْتَ أَجِيرًا لِيَقُومَ عَلَىٰ أَمْرٍ مِنْ أُمُورِكَ؛ فَإِنَّكَ إِنَّمَا تُعْطِيهِ أَجْرَهُ عَلَىٰ مَا كَلَّفْتَهُ بِهِ، لَوْ كَانَ خَادِمٌ؛ فَإِنَّكَ لَا تَقْبَلُ أَنْ يَأْكُلَ خَيْرَكَ وَيَخْدُمَ غَيْرَكَ، فَأَنْتَ لَا تَقْبَلُ لِعَبْدِكَ مِثْلَ هَذَا الْأَمْرِ، وَلَا تَقْبَلُ لِنَفْسِكَ مِنْ وَلَدِكَ وَلَا مِنْ خَادِمِكَ وَلَا مِنْ عَبْدِكَ مَا تَقْبَلُهُ لِرَبِّكَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مِنْ نَفْسِكَ، فَأَنْتَ تَأْكُلُ خَيْرَهُ وَتَعْصِي أَمْرَهُ، خَيْرُهُ إِلَيْكَ نَازِلٌ، وَشَرُّكَ إِلَيْهِ صَاعِدٌ.

اتَّقُوا اللهَ فِي الصَّلَاةِ وَاحْذَرُوا مِنْ تَضْيِيعِهَا!

الْأَمْرُ عَظِيمٌ؛ لِأَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ خَلَقَ الْخَلْقَ مُكَلَّفِينَ، وَمَا دَامَ عَقْلُكَ مَعَكَ؛ فَأَنْتَ مُؤَاخَذٌ وَأَنْتَ مَسْئُولٌ، أَمَّا إِذَا ذَهَبَ الْعَقْلُ، فَجُنَّ الْمَرْءُ، أَوْ كَانَ دُونَ مُسْتَوىٰ التَّكْلِيفِ؛ فَإِنَّهُ يَسْقُطُ عَنْهُ التَّكْلِيفُ وَالْمُؤَاخَذَةُ، وَأَمَّا مَا دَامَ عَقْلُكَ مَعَكَ؛ فَلَنْ يَسْقُطَ عَنْكَ التَّكْلِيفُ بِحَالٍ.

الصَّلَاةُ لَا تَسْقُطُ عَنِ الْمَرْءِ مَا دَامَ عَقْلُهُ مَعَهُ، إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ أَن يُصَلِّيَ قَائِمًا فَلْيُصَلِّ قَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَىٰ جَنْبٍ، وَإِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَفْعَلَ شَيْئًا؛ يُجْرِي أَعْمَالَ الصَّلَاةِ عَلَىٰ قَلْبِهِ، مَا دَامَ عَقْلُهُ مَعَهُ يَنْبَغِي عَلَيْهِ أَنْ يُصَلِّيَ.

قَدْ يَحْدُثُ فِي آخِرِ الْحَيَاةِ أَوْ عِنْدَ الْمَرَضِ الَّذِي يُفْضِي إِلَىٰ الْمَوْتِ أَنْ يَكُونَ عِنْدَ الْإِنْسَانِ عَدَمُ تَحَكُّمٍ فِي بَوْلِهِ أَوْ غَائِطِهِ، فَيَظُنُّ -وَيَظُنُّ مَنْ حَوْلَهُ- أَنَّ تِلْكَ النَّجَاسَةَ تَكُونُ قَاطِعَةً لَهُ عَنِ الصَّلَاةِ!!

وَهَذَا ظُلْمٌ عَظِيمٌ، حَتَّىٰ إِنَّ مَنْ حَوْلَهُ يَقُولُونَ لَهُ: كَيْفَ تُصَلِّي وَالْبَوْلُ يَتَقَاطَرُ أَوْ شَيْءٌ مِنَ الْغَائِطِ يَخْرُجُ، فَيُلَوِّثُ هَذَا الثِّيَابَ، وَيَشُقُّ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ مُبْدِلَهَا فِي كُلِّ حِينٍ وَحَالٍ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ تِلْكَ الصُّعُوبَاتِ الَّتِي تَلْحَقُ الْإِنْسَانَ فِي

مَرَضِهِ، خَاصَّةً فِي هَذَا الْعَصْرِ عِنْدَمَا يُهْمِلُهُ أَهْلُهُ فَلَا يَقُومُونَ عَلَىٰ شَأْنِهِ، وَكَثِيرٌ مِنَ الْخَلْقِ لَا يَلْتَفِتُ إِلَىٰ هَذَا الْأَمْرِ، نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يُحْسِنَ خِتَامَنَا أَجْمَعِينَ.

لَنْ يَنْفَعَكَ أَحَدٌ، لَا زَوْجَةٌ وَلَا وَلَدٌ، وَرُبَّمَا تَرَكُوكَ، لَا يَلْتَفِتُونَ إِلَيْكَ، وَرُبَّمَا أَهْمَلُوكَ، وَلَقَدْ رَأَيْنَا أَقْوَامًا أُصِيبُوا بِقُرْحَةِ الْفِرَاشِ حَتَّىٰ كَانَ الدُّودُ يَخْرُجُ مِنْ جِرَاحِهِمْ، وَحَوْلَهُمْ أَقْوَامٌ إِنَّمَا يَظْهَرُونَ يَوْمَ الْعَزَاءِ، يَظْهَرُونَ فِي الْمُنَاسَبَاتِ!! وَأَمَّا الرِّعَايَةُ فَشَيْءٌ دُونَهُ خَرْطُ الْقَتَادِ!! فَاتَّقِ اللهَ رَبَّكَ.

فَيَقُولُونَ لِلرَّجُلِ إِذَا مَا مَرِضَ وَصَارَ شَيْءٌ مِنَ النَّجَاسَةِ خَارِجًا مِنْهُ: لَا تُصَلِّ!! فَيَلْقَىٰ رَبَّهُ غَيْرَ مُصَلٍّ!!

وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «**الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ، مَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ**».

وَجُمْهُورُ الصَّحَابَةِ عَلَىٰ: «أَنَّ مَنْ تَرَكَ صَلَاةً وَاحِدَةً؛ كَفَرَ وَخَرَجَ مِنْ مِلَّةِ الْإِسْلَامِ»[1]، صَلَاةً وَاحِدَةً.

يَقُولُونَ: «لَا فَرْقَ بَيْنَ تَرْكِهَا تَكَاسُلًا وَتَهَاوُنًا، وَتَرْكِهَا جُحُودًا وَتَعَمُّدًا».

هَذَا أَمْرٌ عَظِيمٌ، وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ لَا يَحْرِصُ عَلَىٰ الصَّلَاةِ، يَقُولُونَ: «كَفَرَ كُفْرًا يُخْرِجُ مِنَ الْمِلَّةِ»؛ بِمَعْنَىٰ أَنَّهُ تَسْقُطُ وَلَايَتُهُ عَلَىٰ ابْنَتِهِ، وَلَا كَلَامَ لَهُ مَعَ امْرَأَتِهِ، يُفْسَخُ الْعَقْدُ مِنْهَا بِبَيْنُونَةٍ كُبْرَىٰ، وَإِذَا مَاتَ لَا يَرِثُهُ أَهْلُهُ، وَإِذَا مَاتَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِهِ وَهُوَ غَيْرُ مُصَلٍّ؛ هُوَ لَا يَرِثُ مِنْهُ، وَإِذَا مَاتَ لَا يَلْزَمُنَا نَحْنُ الْمُسْلِمِينَ أَنْ نُغَسِّلَهُ، وَلَا أَنْ نُكَفِّنَهُ، وَلَا يُدْفَنُ فِي مَقَابِرِ الْمُسْلِمِينَ.

---

(١) تقدم تخريجه.

تَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا؟!!

هُوَ أَمْرٌ عَظِيمٌ.

لِمَاذَا يُفَرِّطُ الْمَرْءُ فِي الصَّلَاةِ؟!! لِمَاذَا لَا يُصَلِّي؟!!

الَّذِي يَتْرُكُ الصَّلَاةَ يَكْفُرُ كُفْرًا أَكْبَرَ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ، وَآخَرُونَ يَقُولُونَ: «كَفَرَ كُفْرًا لَا يُخْرِجُ مِنَ الْمِلَّةِ».

فَتَنَازَعَ فِيكَ الْعُلَمَاءُ إِنْ تَرَكْتَ الصَّلَاةَ، أَكَافِرٌ كُفْرًا يُخْرِجُ مِنَ الْمِلَّةِ، أَمْ كَافِرٌ كُفْرًا لَا يُخْرِجُ مِنَ الْمِلَّةِ؟! هَذَا لَا يَجُوزُ بِحَالٍ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ تِلْكَ الْأُمُورِ.

فَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «**لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ**»، حَتَّىٰ لَوْ أَمَرَكَ أَبُوكَ بِمَا تَعْصِي بِهِ اللهَ؛ لَا تُطِعْهُ! وَإِذَا أَمَرَتْكَ أُمُّكَ بِمَعْصِيَةِ اللهِ؛ لَا تُطِعْهَا! فَضْلًا عَمَّنْ دُونَ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ.

لَا يَجُوزُ بِحَالٍ أَنْ يُطِيعَ الْمَرْءُ مَخْلُوقًا فِي مَعْصِيَةِ خَالِقِهِ الْعَظِيمِ، بَلْ يَنْبَغِي عَلَيْهِ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي طَاعَةِ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، هُوَ وَحْدَهُ الَّذِي يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ، وَهُوَ وَحْدَهُ الَّذِي تَتَمَحَّضُ لَهُ الطَّاعَةُ، فَيَنْبَغِي عَلَيْنَا أَنْ نَجْتَهِدَ فِي النَّظَرِ إِلَىٰ هَذَا الْأَمْرِ الْعَظِيمِ.

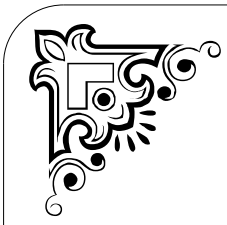

مُرْ مَنْ تَحْتَ يَدِكَ بِالصَّلَاةِ!

مَنْ كَانَ تَحْتَ يَدِكَ لَا يُصَلِّي، فَأَنْتَ مَسْئُولٌ عَنْهُ، امْرَأَةٌ لَا تُصَلِّي فَهِيَ مَلْعُونَةٌ، تُؤْوِي فِي بَيْتِكَ مَلْعُونَةً! وَالْمَلْعُونَةُ هِيَ الْخَارِجَةُ مِنَ الرَّحْمَةِ، مَطْرُودَةٌ مِنَ الرَّحْمَةِ، امْرَأَةٌ لَا تُصَلِّي؛ كَيْفَ تُعَاشَرُ؟!!

كَيْفَ يَكُونُ فِي بَيْتِكَ امْرَأَةٌ لَا تُصَلِّي؟!!

مُرْهَا بِالصَّلَاةِ، أَنْتَ تَضْرِبُهَا عَلَىٰ عَدَمِ إِجَادَةِ الطَّعَامِ، فَازْجُرْهَا وَأْمُرْهَا، فَإِنْ لَمْ تُطِعْ؛ فَالطَّلَاقُ كَمَا قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ، امْرَأَةٌ لَا تُصَلِّي، وَتَأْبَىٰ أَنْ تُصَلِّيَ، يَأْمُرُهَا زَوْجُهَا أَنْ تُصَلِّيَ فَلَا تُصَلِّي؛ لَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يُبْقِيَهَا عِنْدَهُ، لَا بُدَّ مِنْ فِرَاقِهَا، هَذَا دِينُ اللهِ، تَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا، وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ.

الْوَاحِدُ مِنَّا إِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَحَصَّلَ عَلَىٰ أَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ التَّافِهَةِ؛ يَسْهَرُ، وَيُسَافِرُ، وَيَتْعَبُ، تُرِيدُ أَنْ تَبْنِيَ بَيْتًا، وَلَيْسَ فِيهِ أَجْرٌ، كُلُّ شَيْءٍ فِيهِ أَجْرٌ يَفْعَلُهُ الْمُسْلِمُ إِلَّا الْبِنَاءَ، الْبِنَاءُ لَا أَجْرَ فِيهِ، مَنْ بَنَىٰ لَا أَجْرَ لَهُ فِي الْبِنَاءِ كَمَا قَالَ الرَّسُولُ ﷺ(١)، وَيَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ.

---

(١) أخرج البخاري: (١٠/ ١٢٧، رقم ٥٦٧٢)، عَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ، قَالَ:
=

يُسَافِرُ الْوَاحِدُ مُغْتَرِبًا، وَالْإِهَانَةُ تَلْحَقُهُ، يُضْرَبُ عَلَىٰ قَفَاهُ، وَيَتَحَكَّمُ فِيهِ كَفِيلُهُ كَمَا يَتَحَكَّمُ السَّيِّدُ فِي الْعَبْدِ، وَلَا أَحَدَ يَرَىٰ مَا يَحْدُثُ لَهُ؛ لِيَجْمَعَ الْمَالَ، ثُمَّ إِذَا مَا جَاءَ بَنَىٰ بَيْتًا، أَتُرِيدُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ بِغَيْرِ مَجْهُودٍ؟! وَأَنْتَ تَغْتَرِبُ عَنْ وَطَنِكَ عُقُودًا مِنْ عُمُرِكَ مِنْ أَجْلِ أَنْ تَبْنِيَ شَيْئًا كَهَذَا تَتْرُكُهُ وَتَذْهَبُ، ثُمَّ تُرِيدُ أَنْ تُحَصِّلَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ مَجْهُودٍ؟!! هَذَا لَا يَكُونُ.

أَسْأَلُ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَنْ يُوَفِّقَنَا لِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ.

❀❀❀

=

دَخَلْنَا عَلَىٰ خَبَّابٍ نَعُودُهُ، وَقَدْ اكْتَوَىٰ سَبْعَ كَيَّاتٍ، وَهُوَ يَبْنِي حَائِطًا لَهُ، فَقَالَ: «إِنَّ الْمُسْلِمَ لَيُؤْجَرُ فِي كُلِّ شَيْءٍ يُنْفِقُهُ، إِلَّا فِي شَيْءٍ يَجْعَلُهُ فِي هَذَا التُّرَابِ»، كذا موقوفًا، وقال الألباني: «أرىٰ أنه في حكم المرفوع».

وقد روي مرفوعًا صراحة؛ فأخرجه هناد بن السري في «**الزهد**»: (٢/ ٣٧٤، رقم ٧٢٢)، والبزار في «**المسند**»: (٦/ ٦٤، رقم ٢١٢٥)، وابن حبان في «**الصحيح**» بترتيب ابن بلبان: (٨/ ٣٤، رقم ٣٢٤٣)، والبيهقي في «**شعب الإيمان**»: (١٣/ ٢٢٥، رقم ١٠٢٣٢).

والحديث صححه الألباني في «**الصحيحة**»: (٦/ ٧٩٩-٨٠٣، رقم ٢٨٣١)، قال: «اعلم أن المراد من هذا الحديث إنما هو صرف المسلم عن الاهتمام بالبناء وتشييده فوق حاجته، لذلك قال الحافظ -في «**الفتح**»: (١١/ ٩٣)- بعد أن ساق حديث الترجمة وغيره: «وَهَذَا كُله مَحْمُول علىٰ مَا لا تَمَسُّ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ مِمَّا لَا بُدَّ مِنْهُ لِلتَّوَطُّنِ وَمَا يَقِي الْبَرْدَ وَالْحَرَّ»».

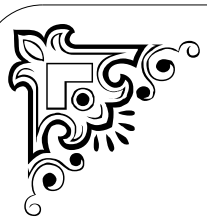

احْرِصُوا عَلَى سَمَاعِ الْعِلْمِ!

نَحْنُ نَسْتَغِلُّ هَذِهِ الْفُرَصَ الَّتِي عَزَفَ النَّاسُ فِيهَا عَنْ سَمَاعِ الْعِلْمِ وَالْإِقْبَالِ عَلَيْهِ، وَالْبَحْثِ عَنْهُ، وَيَسْهَرُونَ اللَّيَالِيَ الطِّوَالَ مَشْدُودِينَ أَمَامَ مَا لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ؛ بَلْ مَا يَضُرُّهُمْ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ.

نَسْتَغِلُّ هَذِهِ الْفُرَصَ لِبَيَانِ بَعْضِ الْأُسُسِ الْعَظِيمَةِ فِي دِينِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ فَهَذَا أَمْرٌ يَلْزَمُنَا، يَنْبَغِي عَلَيْنَا أَنْ نَقُومَ بِهِ، وَلَا عَلَيْنَا اسْتَجَابَ النَّاسُ أَمْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا، لَا يُهِمُّ، هَذَا لَيْسَ فِي الْحُسْبَانِ، وَلَا نَلْتَفِتُ إِلَيْهِ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَيَأْتِي النَّبِيُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ**»(١).

بَعْضُ الْأَنْبِيَاءِ يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَمْ يُجِبْهُمْ وَاحِدٌ مِنْ أَقْوَامِهِمُ الَّذِينَ أُرْسِلُوا إِلَيْهِمْ، وَهَذَا نَبِيٌّ مَعْصُومٌ مُوحًىٰ إِلَيْهِ.

كَانَ النَّبِيُّ ﷺ جَالِسًا وَمَعَهُ أَصْحَابُهُ فِي الْمَسْجِدِ، فَجَاءَ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ، فَأَمَّا أَحَدُهُمْ؛ فَوَجَدَ فُرْجَةً فِي الْحَلْقَةِ فَجَلَسَ فِيهَا، وَأَمَّا الثَّانِي؛ فَجَلَسَ وَرَاءَ الْحَلْقَةِ،

---

(١) أخرجه البخاري: (١١/ ٤٠٥ - ٤٠٦، رقم ٦٥٤١)، ومسلم: (١/ ١٩٩، رقم ٢٢٠)، من حديث: ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

وَأَمَّا الثَّالِثُ؛ فَانْصَرَفَ مُدْبِرًا، فَقَالَ الرَّسُولُ ﷺ: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ عَنِ الثَّلَاثَةِ النَّفَرِ؟ أَمَّا الْأَوَّلُ فَأَوَىٰ إِلَىٰ اللهِ فَآوَاهُ اللهُ، وَأَمَّا الثَّانِي فَاسْتَحْيَا، فَاسْتَحْيَا اللهُ مِنْهُ، وَأَمَّا الثَّالِثُ فَأَعْرَضَ، فَأَعْرَضَ اللهُ عَنْهُ**»(١).

احْرِصْ عَلَىٰ مَا يَنْفَعُكَ، هَذِهِ كَلِمَةُ نَبِيِّكَ: «**احْرِصْ عَلَىٰ مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَلَا تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ؛ فَلَا تَقُلْ: لَوْ كَانَ كَذَا كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَوْ فَعَلْتُ كَذَا لَكَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ؛ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**»(٢).

وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.

---

(١) أخرجه البخاري: (١/ ١٥٦ و٥٦٢، رقم ٦٦ و٤٧٤)، ومسلم: (٤/ ١٧١٣، رقم ٢١٧٦)، من حديث: أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم: (٤/ ٢٠٥٢، رقم ٢٦٦٤)، من حديث: أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

الْمَوْعِظَةُ السَّادِسَةُ:

شُرُوطُ الصَّبْرِ وَالتَّوْبَةِ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

- **أَمَّا بَعْدُ:**

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

- **أَمَّا بَعْدُ:**

فَإِنَّ الْعَبْدَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ لَا يَخْلُو مِنْ أَنْ يَكُونَ فِي طَبَقَةٍ مِنْ طَبَقَاتٍ ثَلَاثٍ(١):

فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي عَافِيَةٍ وَنِعْمَةٍ وَسَتْرٍ؛ فَحَقُّ ذَلِكَ الشُّكْرُ.

وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي ابْتِلَاءٍ وَشِدَّةٍ وَمِحْنَةٍ؛ فَحَقُّ ذَلِكَ الصَّبْرُ.

وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي ذَنْبٍ وَخَطِيئَةٍ؛ فَحَقُّ ذَلِكَ التَّوْبَةُ وَالِاسْتِغْفَارُ.

وَمَقَادِيرُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الَّتِي يُجْرِيهَا عَلَىٰ عِبَادِهِ فِي أَرْضِهِ؛ إِمَّا أَنْ تَكُونَ مُلَائِمَةً لِلْعَبْدِ، وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ غَيْرَ مُلَائِمَةٍ لِلْعَبْدِ، فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يَبْتَلِي بِالْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَيَبْتَلِي اللهُ جَلَّ وَعَلَا بِالنِّعْمَةِ وَالنِّقْمَةِ، وَيَبْتَلِي اللهُ جَلَّ وَعَلَا بِالصِّحَّةِ وَالْمَرَضِ، وَيَبْتَلِي اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بِالْغِنَىٰ وَالْفَقْرِ.

وَلَا يَخْلُو الْعَبْدُ مِنْ أَنْ يَكُونَ فِي طَبَقَةٍ مِنَ الطَّبَقَاتِ الثَّلَاثِ، فَإِذَا كَانَ فِي نِعْمَةٍ مِنَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وَعَطَاءٍ؛ فَيَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَشْكُرَ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ عَلَىٰ مَا آتَاهُ.

وَشُكْرُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لَا يَتَحَقَّقُ إِلَّا بِثَلَاثَةِ أَرْكَانٍ:

بِأَنْ يَعْتَرِفَ بِالنِّعْمَةِ بِالْقَلْبِ بَاطِنًا.

وَأَنْ يَلْهَجَ بِالثَّنَاءِ عَلَىٰ الْمُنْعِمِ بِاللِّسَانِ ظَاهِرًا.

وَأَنْ يُصَرِّفَ النِّعْمَةَ فِي شُكْرِ مَنْ أَنْعَمَ عَلَيْهِ بِهَا فِي طَاعَتِهِ.

---

(١) انظر: «**الوابل الصيب**»: (ص٥-٧).

فَأَمَّا الْقَلْبُ وَاعْتِرَافُ الْقَلْبِ بِالنِّعْمَةِ.. فَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ إِذَا أَنْعَمَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَلَيْهِمْ بِنِعْمَةٍ ظَاهِرَةٍ أَوْ بَاطِنَةٍ؛ اعْتَرَفُوا بِقُلُوبِهِمْ لِلْمُنْعِمِ بِمَا أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ بِهِ، وَكَذَلِكَ مَا يَتَعَلَّقُ بِاللِّسَانِ؛ فَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يُثْنِي عَلَىٰ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إِذَا أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ بِنِعْمَةٍ ظَاهِرَةٍ أَوْ بَاطِنَةٍ.

وَلَكِنَّ الَّذِي يَتَخَلَّفُ هُوَ تَصْرِيفُ النِّعْمَةِ فِي مَرْضَاةِ الَّذِي أَنْعَمَ عَلَىٰ الْعَبْدِ بِهَا، فَالْإِنْسَانُ قَدْ يَشْكُرُ رَبَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَلَىٰ النِّعْمَةِ بِقَلْبِهِ مُعْتَرِفًا بِهَا إِذَا آتَاهُ اللهُ تَعَالَىٰ الْمَالَ.

وَكَذَلِكَ يَلْهَجُ لِسَانُهُ بِالثَّنَاءِ عَلَىٰ اللهِ الَّذِي وَسَّعَ عَلَيْهِ، وَانْتَشَلَهُ مِنَ الْفَقْرِ، فَيُثْنِي عَلَىٰ رَبِّهِ بِاللَّفْظِ ظَاهِرًا؛ وَلَكِنْ عِنْدَ النَّظَرِ إِلَىٰ تَصْرِيفِهِ لِمَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ بِهِ مِنَ الْمَالِ؛ فَقَلَّ أَنْ تَجِدَ مَنْ يُصَرِّفُ مَالَهُ فِي مَرْضَاةِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا.

وَبِذَا لَا يَكُونُ شَاكِرًا؛ لِأَنَّ الشُّكْرَ لَا يَكُونُ شُكْرًا شَرْعِيًّا إِلَّا إِذَا تَوَفَّرَتْ فِيهِ هَذِهِ الثَّلَاثَةُ الْأَرْكَانِ: أَنْ تَعْتَرِفَ بِالنِّعْمَةِ بِالْقَلْبِ بَاطِنًا، وَأَنْ تَلْهَجَ بِلِسَانِكَ بِالثَّنَاءِ عَلَىٰ الْمُنْعِمِ لَفْظًا ظَاهِرًا، وَأَنْ تُصَرِّفَ النِّعْمَةَ فِي مَرْضَاةِ الَّذِي أَنْعَمَ عَلَيْكَ بِهَا وَأَسْدَاهَا إِلَيْكَ.

لَا بُدَّ مِنْ تَحَقُّقِ هَذِهِ الْأَرْكَانِ الثَّلَاثَةِ، فَإِذَا تَخَلَّفَ رُكْنٌ فَلَيْسَ بِشَاكِرٍ، وَهُوَ -حِينَئِذٍ- يُعَرِّضُ النِّعْمَةَ لِلزَّوَالِ؛ لِأَنَّ النِّعْمَةَ صَيْدٌ، وَالشُّكْرَ قَيْدٌ، فَإِذَا اصْطَادَ الْإِنْسَانُ ظَبْيًا -مَثَلًا- وَحَصَّلَهُ عِنْدَهُ، وَلَمْ يُقَيِّدْهُ لَدَيْهِ؛ فَإِنَّهُ سَرْعَانَ مَا يَذْهَبُ عَنْهُ، وَكَذَلِكَ نِعَمُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

فَالْإِنْسَانُ إِذَا أَنْعَمَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَلَيْهِ بِنِعْمَةٍ؛ فَيَنْبَغِي أَنْ يُقَيِّدَ النِّعْمَةَ عِنْدَهُ حَتَّىٰ لَا تَزُولَ عَنْهُ، وَذَلِكَ بِتَحْقِيقِ أَرْكَانِ الشُّكْرِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي مَرَّ ذِكْرُهَا.

فَهَذِهِ هِيَ الطَّبَقَةُ الْأُولَىٰ مِنَ الطَّبَقَاتِ الثَّلَاثِ الَّتِي لَا يَخْلُو الْعَبْدُ أَنْ يَكُونَ فِيهَا أَوْ فِي إِحْدَاهَا.

وَقَدْ يَكُونُ الْعَبْدُ فِي الطَّبَقَةِ الثَّانِيَةِ: فِي بَلَاءٍ وَشِدَّةٍ وَمِحْنَةٍ؛ فَحَقُّ ذَلِكَ الصَّبْرُ، وَالصَّبْرُ لَا يَكُونُ صَبْرًا شَرْعِيًّا إِلَّا إِذَا تَحَقَّقَتْ فِيهِ ثَلَاثَةُ أَرْكَانٍ:

أَنْ يَحْبِسَ الْقَلْبَ عَنْ الِاعْتِرَاضِ عَلَىٰ الْمَقْدُورِ اعْتِرَاضًا بَاطِنًا.

وَأَنْ يُمْسِكَ اللِّسَانَ عَنْ الِاعْتِرَاضِ عَلَىٰ مَقْدُورِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لَفْظًا ظَاهِرًا.

وَأَنْ يَحْبِسَ الْجَوَارِحَ عَنِ الْإِتْيَانِ بِمَا يُغْضِبُ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مِنْ أَمْثَالِ مَا يَفْعَلُهُ بَعْضُ الْجَهَلَةِ؛ مِنْ شَقِّ الْجُيُوبِ، وَلَطْمِ الْخُدُودِ، وَنَتْفِ الشُّعُورِ، وَشَقِّ الثِّيَابِ.. إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مَعْلُومٌ، وَهَذِهِ كُلُّهَا مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ.

فَإِذَا جَاءَ قَدَرٌ غَيْرُ مُوَاتٍ، وَأَرَادَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَنْ يُخْرِجَ عِلْمَهُ فِي عَبْدِهِ مِنْ عِلْمِهِ بِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ السَّابِقِ إِلَىٰ وَاقِعٍ مَشْهُودٍ، بِحَيْثُ إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يَعْلَمُ مَا سَيَكُونُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَكُونَ، وَلَكِنْ لَا يُقِيمُ الْحُجَّةَ عَلَىٰ الْعَبْدِ حَتَّىٰ يَأْتِيَ مِنْهُ فِي عَالَمِ الشُّهُودِ مَا يَأْتِي مِنَ الْخَلْقِ فِي عَالَمِ الشُّهُودِ؛ لِأَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لَا يُحَاسِبُنَا عَلَىٰ حَسَبِ عِلْمِهِ فِينَا، وَإِنَّمَا يُحَاسِبُنَا عَلَىٰ مَا قَدَّمَتْ أَيْدِينَا.

فَاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يَعْلَمُ الْجَاحِدَ مِنَ الشَّاكِرِ، وَيَعْلَمُ الْجَازِعَ الْجَزُوعَ مِنَ الصَّابِرِ، وَيَعْلَمُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الطَّيِّبَ مِنَ الْخَبِيثِ، وَلَكِنَّ هَذَا الْعِلْمَ إِذَا لَمْ يَظْهَرْ

فِي عَالَمِ الشُّهُودِ؛ فَإِنَّ اللهَ لَا يُحَاسِبُ الْعَبْدَ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَأْتِيَ بِهِ الْعَبْدُ؛ لِأَنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا، وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ.

فَيَنْبَغِي عَلَىٰ الْإِنْسَانِ إِذَا مَا أَتَاهُ قَدَرٌ غَيْرُ مُوَاتٍ، غَيْرُ مُلَائِمٍ؛ مِنْ مَرَضٍ، أَوْ فَقْدِ حَبِيبٍ، أَوْ هَمٍّ، أَوْ غَمٍّ، أَوْ كَرْبٍ، أَوْ وَجَدَ فِي وَلَدِهِ مَا يَسُوؤُهُ، أَوْ فَقَدَ بَعْضًا مِنْ مَالِهِ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ الَّتِي لَا تَخْلُو مِنْهَا الْحَيَاةُ؛ لِأَنَّ اللهَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ، وَلَمْ يَخْلُقِ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ النَّاسَ فِي هَذَا الْكَوْكَبِ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُنَعِّمَهُمْ، وَلَكِنْ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ.

فَوَاهِمٌ جِدًّا وَمُخْطِئٌ خَطَأً تَامًّا مَنْ يَظُنُّ أَنَّهُ سَيَتَنَعَّمُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ!!

مَا مِنْ لَذَّةٍ إِلَّا وَلَهَا مَا يُنَغِّصُهَا مَهْمَا كَانَتْ، ثُمَّ هِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ، بَلْ إِنَّهَا تَلْمَعُ فِي أُفُقِ الْحَيَاةِ كَلَمْعِ الْبَرْقِ فِي أَجْوَازِ الْفَضَاءِ، وَيَبْقَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ رَدُّ فِعْلِ الْعَبْدِ عَلَىٰ قَدَرِ اللهِ فِيهِ.

فَإِذَا جَاءَ الْإِنْسَانَ قَدَرٌ غَيْرُ مُوَاتٍ؛ فَيَنْبَغِي عَلَيْهِ أَنْ يُحَقِّقَ أَرْكَانَ الصَّبْرِ الَّتِي مَرَّ ذِكْرُهَا: أَنْ يَحْبِسَ الْقَلْبَ عَنْ الِاعْتِرَاضِ عَلَىٰ الرَّبِّ بَاطِنًا، وَأَنْ يُمْسِكَ اللِّسَانَ عَنِ الْكَلَامِ بِأَمْرٍ يُغْضِبُ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِلَفْظٍ ظَاهِرٍ، وَإِنَّمَا يَنْبَغِي عَلَيْهِ أَنْ يَأْتِيَ بِمَا أَمَرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِهِ عِنْدَ حُلُولِ الْمَكْرُوهِ وَنُزُولِ الْمُصِيبَةِ، فَيَقُولَ: «**إِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي، وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا**».

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**فَإِنَّ اللهَ -تَعَالَىٰ- يُخْلِفُ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا**»(١)؛ أَيْ مِنَ الْمُصِيبَةِ الَّتِي نَزَلَتْ عَلَيْهِ.

وَالصَّبْرُ لَا يَكُونُ صَبْرًا إِلَّا عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَىٰ، فَإِذَا جَاءَ الْإِنْسَانَ مَا يَكْرَهُ، ثُمَّ اعْتَرَضَ بِقَلْبِهِ وَلِسَانِهِ وَجَوَارِحِهِ، ثُمَّ فَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَىٰ سِلْوَانٍ كَصَبْرِ الْبَهَائِمِ؛ لِأَنَّ الْكِرَامَ يَصْبِرُونَ، وَاللِّئَامَ -أَيْضًا- يَصْبِرُونَ.

وَيَنْبَغِي عَلَىٰ الْإِنْسَانِ أَنْ يَصْبِرَ صَبْرَ الْكِرَامِ لَا صَبْرَ اللِّئَامِ(٢)، فَأَمَّا صَبْرُ الْكِرَامِ فَإِنَّهُ يَكُونُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَىٰ؛ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِلْمَرْأَةِ الَّتِي كَانَتْ عِنْدَ الْقَبْرِ تَبْكِي، فَمَرَّ بِهَا فَقَالَ: «**يَا أَمَةَ اللهِ! اتَّقِي اللهَ وَاصْبِرِي**».

وَلَمْ تَكُنْ تَعْرِفُ النَّبِيَّ ﷺ، وَغَشَّىٰ الْحُزْنُ عَلَىٰ عَيْنَيْهَا، فَلَمْ تَرَ دَلَائِلَ النُّبُوَّةِ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَعْرِفْهُ الْإِنْسَانُ تَحْقِيقًا، لَعَلِمَهُ عِنْدَمَا يَرَاهُ؛ لِمَا جَعَلَهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَلَيْهِ مِنْ آثَارِ النُّبُوَّةِ.

فَقَالَتْ: «إِلَيْكَ عَنِّي؛ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَبْ بِمِثْلِ مُصِيبَتِي!»؛ تُرِيدُ أَنَّ الَّذِي تَكُونُ يَدُهُ فِي الْمَاءِ الْبَارِدِ، لَا كَالَّذِي يَكُونُ قَابِضًا عَلَىٰ الْجَمْرِ!!

قَالَتْ: «إِلَيْكَ عَنِّي؛ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَبْ بِمِثْلِ مُصِيبَتِي!».

وَالنَّبِيُّ ﷺ هُوَ أَحْسَنُ النَّاسِ خُلُقًا ﷺ، فَلَمْ يُرَاجِعْهَا، وَمَضَىٰ لِطِيَّتِهِ ﷺ، فَقَالَ لَهَا بَعْضُ مَنْ حَضَرَ: «وَيْحَكِ! إِنَّهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ!!».

---

(١) أخرجه مسلم: (٢/ ٦٣١ - ٦٣٢، رقم ٩١٨)، من حديث: أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها.

(٢) انظر: «**عدة الصابرين**»: (ص٥٢-٥٣).

فَقَامَتْ تَشْتَدُّ فِي أَثَرِهِ ﷺ، فَكَانَ قَدْ دَخَلَ حُجْرَتَهَ.. دَخَلَ بَيْتَهُ؛ فَاسْتَأْذَنَتْ عَلَيْهِ، قَالَتْ: «فَلَمْ أَجِدْ عِنْدَهُ بَوَّابِينَ»؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مَلِكًا، وَإِنَّمَا كَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﷺ.

فَأَذِنَ لَهَا بِالدُّخُولِ، فَلَمَّا دَخَلَتْ قَالَتْ: «يَا رَسُولَ اللهِ! لَمْ أَعْرِفْكَ!»، فَجَاءَتْ تَعْتَذِرُ إِلَيْهِ عَنْ جَوَابِهَا الَّذِي وَاجَهَتْ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ كِفَاحًا: «إِلَيْكَ عَنِّي؛ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَبْ بِمِثْلِ مُصِيبَتِي!».

قَالَتْ: «يَا رَسُولَ اللهِ! لَمْ أَعْرِفْكَ!».

فَقَالَ: «**إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَىٰ**»(١)؛ يَعْنِي: إِذَا جَاءَ أَمْرٌ يَسُوءُ، وَوَقَعَ قَدَرٌ غَيْرُ مُلَائِمٍ وَلَا مُوَاتٍ؛ فَيَنْبَغِي عَلَىٰ الْإِنْسَانِ عِنْدَ تَلَقِّيهِ أَنْ يُظْهِرَ رِضَاهُ عَنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَأَنْ يَكُونَ مُسْتَكِينًا خَاضِعًا لِرَبِّهِ وَمَوْلَاهُ؛ ﴿**ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ**﴾ [البقرة: ١٥٦].

فَيَنْبَغِي أَنْ يُقَابِلَ الْمُصِيبَةَ بِهَذَا الْقَوْلِ الْكَرِيمِ، وَهَذَا الْقَوْلُ الْكَرِيمُ لَمْ يَجْعَلْهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لِأُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ قَبْلَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَالدَّلِيلُ عَلَىٰ ذَلِكَ مَا كَانَ مِنْ حَالِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، فَإِنَّ يَعْقُوبَ عليه السلام لَمَّا أُخْبِرَ بِفَقْدِ يُوسُفَ قَالَ: ﴿**فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ**﴾ [يوسف: ١٨]، وَلَمْ يَقُلْ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ.

---

(١) أخرجه البخاري: (٣/ ١٢٥، رقم ١٢٥٢)، ومسلم: (٢/ ٦٣٧ - ٦٣٨، رقم ٩٢٦)، من حديث: أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه.

وَلَوْ كَانَتْ عِنْدَهُ لَقَالَهَا، فَجَعَلَهَا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ، وَجَعَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قَوْلَهَا بِيَقِينٍ وَإِخْلَاصٍ وَإِقْبَالٍ عَلَىٰ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وَإِخْبَاتٍ.. جَعَلَهَا مُحَوِّلَةً بِقَدَرِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ النِّقْمَةَ إِلَىٰ نِعْمَةٍ، وَالْمِحْنَةَ إِلَىٰ مِنْحَةٍ؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ أُصِيبَ بِمُصِيبَةٍ فَقَالَ: إِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي، وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا! إِلَّا أَخْلَفَ اللهُ -تَعَالَىٰ- لَهُ خَيْرًا مِنْهَا**»(١).

فَإِذَا جَاءَ قَدَرٌ لَا يُلَائِمُ؛ فَيَنْبَغِي عَلَىٰ الْإِنْسَانِ أَلَّا يَعْتَرِضَ بِقَلْبِهِ عَلَىٰ قَدَرِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِيهِ، وَيَنْبَغِي أَنْ يَجْرِيَ لِسَانُهُ بِمَا يُرْضِي اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَأَنْ يَحْبِسَ الْجَوَارِحَ عَنِ الْإِتْيَانِ بِأَمْرٍ يُغْضِبُ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وَلَا يَرْضَاهُ، وَلَا يَرْضَاهُ رَسُولُهُ الْكَرِيمُ ﷺ.

وَعَلَىٰ الْإِنْسَانِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ مَا يَقَعُ لَهُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ إِنَّمَا هُوَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَرَىٰ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ رَدَّ فِعْلِ الْعَبْدِ عَلَىٰ قَدَرِ الرَّبِّ فِيهِ، فَلَيْسَ مَا يَقَعُ بِالْإِنْسَانِ مِمَّا لَا يُلَائِمُهُ مَقْصُودًا لِذَاتِهِ؛ يَعْنِي: إِذَا أَغْنَىٰ اللهُ عَبْدًا فَلَيْسَ ذَلِكَ بِالْقَصْدِ الْأَوَّلِ، وَإِنَّمَا لِيَبْتَلِيَهُ بِحَالِ الْغِنَىٰ، وَكَذَلِكَ إِذَا أَفْقَرَ عَبْدًا فَإِنَّهُ لَا يُفْقِرُهُ لِمُجَرَّدِ أَنَّهُ يُفْقِرُهُ، وَلَكِنْ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَرَىٰ رَدَّ فِعْلِهِ عَلَىٰ قَدَرِ اللهِ فِيهِ فِي تِلْكَ الْحَالِ.

وَكَذَلِكَ الصِّحَّةُ وَالْمَرَضُ، وَكَذَلِكَ الْعَطَاءُ وَالْمَنْعُ، إِلَىٰ آخِرِ مَا يَجْرِي عَلَىٰ الْإِنْسَانِ مِمَّا يَكْرَهُهُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ، فَاللهُ جَلَّ وَعَلَا يُرِيدُ مِنَّا أَنْ نُقَابِلَ قَدَرَهُ فِينَا وَمَا قَدَّرَهُ اللهُ عَلَيْنَا.. أَنْ يَرَىٰ قَبُولَنَا الْحَسَنَ لِمَا قَدَّرَهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِنَا وَلَنَا، وَاللهُ رَبُّ

(١) تقدم تخريجه.

الْعَالَمِينَ أَرْحَمُ بِنَا مِنْ أُمَّهَاتِنَا، وَأَرْحَمُ بِنَا مِنْ أَنْفُسِنَا الَّتِي بَيْنَ جُنُوبِنَا، وَهُوَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ.

فَمَا يَنْزِلُ بِالْعَبْدِ مِنْ شَيْءٍ؛ فَيَنْبَغِي عَلَيْهِ أَنْ يُحَقِّقَ فِيهِ الثَّلَاثَةَ الْأَرْكَانِ الَّتِي لَا يَكُونُ الصَّبْرُ صَبْرًا إِلَّا بِتَحَقُّقِهَا، وَقَدْ قَالَ الْعُلَمَاءُ: «مَنْ لَمْ يَصْبِرْ صَبْرَ الْكِرَامِ؛ سَلَا سُلُوَّ الْبَهَائِمِ!!»(١).

وَمَا أَكْثَرَ مَا تَجِدُ النَّاسَ فِي جَهْلٍ جَاهِلٍ عِنْدَمَا يُصِيبُهُمْ مَا قَدَّرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَلَيْهِمْ مِنَ الْأَقْدَارِ الَّتِي لَا تُلَائِمُهُمْ، فَكَأَنَّمَا وَقَفَتِ الدُّنْيَا وَانْتَهَىٰ الْأَمْرُ عِنْدَ حُدُوثِ مَا أُصِيبُوا بِهِ!!

بَلْ يُصَرِّحُ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ لَنْ يَفْرَحَ بَعْدُ حَتَّىٰ يَأْتِيَهُ قَدَرُهُ، ثُمَّ بَعْدَ حِينٍ يَسْلُو الْإِنْسَانُ مَا كَانَ، وَيُقْبِلُ عَلَىٰ الْحَيَاةِ، وَرُبَّمَا لَمْ يَتَذَكَّرْ مَا كَانَ إِلَّا عَلَىٰ فَتَرَاتٍ مُتَبَاعِدَةٍ قَدْ تَبْلُغُ السَّنَوَاتِ!!

فَمَنْ لَمْ يَصْبِرْ صَبْرَ الْكِرَامِ، سَلَا سُلُوَّ الْبَهَائِمِ.

---

(١) هذا القول مأثور عن علي رضي الله عنه والأشعث بن قيس وابن جريج، انظر: «**مجموع الفتاوىٰ**»: (١٠/ ١٢٢) و(١٧/ ٢٤) و«**زاد المعاد**»: (٤/ ١٧٧-١٧٨).

وقد عقد أبو تمام هذا القول شعرًا كما في «**ديوانه**» مع شرح التبريزي: (٣/ ٢٥٩، البيت ٩ و١٠) في قصيدة يمدح مالك بن طوق، ويعزّيه عن أخيه القاسم، يقول في مطلعها:

(أَمَالِكُ إِنَّ الحُزْنَ أَحْلَامُ نَائِمِ ... وَمَهْمَا يَدُمْ فَالوَجْدُ لَيْسَ بِدَائِمِ)، فقال:

(وَقَالَ عَلِيٌّ فِي التَّعَازِي لِأَشْعَثٍ ... وَخَافَ عَلَيْهِ بَعْضَ تِلْكَ المَآثِمِ)

(أَتَصْبِرُ لِلْبَلْوَىٰ عَزَاءً وَحِسْبَةً ... فَتُؤْجَرَ، أَمْ تَسْلُو سُلُوَّ البَهَائِمِ!)

وَأَمَّا الطَّبَقَةُ الثَّالِثَةُ فَهِيَ طَبَقَةُ الذَّنْبِ، طَبَقَةُ الْمَعْصِيَةِ؛ أَنْ يَعْصِيَ الْإِنْسَانُ رَبَّهُ، وَأَنْ يُجْرِمَ فِي حَقِّ مَوْلَاهُ؛ فَحَقُّ هَذَا التَّوْبَةُ وَالِاسْتِغْفَارُ.

وَمَقَامُ التَّوْبَةِ لَا يُفَارِقُ الْعَبْدَ كَمَقَامِ الْعُبُودِيَّةِ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ**»(١).

وَبَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ مُقْسِمًا مُؤَكِّدًا حَقِيقَةً ظَاهِرَةً مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِصِفَاتِ رَبِّنَا جَلَّوَعَلَا وَبِرَحْمَتِهِ الْغَامِرَةِ وَنِعْمَتِهِ الشَّامِلَةِ؛ يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا فَتَسْتَغْفِرُوا، لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، وَأَتَىٰ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ فَيَغْفِرُ اللهُ -تَعَالَىٰ- لَهُمْ**»(٢)؛ لِأَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هُوَ الْغَفُورُ، وَهُوَ الرَّحِيمُ، وَهُوَ الرَّحْمَنُ الْكَرِيمُ.

وَالنَّبِيُّ ﷺ هُوَ خَيْرُ مَنْ حَقَّقَ الْعُبُودِيَّةَ فِي نَفْسِهِ؛ فَهُوَ الْعَبْدُ حَقًّا، وَإِذَا أُطْلِقَ هَذَا اللَّقَبُ؛ فَإِنَّ أَوَّلَ مَا يَنْصَرِفُ إِلَيْهِ مَا يَتَعَلَّقُ بِحَالِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَدْ كَانَ عَبْدًا لِلهِ حَقًّا وَصِدْقًا، وَحَقَّقَ الْعُبُودِيَّةَ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا.

وَدَلَّنَا النَّبِيُّ ﷺ عَلَىٰ مَا نُحَقِّقُ بِهِ الْعُبُودِيَّةَ عَلَىٰ قَدْرِ الْوُسْعِ وَالطَّاقَةِ.

---

(١) أخرجه الترمذي: (٤/ ٦٥٩، رقم ٢٤٩٩)، وابن ماجه: (٢/ ١٤٢٠، رقم ٤٢٥١)، من حديث: أَنَسٍ رضي الله عنه.

قال الترمذي: «هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ»، والحديث حسنه الألباني في «**صحيح الترغيب والترهيب**»: (٣/ ٢١٦، رقم ٣١٣٩).

(٢) أخرجه مسلم: (٤/ ٢١٠٦، رقم ٢٧٤٩)، من حديث: أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتُوبُ إِلَىٰ اللهِ وَيَسْتَغْفِرُهُ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ(١)، وَيَقُولُ الصَّحَابَةُ رضي الله عنهم: «إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فِي الْمَجْلِسِ الْوَاحِدِ مِائَةَ مَرَّةٍ: «**رَبِّ اغْفِرْ لِي، وَتُبْ عَلَيَّ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**»(٢)، مَعَ أَنَّ اللهَ -تَعَالَىٰ- غَفَرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، وَهُوَ أَكْرَمُ الْخَلْقِ عَلَىٰ اللهِ، وَهُوَ خَلِيلُ اللهِ ﷺ، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَأْتِي بِهَذَا الِاسْتِغْفَارِ وَبِطَلَبِ التَّوْبَةِ مِنَ الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ.

وَكُلُّ ذَلِكَ لِتَحْقِيقِ مَقَامِ الْعُبُودِيَّةِ فِي نَفْسِهِ وَقَلْبِهِ وَرُوحِهِ عَلَىٰ أَتَمِّ مَا تَكُونُ الْعُبُودِيَّةُ لِلهِ الْوَاحِدِ الْأَحَدِ، وَلِيُعَلِّمَنَا؛ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَسْتَغْفِرُ وَيَتُوبُ، فَمَا حَالُنَا نَحْنُ؟! وَمَا شَأْنُنَا نَحْنُ مَعَ مَا نَأْتِي بِهِ مِنَ الذُّنُوبِ وَالْآثَامِ وَالْخَطَايَا؟!!

وَقَدْ شَكَىٰ رَجُلٌ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ ذَرَبَ لِسَانِهِ؛ أَيْ: حِدَّةً فِي قَوْلِهِ، وَانْدِفَاعًا فِي مَنْطِقِهِ، فَاشْتَكَىٰ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، فَدَلَّهُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَىٰ مَا يَنْزِعُ بِهِ الْأَذَىٰ مِنْ

---

(١) أخرج مسلم: (٤/ ٢٠٧٥، رقم ٢٧٠٢)، من حديث: الْأَغَرِّ الْمُزَنِيِّ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَىٰ قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ**».

والحديث بنحوه عند البخاري: (١١/ ١٠١، رقم ٦٣٠٧)، من رواية: أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**وَاللهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي اليَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً**».

(٢) أخرجه أبو داود: (٢/ ٨٥، رقم ١٥١٦)، والترمذي: (٥/ ٤٩٤-٤٩٥، رقم ٣٤٣٤)، وابن ماجه: (٢/ ١٢٥٣، رقم ٣٨١٤)، من حديث: ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما.

قال الترمذي: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ»، والحديث صحح إسناده الألباني في «**صحيح أبي داود**»: (٥/ ٢٤٨، رقم ١٣٥٧).

لِسَانِهِ؛ فَقَالَ: «**أَيْنَ أَنْتَ مِنَ الِاسْتِغْفَارِ؟! إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ مِائَةَ مَرَّةٍ**»(١).

فَدَلَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَىٰ فَضْلِ هَذَا الْأَمْرِ الْكَبِيرِ.

وَاللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ أَخْبَرَنَا أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا اسْتَغْفَرَ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ أَكْرَمَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح: ١٠- ١٢].

فَبَيَّنَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا اسْتَغْفَرَ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ رَجَعَ بِهَذِهِ الْعَطَاءَاتِ كُلِّهَا، فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يَغْفِرُ لَهُ ذَنْبَهُ، وَإِذَا غَفَرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ذَنْبَهُ فَقَدْ رَحِمَهُ، وَإِذَا رَحِمَهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فَقَدْ فَازَ دُنْيَا وَآخِرَةً.

وَمِنْ رَحْمَةِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا.. لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَنَا، وَيَعْلَمُ ضَعْفَنَا، وَيَعْلَمُ مَا نَتَوَرَّطُ فِيهِ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ اجْتِرَاحِ السَّيِّئَاتِ وَالْوُقُوعِ فِي الْمَعْصِيَاتِ.. بَيَّنَ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِنَا: أَنَّهُ لَا يَتَعَاظَمُهُ ذَنْبٌ أَنْ يَغْفِرَهُ، حَتَّىٰ

---

(١) أخرجه ابن ماجه: (٢/ ١٢٥٤، رقم ٣٨١٧)، وأحمد: (٥/ ٣٩٤ و٣٩٦-٣٩٧ و٤٠٢)، والنسائي في «**السنن الكبرىٰ**»: (٩/ ١٦٩-١٧٠)، وابن حبان: (٣/ ٢٠٥، رقم ٩٢٦)، والحاكم: (١/ ٥١٠-٥١١)، من حديث: حُذَيْفَةَ، قَالَ:

كَانَ فِي لِسَانِي ذَرَبٌ عَلَىٰ أَهْلِي لَمْ أَعْدُهُ إِلَىٰ غَيْرِهِ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، [فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، قَدْ خَشِيتُ أَنْ يُدْخِلَنِي لِسَانِي النَّارَ]، فَقَالَ: «أَيْنَ أَنْتَ مِنَ الِاسْتِغْفَارِ يَا حُذَيْفَةُ، إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ كُلَّ يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ».

قال الحاكم: «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ»، وروي عن أنس رضي الله عنه، مرفوعًا، بنحوه.

الْكُفْرُ، فَلَوْ أَنَّ الْإِنْسَانَ خَذَلَهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فَكَفَرَ بِاللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ فَإِنَّ بَابَ التَّوْبَةِ مَفْتُوحٌ، وَإِذَا وَقَعَ الْإِنْسَانُ فِي شِرْكٍ بِاللهِ جَلَّ وَعَلَا فَبَابُ التَّوْبَةِ مَفْتُوحٌ.

وَمَهْمَا أَتَىٰ بِهِ الْإِنْسَانُ مِنْ ذَنْبٍ فَإِنَّ رَحْمَةَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ تَغْمُرُهُ، فَعَلَىٰ الْإِنْسَانِ إِذَا مَا كَانَ فِي هَذِهِ الطَّبَقَةِ فَوَقَعَ فِي ذَنْبٍ أَوْ مَعْصِيَةٍ أَنْ يَتُوبَ إِلَىٰ اللهِ جَلَّ وَعَلَا.

وَالتَّوْبَةُ لَا تَكُونُ تَوْبَةً إِلَّا إِذَا تَوَفَّرَتْ فِيهَا شُرُوطٌ(١):

فَيَنْبَغِي أَنْ يَتُوبَ الْإِنْسَانُ بِإِخْلَاصٍ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا أَنْ يُقْلِعَ عَنْ ذَنْبِهِ وَيَتُوبَ مِنْهُ لِأَجْلِ غَرَضٍ مِنْ أَغْرَاضِ الدُّنْيَا.

فَهَذَا هُوَ الشَّرْطُ الْأَوَّلُ مِنْ شُرُوطِ التَّوْبَةِ إِلَىٰ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ وَهُوَ الْإِخْلَاصُ.

وَأَمَّا الشَّرْطُ الثَّانِي فَهُوَ أَنْ يُقْلِعَ عَنِ الْمَعْصِيَةِ، وَلَيْسَ مَقْبُولًا وَلَا مَنْطِقِيًّا أَنْ يَدَّعِيَ الْإِنْسَانُ أَنَّهُ تَابَ مِنْ ذَنْبٍ هُوَ مُقِيمٌ عَلَيْهِ، بَلْ يَنْبَغِي عَلَيْهِ بَعْدَ أَنْ يُخْلِصَ النِّيَّةَ فِي تَوْبَتِهِ إِلَىٰ اللهِ أَنْ يُقْلِعَ عَنِ الذَّنْبِ.

ثُمَّ يَنْبَغِي عَلَيْهِ أَنْ يَأْتِيَ بِالْأَمْرِ الْبَاطِنِ الَّذِي يَدُلُّ عَلَىٰ صِدْقِهِ فِي تَوْبَتِهِ وَعَلَىٰ إِخْلَاصِهِ فِي نُزُوعِهِ عَنْ ذَنْبِهِ؛ وَهُوَ أَنْ يَنْدَمَ عَلَىٰ مَا فَاتَ.

ثُمَّ يُؤَكِّدُ ذَلِكَ بِالْعَزْمِ عَلَىٰ أَلَّا يَعُودَ.

---

(١) انظر: «**مدارج السالكين**»: (١/ ١٩٩-٢٠٠).

فَلَا بُدَّ مِنَ الْإِخْلَاصِ، وَالْإِقْلَاعِ عَنِ الذَّنْبِ، وَالنَّدَمِ عَلَيْهِ، وَالْعَزْمِ عَلَىٰ عَدَمِ الْإِتْيَانِ بِهِ.

وَلَكِنْ، هُنَاكَ مِنَ الذُّنُوبِ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْعِبَادِ وِبِحُقُوقِ الْخَلْقِ، فَالتَّوْبَةُ لَا تَكُونُ تَوْبَةً -حِينَئِذٍ- إِلَّا بِرَدِّ الْمَظَالِمِ إِلَىٰ أَصْحَابِهَا، فَالْإِنْسَانُ إِذَا مَا ارْتَكَبَ ذَنْبًا يَتَعَلَّقُ بِحَقِّ الْعِبَادِ فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَتُوبَ مِنْهُ إِلَّا بِأَدَاءِ الْحُقُوقِ إِلَىٰ أَرْبَابِهَا، فَإِنْ كَانَتْ مَالًا فَعَلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُ، وَإِنْ كَانَتْ دُورًا أَوْ كَانَتْ أَرْضًا فَعَلَيْهِ أَنْ يُمَكِّنَ مِنْهُ صَاحِبَهُ.

وَأَمَّا إِذَا مَا كَانَتْ غِيبَةً -مَثَلًا- فَهَذَا أَمْرٌ يَتَعَقَّدُ عَلَىٰ نَحْوٍ مِنَ الْأَنْحَاءِ؛ لِأَنَّ الْغِيبَةَ مُتَعَلِّقَةٌ بِحَقِّ الْآخَرِ، وَالْآخَرُ لَا بُدَّ أَنْ يُسَامِحَ فِي حَقِّهِ أَوْ أَنْ يَسْتَوْفِيَ حَقَّهُ، فَإِذَا مَا أَرَدْنَا مِنْهُ أَنْ يُسَامِحَ فِي حَقِّهِ، فَعَلَىٰ الْمُغْتَابِ أَنْ يَذْهَبَ إِلَىٰ مَنِ اغْتَابَهُ، وَأَنْ يَطْلُبَ مِنْهُ أَنْ يَجْعَلَهُ فِي حِلٍّ.

وَلَا يَخْفَىٰ -خَاصَّةً فِي هَذَا الزَّمَانِ- مَا فِي النَّاسِ مِنْ زَعَارَةِ الْخُلُقِ وَضِيقِ الصَّدْرِ وَالْعَقْلِ، فَلَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يَذْهَبَ إِنْسَانٌ إِلَىٰ أَخِيهِ وَيَقُولَ: سَامِحْنِي وَاجْعَلْنِي فِي حِلٍّ؛ لِأَنِّي كُنْتُ قَدْ جَلَسْتُ مَجْلِسًا وَتَكَلَّمْتُ فِي حَقِّكَ بِبَعْضِ الْكَلَامِ.. ثُمَّ يَجِدُ مِنْ هَذَا الَّذِي قَدِ اغْتَابَهُ صَدْرًا فَسِيحًا، وَبَالًا رَائِقًا، وَسَمَاحَةً وَافِدَةً، فَيَقُولُ لَهُ: جَعَلْتُكَ فِي حِلٍّ.. مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْتَعْلِمَهُ عَمَّا قَالَهُ فِي حَقِّهِ!

فَهَاهُنَا أَمْرَانِ؛ إِنْ لَمْ يُعْلِمْهُ فَلَنْ يُسَامِحَهُ، وَإِنْ أَعْلَمَهُ رُبَّمَا أَدَّىٰ الْأَمْرُ إِلَىٰ إِرَاقَةِ الدِّمَاءِ! لِأَنَّهُ يَطْلُبُ مِنْهُ أَنْ يُسَامِحَهُ وَأَنْ يَجْعَلَهُ فِي حِلٍّ، وَالْآخَرُ يَقُولُ: قُلْتَ وَقُلْتَ! وَتَنْشِبُ مَعْرَكَةٌ قَدْ تُؤَدِّي إِلَىٰ الْقَتْلِ وَالْعِيَاذُ بِاللهِ!

فَيَتَوَرَّطُ الْإِنْسَانُ فِي أَمْثَالِ هَذِهِ الْأُمُورِ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا، وَلَكِنَّهُ يُوَرِّطُ نَفْسَهُ بِحَيْثُ إِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَخْرُجَ مِمَّا تَوَرَّطَ فِيهِ.

فَحَقُّ الْغَيْرِ لَا بُدَّ مِنْ أَدَائِهِ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلَوْ بِأَنْ تُعْطِيَهُ مَالًا؛ يَعْنِي: مَنِ اغْتَبْتَهُ، فَذَهَبْتَ إِلَيْهِ لِتَسْتَحِلَّهُ، فَلَمْ يَقْبَلْ إِلَّا بِأَنْ تُعْطِيَهُ مَالًا، فَأَعْطِهِ قَبْلَ أَلَّا يَكُونَ دِرْهَمٌ وَلَا دِينَارٌ؛ وَإِنَّمَا هِيَ الْحَسَنَاتُ وَالسَّيِّئَاتُ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ الْمُخْتَارُ ﷺ، قَالَ: «**أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟**».

قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ.

فَقَالَ: «**إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَىٰ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَىٰ مَا عَلَيْهِ؛ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ**»[1].

فَقَبْلَ أَلَّا يَكُونَ دِرْهَمٌ وَلَا دِينَارٌ، يَنْبَغِي عَلَىٰ الْإِنْسَانِ أَنْ يَتُوبَ إِلَىٰ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَلَا تَتَعَاظَمَنَّ ذَنْبًا؛ فَإِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، حَتَّىٰ لَوْ كَانَتْ شِرْكًا،

---

(١) أخرجه مسلم: (٤/ ١٩٩٧، رقم ٢٥٨١)، من حديث: أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

وَهَذَا فِي حَالِ الْحَيَاةِ.

وَأَمَّا مَنْ مَاتَ بِذُنُوبٍ دُونَ الشِّرْكِ مُصِرًّا عَلَيْهَا وَلَمْ يَتُبْ مِنْهَا فِي حَيَاتِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ، فَهَذَا تَحْتَ الْمَشِيئَةِ؛ إِنْ شَاءَ اللهُ عَذَّبَهُ، وَإِنْ شَاءَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ غَفَرَ لَهُ، وَإِنْ أَدْخَلَهُ النَّارَ، فَإِنَّهُ لَا يُخَلَّدُ فِي النَّارِ؛ لِأَنَّهُ لَا يُخَلَّدُ فِي النَّارِ مَنْ مَعَهُ أَصْلُ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ».

وَأَمَّا إِذَا مَاتَ مُشْرِكًا بِاللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ فَإِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ.

فَعَلَىٰ الْإِنْسَانِ أَنْ يَجْتَهِدَ إِذَا كَانَ فِي هَذِهِ الطَّبَقَةِ، وَمَا يَخْلُو أَحَدٌ مِنْ أَنْ يَكُونَ فِيهَا، فَكُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ، مَا يَخْلُو أَحَدٌ مِنْ ذَنْبٍ وَخَطِيئَةٍ، مَا يَخْلُو أَحَدٌ مِنْ إِثْمٍ وَعَيْبٍ، وَكُلُّنَا كَذَلِكَ مِنْ مُقِلٍّ وَمُسْتَكْثِرٍ.

فَعَلَىٰ الْإِنْسَانِ أَنْ يَتُوبَ إِلَىٰ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَأَنْ يَأْتِيَ بِشُرُوطِ التَّوْبَةِ؛ بِالْإِخْلَاصِ، وَالْإِقْلَاعِ عَنِ الْمَعْصِيَةِ، وَالنَّدَمِ عَلَيْهَا، وَالْعَزْمِ عَلَىٰ عَدَمِ الْمُعَاوَدَةِ، ثُمَّ بِرَدِّ الْحُقُوقِ إِلَىٰ أَرْبَابِهَا.

وَأَنْ تَكُونَ التَّوْبَةُ فِي الْوَقْتِ الَّذِي تُقْبَلُ التَّوْبَةُ فِيهِ، وَالْوَقْتُ الَّذِي تُقْبَلُ التَّوْبَةُ فِيهِ عَامٌّ وَخَاصٌّ؛ فَالْعَامُّ لِعُمُومِ الْخَلْقِ فِي الْأَرْضِ، فَإِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا؛ فَقَدِ انْقَطَعَ أَوَانُ التَّوْبَةِ بِالنِّسْبَةِ لِعُمُومِ الْخَلْقِ فِي

الْأَرْضِ، وَخَاصٌّ بِالنِّسْبَةِ لِكُلِّ إِنْسَانٍ، فَإِذَا بَلَغَتِ الرُّوحُ الْحُلْقُومَ؛ فَقَدِ انْقَطَعَ أَوَانُ التَّوْبَةِ بِالنِّسْبَةِ لِلْمُحْتَضَرِ.

فَعَلَىٰ الْإِنْسَانِ أَنْ يَتُوبَ فِي حَالِ صِحَّتِهِ وَقُدْرَتِهِ، أَوْ حَتَّىٰ فِي حَالِ مَرَضِهِ قَبْلَ أَنْ تُغَرْغِرَ الرُّوحُ فِي حَلْقِهِ، وَقَبْلَ أَنْ تَبْلُغَ الْحُلْقُومَ، وَحِينَئِذٍ لَا تَوْبَةَ لَهُ.

فَهَذِهِ شُرُوطُ التَّوْبَةِ، وَلَا يَتَعَاظَمَنَّ إِنْسَانٌ ذَنْبَهُ؛ فَإِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا.

نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْنَا أَجْمَعِينَ، وَأَنْ يَغْفِرَ لَنَا.

وَصَلَّىٰ اللهُ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.

الْمَوْعِظَةُ السَّابِعَةُ:

سِرُّ السَّعَادَةِ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

- **أَمَّا بَعْدُ:**

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

- **أَمَّا بَعْدُ:**

فَفِي «**الصَّحِيحِ**»(١) **عَنْ عُمَرَ** رضي الله عنه **قَالَ**: بَيْنَا نَحْنُ جلوسٌ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ، لَا يُرَىٰ عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، فَسَلَّمَ ثُمَّ جَلَسَ، فَجَعَلَ رُكْبَتَيْهِ إِلَىٰ رُكْبَتَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَوَضَعَ يَدَيْهِ عَلَىٰ فَخِذَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ! أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ.

فَقَالَ: «**أَنْ تَشْهَدَ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا**».

قَالَ: صَدَقْتَ.

قَالَ عُمَرُ: فَعَجِبْنَا لَهُ، يَسْأَلُهُ ثم يُصَدِّقُهُ!

قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ.

قَالَ: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**».

قَالَ: صَدَقْتَ، فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ.

فقَالَ: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**».

قَالَ: صَدَقْتَ، فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ.

---

(١) «**صحيح مسلم**»: (١/ ٣٦ - ٣٨، رقم ٨).

وحديث جبريل عليه السلام في الصحيحين من رواية: أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، بنحو رواية عمر رضي الله عنه.

قَالَ: «**مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**».

قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا.

قَالَ: «**أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَىٰ الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ**».

قَالَ: ثُمَّ مَضَىٰ، فَلَبِثْنا مَلِيًّا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «تَعْلَمُونَ مَنْ كَانَ يُكَلِّمُنَا؟».

فَقُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

فَقَالَ: «**ذَلِكُمْ جِبْرِيلُ، جَاءَكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ**».

هَذَا الْحَدِيثُ الْعَظِيمُ جَمَعَ فِيهِ النَّبِيُّ ﷺ -بِالْإِجَابَةِ عَنْ هَذِهِ الْأَسْئِلَةِ الَّتِي سَأَلَهُ إِيَّاهَا جِبْرِيلُ عليه السلام- أَمْرَ الْإِسْلَامِ كُلَّهِ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَيْنَمَا هُوَ جَالِسٌ مَعَ أَصْحَابِهِ؛ جَاءَ رَجُلٌ، وَصَفَهُ عُمَرُ رضي الله عنه بِقَوْلِهِ: شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ!

وَهَذَا عَجِيبٌ؛ لِأَنَّهُ مَا دَامَ لَا يَعْرِفُهُ أَحَدٌ فَهُوَ غَرِيبٌ، وَمَا دَامَ غَرِيبًا غَيْرَ مَأْلُوفٍ فِي الْمَكَانِ وَلَا للنَّاسِ، فَمَعْنَىٰ ذَلِكَ أَنَّهُ قَادِمٌ لِتَوِّهِ مِنَ السَّفَرِ، وَإِذَا كَانَ قَادِمًا مِنَ السَّفَرِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَكُونُ شَدِيدَ بَيَاضِ الثِّيَابِ وَلَا شَدِيدَ سَوَادِ الشَّعْرِ؛ لِأَنَّ الْمُسَافِرَ يَتَشَعَّثُ شَعْرُهُ، وَيَتَّسِخُ ثَوْبُهُ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَعْرِضُ لِلْمُسَافِرِ فِي سَفَرِهِ.

قَالَ: وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، فَسَلَّمَ ثُمَّ جَلَسَ، فَجَعَلَ رُكْبَتَيْهِ إِلَىٰ رُكْبَتَيِ النَّبِيِّ ﷺ، وَوَضَعَ يَدَيْهِ عَلَىٰ فَخِذَيْهِ، فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ أَنَّهُ وَضَعَ يَدَيْهِ عَلَىٰ فَخِذَيِ

النَّبِيِّ ﷺ، وَالْأَصْلُ أَنَّهُ وَضَعَ يَدَيْهِ عَلَىٰ فَخِذَيْ نَفْسِهِ، فَهَذِهِ هَيْئَةُ طَالِبِ الْعِلْمِ بَيْنَ يَدَيْ شَيْخِهِ.

جَلَسَ مُتَأَدِّبًا خَاشِعًا يَسْمَعُ كَلَامَ النَّبِيِّ ﷺ، وَيُعَلِّمُ الْمُسْلِمِينَ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عِنْدَ سَمَاعِ كَلَامِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، ثُمَّ شَرَعَ فِي السُّؤَالِ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَنْ تَشْهَدَ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا**»، فَهَذِهِ أَرْكَانُ الْإِسْلَامِ، وَأَرْكَانُ الْإِسْلَامِ خَمْسَةٌ كَمَا بَيَّنَهَا الرَّسُولُ ﷺ فِي هَذَا الْحَدِيثِ.

قَالَ: صَدَقْتَ.

قَالَ عُمَرُ: فَعَجِبْنَا لَهُ، يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ!

لِأَنَّ الْأَصْلَ فِي السَّائِلِ أَنْ يَكُونَ جَاهِلًا بِمَا يَسْأَلُ عَنْهُ، فَإِذَا كَانَ جَاهِلًا بِمَا يَسْأَلُ عَنْهُ، فَإِنَّهُ لَا يُصَدِّقُ -حِينَئِذٍ- الْمُجِيبَ إِذَا أَجَابَهُ؛ لِأَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُصَدِّقَ وَلَا أَنْ يُكَذِّبَ، وَإِنَّمَا يَتَقَبَّلُ مَا أَتَاهُ مِمَّنْ سَأَلَهُ مِنَ الْإِجَابَةِ عَنْ سُؤَالِهِ، فَإِنْ كَانَ ثِقَةً عِنْدَهُ، فَإِنَّهُ يَقْبَلُ كَلَامَهُ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ يَسْتَرِيبُ وَيَشُكُّ فِي كَلَامِهِ.

النَّبِيُّ ﷺ لَمَّا أَجَابَهُ، قَالَ لَهُ: صَدَقْتَ.

قَالَ عُمَرُ: فَعَجِبْنَا لَهُ، يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ!

ثُمَّ سَأَلَهُ عَنِ الْإِيمَانِ، فَقَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ.

فَقَالَ: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**».

هَذِهِ أَرْكَانُ الْإِيمَانِ، وَهِيَ سِتَّةُ أَرْكَانٍ؛ فَأَرْكَانُ الْإِسْلَامِ خَمْسَةٌ، وَأَرْكَانُ الْإِيمَانِ سِتَّةٌ، كَمَا بَيَّنَ الرَّسُولُ ﷺ.

وَإِذَا نَظَرْتَ فِي أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ وَفِي أَرْكَانِ الْإِيمَانِ؛ وَجَدْتَ أَنَّ أَرْكَانَ الْإِسْلَامِ الَّتِي ذَكَرَهَا النَّبِيُّ ﷺ إِنَّمَا هِيَ لِلْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ: «**أَنْ تَشْهَدَ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا**».

فَهَذِهِ كُلُّهَا أَعْمَالٌ ظَاهِرَةٌ تَتَعَلَّقُ بِالْبَدَنِ ظَاهِرًا.

وَأَمَّا الْإِيمَانُ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**».

وَهَذِهِ الْأَرْكَانُ السِّتَّةُ مُتَعَلِّقَةٌ بِالْقَلْبِ.. مُتَعَلِّقَةٌ بِالْبَاطِنِ.

الْعُلَمَاءُ يَقُولُونَ: إِذَا ذُكِرَ (**الْإِسْلَامُ**) وَذُكِرَ مَعَهُ (**الْإِيمَانُ**)؛ صَارَ الْإِسْلَامُ **لِلْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ**، وَصَارَ الْإِيمَانُ **لِلْأَعْمَالِ الْبَاطِنَةِ**، وَأَمَّا إِذَا ذُكِرَ الْإِسْلَامُ وَحْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُذْكَرَ الْإِيمَانُ مَعَهُ؛ دَخَلَ الْإِيمَانُ مَعَ الْإِسْلَامِ، وَكَذَلِكَ إِذَا ذُكِرَ الْإِيمَانُ وَحْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُذْكَرَ الْإِسْلَامُ مَعَهُ؛ دَخَلَ الْإِسْلَامُ مَعَ الْإِيمَانِ.

فَهَذَانِ اللَّفْظَانِ: (**الْإِسْلَامُ وَالْإِيمَانُ**).. إِذَا اجْتَمَعَا افْتَرَقَا، وَإِذَا افْتَرَقَا اجْتَمَعَا، إِذَا اجْتَمَعَا مَعًا صَارَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مَعْنًىٰ يَخُصُّهُ وَيَخْتَصُّ بِهِ، فَإِذَا قُلْتَ: الْإِسْلَامُ وَالْإِيمَانُ؛ صَارَ الْإِسْلَامُ لِلْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ، وَصَارَ الْإِيمَانُ لِلْأَعْمَالِ الْبَاطِنَةِ، وَإِذَا مَا افْتَرَقَا اجْتَمَعَا؛ إِذَا ذَكَرْتَ الْإِسْلَامَ وَحْدَهُ دَخَلَ الْإِيمَانُ فِيهِ، وَإِذَا ذَكَرْتَ الْإِيمَانَ وَحْدَهُ دَخَلَ الْإِسْلَامُ فِيهِ.

فَالنَّبِيُّ ﷺ ذَكَرَ أَرْكَانَ الْإِسْلَامِ الْخَمْسَةَ، وَبَدَأَ بِالشَّهَادَتَيْنِ؛ «**أَنْ تَشْهَدَ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»، وَمَعْنَىٰ ذَلِكَ: أَنَّكَ يَنْبَغِي عَلَيْكَ أَنْ تُقِرَّ إِقْرَارًا جَازِمًا لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَا مِرْيَةَ تَعْتَرِيهِ، أَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هُوَ الْإِلَهُ الْحَقُّ، وَهُوَ الْمَعْبُودُ وَحْدَهُ مِنْ دُونِ جَمِيعِ مَا يُعْبَدُ مِنْ أَصْنَافِ الْخَلْقِ.

«**أَنْ تَشْهَدَ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»، فَـ «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**» مَعْنَاهَا: لَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إِلَّا اللهُ، فَكُلُّ مَعْبُودٍ دُونَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.. وَكُلُّ مَعْبُودٍ سِوَاهُ، فَهُوَ بَاطِلٌ، وَعِبَادَتُهُ مَرْدُودَةٌ عَلَىٰ عَابِدِهِ، فَلَا يُعْبَدُ إِلَّا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَحْدَهُ.

الْمَعْبُودَاتُ كَثِيرَةٌ؛ لِأَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَقُولُ: مَعْنَىٰ «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»؛ أَيْ: لَا إِلَهَ مَوْجُودٌ إِلَّا اللهُ! الْآلِهَةُ الْمَوْجُودَةُ كَثِيرَةٌ، حَتَّىٰ فِي عَصْرِنَا هَذَا، فِي الْهِنْدِ يَعْبُدُونَ الْأَبْقَارَ، فِي أَفْرِيقِيَّةَ يَعْبُدُونَ الْأَشْجَارَ وَالْأَحْجَارَ، وَهُنَالِكَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ الْكَوَاكِبَ، وَهُنَالِكَ مَنْ يَعْبُدُ الْبَشَرَ كَعِيسَىٰ وَالْعُزَيْرِ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَعْبُودَاتِ؛ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَمِنَ الْإِنْسِ، بَلْ وَمِنَ الْجِنِّ!! يَعْبُدُونَ الْجِنَّ مِنْ دُونِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ يَذْبَحُونَ لَهُمْ، وَيُقَرِّبُونَ لَهُمُ الْقَرَابِينَ، وَيَخَافُونَ مِنْهُمْ خَوْفًا لَا

يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ إِلَّا مِنَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، كَمَا يَحْدُثُ كَثِيرًا إِذَا اشْتَرَىٰ الْمَرْءُ بَيْتًا وَأَرَادَ أَنْ يَصْرِفَ الْجِنَّ مِنْهُ؛ فَإِنَّهُ يَعْتَادُ فِي كُلِّ عَامٍ فِي وَقْتِ شِرَاءِ الْبَيْتِ أَنْ يَذْبَحَ ذَبِيحَةً لِلْجِنِّ، الذَّبْحُ لِغَيْرِ اللهِ شِرْكٌ يُخْرِجُ مِنَ الْمِلَّةِ.

فَالنَّبِيُّ ﷺ ذَكَرَ أَوَّلَ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ: «**الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ**»، الَّتِي يَدْخُلُ بِهَا الْكَافِرُ دِينَ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمِ، فَالْكَافِرُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَدْخُلَ دِينَ الْإِسْلَامِ يَنْبَغِي عَلَيْهِ أَنْ يَشْهَدَ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

وَهَذِهِ الْكَلِمَةُ الْعَظِيمَةُ لَهَا نَوَاقِضُ، إِذَا أَتَىٰ الْإِنْسَانُ بِنَاقِضٍ مِنْ نَوَاقِضِهَا خَرَجَ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمِ.

فَهَذِهِ الْكَلِمَةُ الْعَظِيمَةُ «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**» لِأَجْلِهَا خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، مِنْ أَجْلِهَا أَرْسَلَ اللهُ الرُّسُلَ.

وَمِنْ أَجْلِ «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**» أَنْزَلَ اللهُ الْكُتُبَ، مِنْ أَجْلِ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» قَامَتِ الْمَعْرَكَةُ بَيْنَ أَتْبَاعِ الْمُرْسَلِينَ وَأَتْبَاعِ الشَّيَاطِينِ، مِنْ أَجْلِ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» يُقِيمُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ السَّاعَةَ، وَيَحْشُرُ الْخَلْقَ، وَيَنْصِبُ الْمَوَازِينَ، وَتَتَطَايَرُ الصُّحُفُ.

مِنْ أَجْلِ «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**» خَلَقَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ.

فَهَذِهِ الْكَلِمَةُ الْعَظِيمَةُ هِيَ سِرُّ السَّعَادَةِ، وَمَنْ حَقَّقَهَا تَحْقِيقًا صَحِيحًا حَرَّمَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بَدَنَهُ عَلَىٰ النَّارِ، وَأَمَّا مَنْ لَمْ يَأْتِ بِهَا عَلَىٰ وَجْهِهَا، وَصَادَمَهَا فِي أَصْلِهَا، فَإِنَّهُ يَكُونُ خَارِجًا مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمِ، وَإِذَا أَتَىٰ بِمَا يُنَاقِضُ كَمَالَهَا فَإِنَّهُ يَكُونُ فِيهِ مِنَ الشِّرْكِ بِحَسَبِ مَا أَتَىٰ بِهِ.

فَعَلَىٰ الْإِنْسَانِ أَنْ يُرَاعِيَ هَذَا الْأَصْلَ الْعَظِيمَ، فَهَذِهِ الْكَلِمَةُ الْعَظِيمَةُ بِهَا يَدْخُلُ الْإِنْسَانُ دِينَ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمِ: «**أَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»؛ أَيْ: لَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إِلَّا اللهُ، وَمَا دَامَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، فَيَنْبَغِي أَنْ تُصْرَفَ الْعِبَادَاتُ كُلُّهَا -مِنْ ظَاهِرٍ وَبَاطِنٍ- لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَحْدَهُ.

«وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ»؛ وَمَعْنَىٰ ذَلِكَ: أَنْ تَعْتَرِفَ بِصِدْقِهِ بِمَا أَتَىٰ بِهِ، وَأَنْ تَتَّبِعَهُ فِيمَا أَمَرَ بِهِ، وَأَنْ تَنْزَجِرَ عَمَّا عَنْهُ زَجَرَ، وَأَلَّا تَعْبُدَ اللهَ إِلَّا بِمَا شَرَعَ، فَهَذَا مَعْنَىٰ أَنْ تَشْهَدَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ﷺ.

وَكُلُّنَا يَنْبَغِي أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ الشَّهَادَتَيْنِ لَا تَنْفَصِلُ إِحْدَاهُمَا عَنِ الْأُخْرَىٰ؛ يَعْنِي: لَوْ أَنَّ إِنْسَانًا قَالَ إِنَّهُ يَشْهَدُ أَنْ «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»، وَلَمْ يُؤْمِنْ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ؛ فَإِنَّهُ لَا يَكُونُ مُسْلِمًا، وَلَوْ أَنَّ إِنْسَانًا نَقَضَ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» وَهُوَ يَشْهَدُ أَنَّ «**مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ**»؛ فَإِنَّهُ لَا يَكُونُ مُسْلِمًا، حَتَّىٰ يَجْمَعَ الشَّهَادَتَيْنِ.

فَالْإِنْسَانُ لَا يَكُونُ مُسْلِمًا إِلَّا إِذَا حَقَّقَ شَهَادَةَ التَّوْحِيدِ، وَجَرَّدَ الْعِبَادَةَ لِلهِ الْعَزِيزِ الْمَجِيدِ، وَحَقَّقَ -أَيْضًا- شَهَادَةَ أَنَّ «مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ»، فَحَقَّقَ الِاتِّبَاعَ لِلْمَعْصُومِ ﷺ.

«**أَنْ تَشْهَدَ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ**»، وَالنَّبِيُّ ﷺ عَبَّرَ بِمَا عَبَّرَ الْقُرْآنُ بِهِ، فَقَالَ: «**وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ**»، وَإِقَامَةُ الصَّلَاةِ شَيْءٌ فَوْقَ الْإِتْيَانِ بِهَا؛ لِأَنَّ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي الصَّفِّ فِي الصَّلَاةِ، فِي فَرْضٍ وَاحِدٍ، فِي مَسْجِدٍ وَاحِدٍ، وَرَاءَ إِمَامٍ وَاحِدٍ، يَرْكَعُونَ مَعًا، وَيَسْجُدُونَ مَعًا، وَيَقُومُونَ وَيَقْعُدُونَ،

وَيَخْرُجُونَ مِنَ الصَّلَاةِ مَعًا، بَعْدَ أَنْ دَخَلُوهَا مَعًا، وَبَيْنَ صَلَاةِ أَحَدِهِمْ وَالْآخَرِ أَبْعَدُ مِمَّا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَرَجُلٌ جَمَعَ قَلْبَهُ عَلَىٰ رَبِّهِ، وَوَقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ خَاشِعًا بِكُلِّيَّتِهِ، مُقْبِلًا عَلَىٰ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَآخَرُ يَهِيمُ قَلْبُهُ فِي أَوْدِيَةِ الظُّنُونِ، وَلَا يَدْرِي مَا يَأْتِي بِهِ مِنْ أَمْرِ الصَّلَاةِ.

فَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «**وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ**»، وَالزَّكَاةُ حَقُّ الْمَالِ، فَيَنْبَغِي عَلَىٰ الْإِنْسَانِ أَنْ يَعْلَمَ كَيْفَ يُؤَدِّي الزَّكَاةَ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِمَالِهِ، فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِمَوَاشِيهِ، فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِغَلَّةِ أَرْضِهِ، فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِعُرُوضِ تِجَارَتِهِ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الزَّكَوَاتِ.

فَعَلَىٰ الْإِنْسَانِ دَائِمًا أَنْ يَسْأَلَ عَنِ الدِّينِ، وَأَنْ يَعْرِفَ مَا طَلَبَهُ مِنْهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَأَنْ يَجْتَهِدَ فِي اتِّبَاعِ النَّبِيِّ الْأَمِينِ ﷺ.

النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «**وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا**».

وَأَمَّا الْإِيمَانُ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَدَأَ أَرْكَانَهُ بِالْإِيمَانِ بِاللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، **وَالْإِيمَانُ بِاللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لَا بُدَّ فِيهِ مِنْ أَرْبَعَةِ أَرْكَانٍ:**

* أَنْ تُؤْمِنَ بِوُجُودِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

* وَأَنْ تُؤْمِنَ بِرُبُوبِيَّتِهِ.

* وَأَنْ تُؤْمِنَ بِأُلُوهِيَّتِهِ.

* وَأَنْ تُؤْمِنَ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ.

وَأَمَّا وُجُودُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فَقَدْ جَعَلَهُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ حَقِيقَةً مَغْرُوزَةً فِي قَلْبِ الْمُسْلِمِ، فِي قَلْبِ الْعَبْدِ، فَكُلُّ إِنْسَانٍ فِي ضَمِيرِهِ أَنَّ اللهَ ﷻ مَوْجُودٌ، صَحِيحٌ أَنَّهُ أَحْيَانًا يَخْرُجُ بَعْضُ الْمُلْحِدِينَ، كَمَا هُوَ الشَّأْنُ فِي هَذَا الزَّمَانِ، فَقَدِ انْتَشَرَ فِيهِ الْإِلْحَادُ، أَقْوَامٌ -وَأَكْثَرُهُمْ مِنَ الشَّبَابِ الضَّالِّ الَّذِي لَا انْتِمَاءَ عِنْدَهُ- يُنْكِرُونَ وُجُودَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَيَدَّعُونَ أَنَّ الطَّبِيعَةَ هِيَ الْخَالِقَةُ، وَأَنَّ الْكَوْنَ وُجِدَ بِالْمُصَادَفَةِ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ.

النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ**»؛ وَمَعْنَىٰ ذَلِكَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِوُجُودِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأَنْ تُؤْمِنَ بِرُبُوبِيَّتِهِ؛ بِمَعْنَىٰ: انْفِرَادِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ بِالْخَلْقِ، وَانْفِرَادِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ بِالرِّزْقِ، وَانْفِرَادِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ بِالتَّدْبِيرِ، وَانْفِرَادِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ بِالْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ، فَلَا يُشَارِكُ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي ذَلِكَ أَحَدٌ.

وَهَذَا الْأَمْرُ -أَعْنِي تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ- كَانَ مَوْجُودًا حَتَّىٰ عِنْدَ الْكَافِرِينَ، فَإِنَّ أَبَا جَهْلٍ لَمْ يَدَّعِ أَنَّ هُبَلَ وَلَا أَنَّ اللَّاتَ وَلَا أَنَّ مَنَاةَ خَلَقُوا شَيْئًا مِنْ دُونِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، بَلْ كَانُوا يُقِرُّونَ بِأَنَّ هَذِهِ الْأَصْنَامَ الَّتِي يَعْبُدُونَ؛ خَلَقَهَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، بَلْ إِنَّهُمْ كَانُوا يُقِرُّونَ أَنَّهُمْ خَلَقَهُمُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ؛ ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ**﴾ [الزمر: ٣٨].

فَيُقِرُّونَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَلَكِنْ كَانُوا مُشْرِكِينَ، قَاتَلَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ، وَاسْتَحَلَّ دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ وَأَرْضَهُمْ وَدُورَهُمْ؛ لِمَاذَا؟

لِمَاذَا اسْتَحَلَّ ذَلِكَ؟

لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَعَاهُمْ إِلَىٰ إِفْرَادِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ بِالْعِبَادَةِ وَحْدَهُ، فَاللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُصْرَفَ لِأَحَدٍ شَيْءٌ مِمَّا هُوَ حَقٌّ لَهُ؛ يَعْنِي: مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَاتِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ.

وَقَدْ كَانَ الْمُشْرِكُونَ عَلَىٰ عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ يُحِبُّونَ اللهَ، وَيُحِبُّونَ مَعَ اللهِ سِوَاهُ، وَالْحُبُّ مَعَ اللهِ شِرْكٌ بِاللهِ مُخْرِجٌ مِنَ الْمِلَّةِ، يَنْبَغِي عَلَيْكَ أَنْ تُحِبَّ فِي اللهِ، وَأَنْ تُحِبَّ لِلهِ، لَا أَنْ تُحِبَّ مَعَ اللهِ، فَالْمُشْرِكُونَ كَانُوا يُحِبُّونَ مَعَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَكَانُوا يُحِبُّونَ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ، وَكَانُوا يَفْعَلُونَ بَعْضَ الْخَيْرَاتِ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَحُجُّونَ.. الْمُشْرِكُونَ الْكَافِرُونَ كَانُوا يَحُجُّونَ، وَكَانُوا يَطُوفُونَ حَوْلَ الْبَيْتِ، كَمَا فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»[1] يُلَبُّونَ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ وَهُمْ يَقُولُونَ: «لَبَّيْكَ اللهم لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ، مَلَكْتَهُ وَمَا مَلَكَ!!».

فَهَؤُلَاءِ يُلَبُّونَ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وَيَجْعَلُونَ مَعَهُ شُرَكَاءَ، لِمَاذَا جَعَلُوا مَعَ اللهِ شُرَكَاءَ؟

الْمُشْرِكُونَ قَالُوا: إِنَّ هَؤُلَاءِ الشُّرَكَاءَ لَمْ يَخْلُقُوا شَيْئًا، وَهُمْ لَا يَرْزُقُونَ أَحَدًا، وَلَا يُدَبِّرُونَ أَمْرًا، وَلَا يُحْيُونَ، وَلَا يُمِيتُونَ، وَأَنَّهُمْ مَخْلُوقُونَ مَرْبُوبُونَ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَأَيْنَ كَانَ شِرْكُهُمْ إِذَنْ؟!!

---

(١) «صحيح مسلم»: (٢/ ٨٤٣، رقم ١١٨٥)، من حديث: ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَقُولُونَ: لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، قَالَ: فَيَقُولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَيْلَكُمْ! قَدْ قَدْ**»، فَيَقُولُونَ: إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ، تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ. يَقُولُونَ هَذَا وَهُمْ يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ.

كَانُوا يَتَّخِذُونَ تِلْكَ الْأَصْنَامَ، لَا مِنْ أَجْلِ أَنَّهَا تُحْيِيْ أَوْ تُمِيتُ، وَلَا مِنْ أَجْلِ أَنَّهَا تَخْلُقُ أَوْ تَرْزُقُ، وَإِنَّمَا كَانُوا يَقُولُونَ: هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ، فَهَذَا شِرْكُهُمْ، يَتَّخِذُونَ تِلْكَ الْأَصْنَامَ شُفَعَاءَ عِنْدَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، يَقُولُونَ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

يَقُولُونَ: هَذِهِ الْأَصْنَامُ، هَذِهِ الصُّوَرُ، هَذِهِ الْأَحْجَارُ، هَذِهِ الْأَشْجَارُ إِنَّمَا هِيَ تُقَرِّبُنَا إِلَىٰ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، مَا كَانَ مِنْهَا عَلَىٰ صُوَرِ ذَوَاتِ الْعُقُولِ كَالْمَلَائِكَةِ وَالْإِنْسِ، فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ: هَذِهِ الْأَصْنَامُ لِأَقْوَامٍ صَالِحِينَ، وَنَحْنُ نَتَقَرَّبُ بِصَلَاحِهِمْ إِلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

هَذَا هُوَ شِرْكُهُمْ، وَيَنْبَغِي أَنْ يُفْهَمَ هَذَا جَيِّدًا؛ لِأَنَّهُ قَدْ يَقَعُ الْمُسْلِمُ فِي مِثْلِ هَذَا الشِّرْكِ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُ، فَيَقُولُ: فُلَانٌ مِنَ الصَّالِحِينَ أَنَا لَا أَعْبُدُهُ، أَعْلَمُ أَنَّهُ مَخْلُوقٌ، وَأَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَخْلُقُ، وَأَنَّهُ لَا يَرْزُقُ، وَأَنَّهُ لَا يُحْيِيْ، وَأَنَّهُ لَا يُمِيتُ، وَلَكِنْ هُوَ مِنَ الصَّالِحِينَ، فَإِذَا ذَهَبْتُ إِلَىٰ قَبْرِهِ فَهُوَ يُوَصِّلُنِي إِلَىٰ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ!!

هَذَا مَا فَعَلَهُ الْمُشْرِكُونَ، كَانُوا يَذْهَبُونَ إِلَىٰ أَصْنَامِهِمْ يَذْبَحُونَ عِنْدَهَا، وَهُمْ يُقِرُّونَ بِأَنَّ هَذِهِ الْأَصْنَامَ مَخْلُوقَةٌ لِلهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، هِيَ مَخْلُوقَةٌ غَيْرُ خَالِقَةٍ، وَأَنَّهَا لَا تُحْيِي وَلَا تُمِيتُ، وَأَنَّهَا لَا تَرْزُقُ وَلَا تُدَبِّرُ أَمْرًا، بَلْ إِنَّهَا مَرْبُوبَةٌ مُسَخَّرَةٌ، وَمَعَ ذَلِكَ خَرَجُوا مِنَ الْمِلَّةِ بِهَذَا الْأَمْرِ الْكَبِيرِ، وَاتِّخَاذِ الْأَصْنَامِ وَالْمَعْبُودَاتِ شُفَعَاءَ عِنْدَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ تُقَرِّبُهُمْ إِلَىٰ اللهِ زُلْفَىٰ.

يَنْبَغِي عَلَيْنَا أَنْ نَعْرِفَ التَّوْحِيدَ مَعْرِفَةً دَقِيقَةً؛ لِأَنَّ هَذَا هُوَ الَّذِي وَقَعَتْ فِيهِ الْخُصُومَةُ، الْخُصُومَةُ بَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَبَيْنَ الْمُشْرِكِينَ الْكَافِرِينَ كَانَتْ فِي أَيِّ شَيْءٍ؟

هَلْ دَعَاهُمْ إِلَىٰ إِثْبَاتِ وُجُودِ اللهِ وَأَنْكَرُوا؟

هَلْ قَالُوا: إِنَّ هَذَا الْكَوْنَ لَمْ يَخْلُقْهُ إِلَهٌ، خُلِقَ بِالصُّدْفَةِ؟!!

هَلْ قَالُوا: إِنَّهُ لَا خَالِقَ لِلْوُجُودِ، وَلَا خَالِقَ لِلْكَوْنِ؟

لَمْ يَقُولُوا ذَلِكَ، بَلْ قَالُوا عَكْسَهُ؛ قَالُوا: إِنَّ هَذَا الْكَوْنَ مَخْلُوقٌ لِلهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، بِنَصِّ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ؛ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧].

فَهُمْ يُقِرُّونَ بِأَنَّهُمْ مَخْلُوقُونَ لِلهِ، وَأَنَّ أَصْنَامَهُمْ مَخْلُوقَةٌ لِلهِ، وَأَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مَخْلُوقَةٌ لِلهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ فَأَيْنَ هُوَ مَوْطِنُ الْخُصُومَةِ إِذَنْ؟!!

لِمَاذَا قَاتَلَهُمُ الرَّسُولُ ﷺ؟

لِمَاذَا اسْتَبَاحَ دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَرْضَهُمْ؟

لِمَاذَا وَهُمْ يُقِرُّونَ بِأَنَّ الْخَالِقَ مَوْجُودٌ، وَأَنَّ اللهَ هُوَ الَّذِي خَلَقَهُمْ وَخَلَقَ أَصْنَامَهُمْ؟

لِأَنَّهُمْ يَصْرِفُونَ الْعِبَادَةَ لِلهِ وَلِغَيْرِ اللهِ، فَكَانُوا بِذَلِكَ كَافِرِينَ؛ لِأَنَّهُمْ عَبَدُوا مَعَ اللهِ غَيْرَهُ عِبَادَةً ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً، فَكَانُوا يُقَدِّمُونَ الْقَرَابِينَ لِغَيْرِ اللهِ

رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّهَا تُقَرِّبُهُمْ عِنْدَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأَنَّهَا شُفَعَاءُ وَوَسَائِطُ لَهُمْ عِنْدَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، هَذَا مَوْطِنُ الْخُصُومَةِ.

وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ وَاضِحًا فِي نَفْسِ الْمُسْلِمِ؛ لِأَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَظُنُّ أَنَّ مَوْطِنَ الْخُصُومَةِ مَعَ النَّبِيِّ الْأَمِينِ ﷺ إِنَّمَا كَانَ فِي إِثْبَاتِ وُجُودِ اللهِ، أَوْ فِي إِثْبَاتِ أَنَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، أَوْ فِي إِثْبَاتِ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي يُدَبِّرُ الْأَمْرَ، هَذَا كُلُّهُ أَقَرَّ بِهِ الْمُشْرِكُونَ الْكَافِرُونَ، وَإِنَّمَا كَانَ مَوْطِنُ النِّزَاعِ وَالْخُصُومَةِ فِي أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ اللهَ -كَمَا كَانُوا يَحُجُّونَ طَائِفِينَ حَوْلَ الْبَيْتِ- وَيَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ، «لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ، خَلَقْتَهُ وَمَلَكْتَهُ وَمَا مَلَكَ»؛ فَهَذَا مَوْطِنُ الْخُصُومَةِ.

فَيَنْبَغِي عَلَيْنَا أَنْ نَجْتَهِدَ فِي تَحْدِيدِ هَذَا الْمَوْطِنِ وَتَحْرِيرِهِ تَحْدِيدًا وَتَحْرِيرًا تَامَّيْنِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مُشْرِكًا مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُ؛ يَذْبَحُ لِغَيْرِ اللهِ، يَتَوَسَّلُ بِغَيْرِ اللهِ، يَعْتَقِدُ فِي غَيْرِ اللهِ، كَمَا يَفْعَلُ كَثِيرٌ مِنَ الْجُهَّالِ، يَعْتَقِدُونَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَمْسُوسِينَ، فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَمْرُورِينَ، بَلْ يُثْبِتُ لَهُ تَصَرُّفًا، فَيَكُونُ فِي اللَّيْلِ عَاكِفًا عَلَىٰ الْمَعْصِيَةِ، عَلَىٰ الْمَعْصِيَةِ الْكَبِيرَةِ، وَاللهُ ﷻ يَطَّلِعُ عَلَيْهِ، وَاللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ جَعَلَ نَاصِيَتَهُ فِي يَدِهِ، وَلَكِنَّهُ لَا يَخْشَىٰ اللهَ، فَإِذَا مَا أَصْبَحَ وَمَرَّ عَلَىٰ رَجُلٍ مَمْرُورٍ قَدِ انْدَلَقَ وَانْدَفَقَ مُخَاطُهُ عَلَىٰ لِحْيَتِهِ، يَجْلِسُ فِي زَاوِيَةٍ بِشَارِعٍ، فَإِذَا مَرَّ بِهِ خَافَهُ خَوْفَ السِّرِّ، يَقُولُ: إِنَّهُ يَطَّلِعُ عَلَىٰ مَا فِي نَفْسِي! هُوَ سَيَعْلَمُ مَا فَعَلْتُ بِالْأَمْسِ مِنَ الْمَعَاصِي! فَيَخَافُ أَنْ يَمُرَّ بِهِ!!

وَبَعْضُهُمْ يُخَالِفُ الطَّرِيقَ، يَقُولُ: لِأَنَّنِي لَوْ مَرَرْتُ بِهِ لَاطَّلَعَ عَلَيَّ، وَلَكَشَفَ سِتْرِي، وَلَفَضَحَ أَمْرِي! وَحِينَئِذٍ يَبْعُدُ عَنْهُ؛ لِأَنَّهُ يَخَافُهُ خَوْفَ السِّرِّ، وَلَا يَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ الَّذِي نَاصِيَتُهُ بِيَدِهِ، هَذَا مِنْ أَعْظَمِ الشِّرْكِ، مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَسْجُدْ لِصَنَمٍ، مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَذْبَحْ لِأَحَدٍ، مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ بِأَمْرٍ مِنَ الشِّرْكِ الظَّاهِرِ، وَلَكِنِ الْكُفْرُ يَكُونُ بِالِاعْتِقَادِ، وَيَكُونُ بِالْقَوْلِ، وَيَكُونُ بِالْفِعْلِ.

فَعَلَىٰ الْإِنْسَانِ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي مَعْرِفَةِ التَّوْحِيدِ، هُوَ أَهَمُّ شَيْءٍ؛ لِأَنَّهُ لِأَجْلِهِ خَلَقَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ الْخَلْقَ؛ يَقُولُ اللهُ جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

قَالَ الْعُلَمَاءُ: «أَيْ: إِلَّا لِيُوَحِّدُونِي»(١)؛ بِصَرْفِ الْعِبَادَةِ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ لِأَنَّ هَذَا هُوَ الَّذِي وَقَعَ فِيهِ الْخُصُومَةُ، لَا فِي إِثْبَاتِ وُجُودِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَلَا فِي إِثْبَاتِ انْفِرَادِهِ بِالْخَلْقِ وَالرِّزْقِ وَالتَّدْبِيرِ وَالْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ.

فَعَلَىٰ الْمَرْءِ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي مَعْرِفَةِ هَذَا مَعْرِفَةً دَقِيقَةً، وَأَنْ يَعْلَمَ أَنَّ الْعِبَادَةَ تَشْمَلُ كُلَّ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْإِنْسَانِ فِي الْحَيَاةِ مِنَ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ، كَمَا قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللهُ(٢): «الْعِبَادَةُ: كُلُّ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ».

إِذَنْ؛ وَضْعُكَ اللُّقْمَةَ فِي فَمِ امْرَأَتِكَ عِبَادَةٌ، قَالَ: لَكَ بِهَا صَدَقَةٌ.

---

(١) «**معاني القرآن**» للفراء: (٣/ ٨٩).

(٢) «**العبودية**» ضمن مجموع الفتاوىٰ: (١٠/ ١٤٩).

إِفْرَاغُكَ مِنْ دَلْوِكَ فِي دَلْوِ أَخِيكَ، لَكَ بِهِ صَدَقَةٌ؛ لِأَنَّهُ عِبَادَةٌ.

تَنْحِيَةُ الْأَذَىٰ عَنِ الطَّرِيقِ مِنْ شُعَبِ الْإِيمَانِ، وَهِيَ طَاعَةٌ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

ابْتِسَامُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ عِبَادَةٌ؛ لِأَنَّهَا صَدَقَةٌ كَمَا قَالَ الرَّسُولُ ﷺ.

كُلُّ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، وَالْبَاطِنَةِ مِنَ الِاعْتِقَادَاتِ؛ مِنَ الْخَوْفِ، مِنَ الْمَحَبَّةِ، مِنَ الرَّجَاءِ، مِنَ الْخَشْيَةِ، مِنَ الْإِنَابَةِ، مِنَ الْخُشُوعِ، مِنَ الْإِخْبَاتِ، لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ هَذَا خَالِصًا لِلهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ لِأَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يُحِبُّ اللهَ، وَيُحِبُّ مَعَ اللهِ سِوَاهُ، وَاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لَمْ يُنَازِعْنَا فِي الْحِبِّيَّةِ، وَإِنَّمَا جَعَلَ النَّصَّ مُنَازِعًا فِي الْأَحَبِّيَّةِ؛ ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ ...﴾ وَذَكَرَ جُمْلَةً مِنَ الْمَحْبُوبَاتِ، ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤]، لَمْ يَقُلْ: مَحْبُوبَةً إِلَيْكُمْ، وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم﴾.

إِذَنْ؛ لَمْ يُنَازِعْنَا الْقُرْآنُ فِي أَصْلِ الْحِبِّيَّةِ، لَا بُدَّ أَنْ تُحِبَّ أَبَاكَ؛ هَذِهِ فِطْرَةٌ، وَأَنْ تُحِبَّ وَلَدَكَ، وَأَنْ تُحِبَّ امْرَأَتَكَ، وَأَنْ تُحِبَّ عَشِيرَتَكَ، وَأَنْ تُحِبَّ أَرْضَكَ، وَأَنْ تُحِبَّ تِجَارَتَكَ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَحْبُوبَاتِ الْمَذْكُورَةِ، هَذِهِ سَلَّمَ لَنَا فِيهَا الْقُرْآنُ فِي أَصْلِ الْمَحَبَّةِ، فَلْتُحِبَّ هَذَا مَا شِئْتَ، وَلَكِنْ.. إِيَّاكَ أَنْ تُقَدِّمَ مَحَبَّةَ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ عَلَىٰ مَحَبَّةِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ﴾.

إِذَنْ؛ يَنْبَغِي أَنْ تُقَدَّمَ مَحَبَّةُ اللهِ عَلَىٰ كُلِّ مَحَبَّةٍ، وَكَذَلِكَ مَحَبَّةُ رَسُولِ اللهِ، تُقَدَّمُ عَلَىٰ كُلِّ مَحَبَّةٍ بَعْدَ مَحَبَّةِ اللهِ، وَمَحَبَّتُهُ مِنْ مَحَبَّةِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَلَا يَكْفِي أَنْ

تُحِبَّ النَّبِيَّ ﷺ بِاللِّسَانِ نُطْقًا وَدَعْوَىٰ، فَتَقُولُ: أَنَا أُحِبُّ النَّبِيَّ ﷺ، وَلَكِنْ يَنْبَغِي أَنْ تُثْبِتَ ذَلِكَ بِالدَّلِيلِ الْقَاطِعِ، فَإِنْ لَمْ تُثْبِتْ؛ فَهِيَ دَعْوَىٰ مُجَرَّدَةٌ عَنِ الدَّلِيلِ.

وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَوْ نَازَعَ إِنْسَانًا فِي شَيْءٍ تَافِهٍ مِنْ أُمُورِ الْمِلْكِيَّةِ فِي الْحَيَاةِ، فَإِنَّهُ لَا يُسَلَّمُ لَهُ دَعْوَىٰ الْمِلْكِيَّةِ حَتَّىٰ يُقِيمَ الدَّلِيلَ؛ إِمَّا أَنْ يَأْتِيَ بِعَقْدٍ مُوَثَّقٍ وَعَلَيْهِ شُهُودٌ، وَإِمَّا أَنْ يَأْتِيَ بِالشُّهُودِ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ، فَأَنْتَ إِذَا قُلْتَ: أَنَا أُحِبُّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَلَا بُدَّ مِنْ دَلِيلٍ، لَا بُدَّ مِنْ عَلَامَةٍ، وَقَدْ بَيَّنَهَا لَنَا رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

فَلَا بُدَّ مِنْ مَحَبَّةِ الرَّسُولِ لِيَكُونَ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَىٰ مَحَبَّةِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأَمَّا مَحَبَّةُ النَّبِيِّ فَلَا يُسَلَّمُ لَكَ أَمْرُ الْإِيمَانِ حَتَّىٰ تُحِبَّهُ أَكْثَرَ مِنْ وَالِدِكَ وَوَلَدِكَ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، بَلْ وَأَكْثَرَ مِنْ نَفْسِكَ الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْكَ؛ قَالَ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ** -فَذَكَرَ الْأُصُولَ-، **وَوَلَدِهِ** -فَذَكَرَ الْفُرُوعَ-، **وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ** -فَذَكَرَ الْحَوَاشِي-»(١).

وَكَانَ عُمَرُ سَائِرًا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَيَدُهُ فِي يَدِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا نَفْسِي.

قَالَ: «**وَلَا هَذِهِ يَا عُمَرُ**».

---

(١) أخرجه البخاري: (١/ ٥٨، رقم ١٥)، ومسلم: (١/ ٦٧، رقم ٤٤)، من حديث: أنس رضي الله عنه.

والحديث عند البخاري -أيضًا- من رواية أبي هريرة رضي الله عنه، بنحوه.

قَالَ: الْآنَ يَا رَسُولَ اللهِ؛ أَيِ: الْآنَ أَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي.

قَالَ: «**الْآنَ يَا عُمَرُ**»(١).

كَيْفَ يَكُونُ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ وَهُوَ يَأْمُرُكَ فَلَا تُطِيعُهُ، وَهُوَ يَنْهَاكَ فَتَعْصِيهِ، وَهُوَ يَدُلُّكَ عَلَىٰ الْخَيْرِ وَأَنْتَ تَبْتَعِدُ عَنْهُ؟!!

كَيْفَ يَكُونُ؟!!

يَنْبَغِي عَلَىٰ الْإِنْسَانِ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي تَقْدِيمِ مَحَابِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَىٰ مَحَابِّ نَفْسِهِ.

وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.

❀❀❀

(١) أخرجه البخاري: (١١/ ٥٢٣، رقم ٦٦٣٢)، من حديث: عَبْدِ اللهِ بْنِ هِشَامٍ رضي الله عنه.

الْمَوْعِظَةُ الثَّامِنَةُ:

احْذَرْ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْحَاسِدِينَ!

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

- **أَمَّا بَعْدُ:**

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

- **أَمَّا بَعْدُ:**

فَقَدْ أَخْرَجَ ابْنُ مَاجَهْ[١] وَغَيْرُهُ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قِيلَ لَهُ: أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟

قَالَ: «**كُلُّ مَخْمُومِ الْقَلْبِ، صَدُوقِ اللِّسَانِ**».

قَالُوا: صَدُوقُ اللِّسَانِ نَعْرِفُهُ، فَمَا مَخْمُومُ الْقَلْبِ؟

قَالَ: «**هُوَ التَّقِيُّ النَّقِيُّ، لَا إِثْمَ فِيهِ، وَلَا بَغْيَ، وَلَا غِلَّ، وَلَا حَسَدَ**».

فَبَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ مَدَارَ الْأَمْرِ عَلَىٰ هَذَيْنِ، وَالْأَوَّلُ يَتَعَلَّقُ بِالنُّطْقِ، وَالثَّانِي يَتَعَلَّقُ بِالْقَلْبِ.

فَأَمَّا الَّذِي يَتَعَلَّقُ بِالنُّطْقِ فَهُوَ صِدْقُ اللِّسَانِ؛ بَلْ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ اسْتَخْدَمَ صِيغَةَ الْمُبَالَغَةِ فَقَالَ: «**صَدُوقِ اللِّسَانِ**»، وَ«**صَدُوق**»: صِيغَةُ مُبَالَغَةٍ، فَهُوَ حَرِيصٌ عَلَىٰ الصِّدْقِ فِي أَمْرِهِ كُلِّهِ، لَا يُجَانِبُهُ، وَلَا يُخَالِفُهُ؛ لَا ظَاهِرًا وَلَا بَاطِنًا.

«**كُلُّ مَخْمُومِ الْقَلْبِ، صَدُوقِ اللِّسَانِ**».. وَأَمَّا «**مَخْمُومِ الْقَلْبِ**»؛ فَهَذَا هُوَ الْأَمْرُ الْبَاطِنُ الَّذِي يَتَعَلَّقُ بِالْقُلُوبِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ يُعَرِّفُ هَذَا بِقَوْلِهِ: «**هُوَ التَّقِيُّ النَّقِيُّ، لَا إِثْمَ فِيهِ، وَلَا بَغْيَ، وَلَا غِلَّ، وَلَا حَسَدَ**».

وَهَذَا دَلَالَةٌ عَلَىٰ صِدْقِ الْإِيمَانِ وَالْيَقِينِ، وَعَلَىٰ التَّسْلِيمِ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالتَّقْوَىٰ: هِيَ الْإِتْيَانُ بِالْأَوَامِرِ، وَاجْتِنَابُ النَّوَاهِي، فَتَقْوَىٰ اللهِ ﷻ: هِيَ الْتِزَامُ أَوَامِرِهِ، وَاجْتِنَابُ نَوَاهِيهِ.

---

(١) «**سنن ابن ماجه**»: (٢/ ١٤٠٩ - ١٤٢٠، رقم ٤٢١٦)، من حديث: عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما.

والحديث صححه الألباني في «**الصحيحة**»: (٢/ ٦٣٢، رقم ٩٤٨).

وَأَمَّا مَا ذَكَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ؛ فَهُوَ مِنْ لَوَازِمِ التَّقْوَىٰ؛ لِأَنَّ التَّقِيَّ النَّقِيَّ لَا يُمْكِنُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ بَعِيدًا عَنِ الْغِلِّ، وَالْغِشِّ، وَالْحَسَدِ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ تَقِيًّا نَقِيًّا وَقَدْ تَلَوَّثَ مِنْ هَذِهِ الْقَاذُورَاتِ بِشَيْءٍ.

فَبَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ بِذِكْرِ بَعْضِ أَفْرَادِ الْعَامِّ بَعْدَ أَنْ ذَكَرَهُ؛ لِلدَّلَالَةِ عَلَيْهِ، وَلِلتَّرْكِيزِ عَلَىٰ أَهَمِّيَّةِ مَا ذَكَرَ: «**لَا إِثْمَ فِيهِ، وَلَا بَغْيَ، وَلَا غِلَّ، وَلَا حَسَدَ**».

أَوَّلُ ذَنْبٍ عُصِيَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِهِ فِي السَّمَاءِ: الْحَسَدُ؛ لَمَّا حَسَدَ إِبْلِيسُ آدَمَ، وَأَمَرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الْمَلَائِكَةَ بِالسُّجُودِ لَهُ، فَاسْتَكْبَرَ، وَحَسَدَ آدَمَ عليه السلام، وَلَمْ يَسْجُدْ لَهُ، فَأَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ، وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ.

فَأَوَّلُ ذَنْبٍ عُصِيَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِهِ فِي السَّمَاءِ: الْحَسَدُ.

وَأَوَّلُ ذَنْبٍ عُصِيَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِهِ فِي الْأَرْضِ: الْحَسَدُ أَيْضًا؛ لَمَّا حَسَدَ ابْنُ آدَمَ أَخَاهُ، حَتَّىٰ أَدَّىٰ بِهِ حَسَدُهُ إِلَىٰ قَتْلِهِ فِي الْقِصَّةِ الْمَشْهُورَةِ فِي ابْنَيْ آدَمَ عليه السلام(١).

فَهَذَا الدَّاءُ الْوَبِيلُ، وَهَذَا الْخُلُقُ الرَّذِيلُ.. يُحَذِّرُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مِنْهُ فِي صُوَرٍ مُتَعَدِّدَةٍ فِي كِتَابِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَعَلَىٰ لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ.

---

(١) انظر: «**عيون الأخبار**» لابن قتيبة: (٢/ ١٤)، و«**أدب الدنيا والدين**» للماوردي: (ص٢٦٩)، وفيه قال: «...، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ ذَمِّ الْحَسَدِ إِلَّا أَنَّهُ خُلُقٌ دَنِيءٌ يَتَوَجَّهُ نَحْوَ الْأَكْفَاءِ وَالْأَقَارِبِ، وَيَخْتَصُّ بِالْمُخَالِطِ وَالْمُصَاحِبِ، لَكَانَتِ النَّزَاهَةُ عَنْهُ كَرَمًا، وَالسَّلَامَةُ مِنْهُ مَغْنَمًا،

فَكَيْفَ وَهُوَ بِالنَّفْسِ مُضِرٌّ، وَعَلَىٰ الْهَمِّ مُصِرٌّ، حَتَّىٰ رُبَّمَا أَفْضَىٰ بِصَاحِبِهِ إِلَىٰ التَّلَفِ، مِنْ غَيْرِ نِكَايَةٍ فِي عَدُوٍّ، وَلَا إِضْرَارٍ بِمَحْسُودٍ؟!».

وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ الْإِنْسَانَ رُبَّمَا يُحَاوِلُ أَنْ يَحْذَرَ أَمْرًا مِنَ الْأُمُورِ؛ وَلَكِنَّهُ لَا يَعْرِفُ حَدَّهُ، وَلَا تَعْرِيفَهُ، وَلَا حَقِيقَتَهُ، فَيَكُونُ صَادِقًا فِي مُحَاوَلَةِ الْبُعْدِ عَنْهُ، وَالتَّخَلُّصِ مِنْهُ؛ وَلَكِنَّهُ يَتَوَرَّطُ فِيهِ إِلَىٰ مَفْرِقِ رَأْسِهِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَدْرِي مَا هَذَا الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنْهُ؟

فَلَا بُدَّ مِنْ مَعْرِفَةِ مَاهِيَّةِ الْحَسَدِ؛ مَا هُوَ الْحَسَدُ؟

الشَّائِعُ عِنْدَ الْخَلْقِ، وَيَتَرَدَّدُ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ كَثِيرٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ: أَنَّ الْحَسَدَ هُوَ تَمَنِّي زَوَالِ النِّعْمَةِ عَنِ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِ بِهَا.

الْحَسَدُ عِنْدَ جَمَاهِيرِ الْعُلَمَاءِ هُوَ: تَمَنِّي زَوَالِ النِّعْمَةِ عَمَّنْ أَنْعَمَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَلَيْهِ بِهَا؛ سَوَاءٌ صَارَتْ إِلَىٰ الْحَاسِدِ، أَوْ صَارَتْ إِلَىٰ غَيْرِ الْحَاسِدِ، أَوْ لَمْ تَصِرْ إِلَىٰ أَحَدٍ.

فَهَذَا هُوَ الْحَسَدُ عِنْدَ جَمَاهِيرِ الْعُلَمَاءِ؛ وَلَكِنَّ الْمُحَقِّقِينَ مِنْهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ الْحَسَدَ لَيْسَ عَلَىٰ هَذَا التَّعْرِيفِ، الْحَسَدُ: هُوَ كَرَاهَةُ النِّعْمَةِ عَلَىٰ أَخِيكَ، فَمَهْمَا أَنْعَمَ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ أَخِيكَ بِنِعْمَةٍ، فَكَرِهْتَهَا -لَمْ تَتَمَنَّ زَوَالَهَا، وَلَكِنْ بِمُجَرَّدِ أَنْ تَكْرَهَ النِّعْمَةَ عَلَىٰ أَخِيكَ-؛ فَأَنْتَ لَهُ حَاسِدٌ.

فَالْحَسَدُ: كَرَاهَةُ النِّعْمَةِ عَلَىٰ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِ بِهَا(١).

وَبِهَذَا التَّعْرِيفِ نَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَخْلُو مِنْهُ إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ لِأَنَّ هَذَا لَا تَخْلُو مِنْهُ النَّفْسُ الْبَشَرِيَّةُ؛ فَإِنَّ النَّفْسَ الْبَشَرِيَّةَ مَبْنِيَّةٌ عَلَىٰ أَنْ تُحَاوِلَ قَدْرَ مَا

(١) «الإحياء»: (٣/ ١٨٩).

تَسْتَطِيعُ أَنْ تَتَرَفَّعَ عَلَىٰ الْجِنْسِ -يَعْنِي: عَلَىٰ بَنِي آدَمَ، عَلَىٰ جِنْسِهَا-، هَذَا مَغْرُوزٌ فِي الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ؛ أَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ أَعْلَىٰ مِمَّنْ سِوَاهُ، وَأَنْ يَكُونَ فَوْقَهُ بِصُورَةٍ مِنَ الصُّوَرِ.

هُنَالِكَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَكُونُ شَرِيفًا فِي خُصُومَتِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ؛ فَإِنَّهُ لَا يَتَمَنَّىٰ سُوءًا، وَلَا يُعَدِّي بِالْحَسَدِ الَّذِي فِي قَلْبِهِ يَدًا وَلَا لِسَانًا، فَلَا يُؤْذِي الْمَحْسُودَ؛ لَا بِلِسَانِهِ، وَلَا بِيَدِهِ، وَلَا بِجَوَارِحِهِ.

وَأَمَّا كَثِيرٌ مِنَ الْخَلْقِ؛ فَإِنَّهُمْ فِي فُجُورِ الْخُصُومَةِ يَسْتَحِلُّونَ مِنَ الْمَحْسُودِ كُلَّ شَيْءٍ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَقَرُّ لَهُمْ قَرَارٌ إِلَّا بِزَوَالِ النِّعْمَةِ عَنْهُ، وَهَذَا مُحَارَبَةٌ لِلهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي قَسَّمَ النِّعَمَ.

وَعَلَيْهِ؛ فَأَكْثَرُ هَؤُلَاءِ يَتَمَنَّوْنَ لَوْ أَنَّ هَذَا الَّذِي أُنْعِمَ عَلَيْهِ بِالنِّعْمَةِ الَّتِي كَرِهُوهَا عِنْدَهُ؛ أَنْ يُزِيلَهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِنِعْمَتِهِ.

النَّبِيُّ ﷺ يُحَذِّرُ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ، وَيُبَيِّنُ أَنَّ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْقُبُورِ إِنَّمَا دَخَلُوهَا بِالْعَيْنِ، لَوْ فَتَّشْتَ؛ لَعَلِمْتَ أَنَّ أَكْثَرَ مَنْ يَمُوتُ إِنَّمَا يَمُوتُ بِالْحَسَدِ، وَمَا خَلَا جَسَدٌ مِنْ حَسَدٍ؛ وَلَكِنَّ الْكَرِيمَ يُخْفِيهِ، وَاللَّئِيمَ يُبْدِيهِ(١).

وَلَا يَضُرُّكَ إِذَا وَجَدْتَ الْحَسَدَ فِي نَفْسِكَ؛ يَعْنِي: كَرِهْتَ النِّعْمَةَ عَلَىٰ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِ بِهَا، هَذَا طَبْعُ الْبَشَرِ، طَبْعُ الْإِنْسَانِ؛ خَاصَّةً إِذَا لَمْ يَكُنْ وَاعِيًا لِآفَاتِ الْقُلُوبِ،

---

(١) انظر: «**أمراض القلوب**» ضمن مجموع فتاوىٰ ابن تيمية: (١٠/ ١٢٤-١٢٥)، و«**المقاصد الحسنة**»: (ص٥٧٩، رقم ٩٥٥).

وَلَا مُفَتِّشًا فِي أَحْنَاءِ نَفْسِهِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَنْظُرَ فِي رَذَائِلِهَا لِيُطَهِّرَ نَفْسَهُ مِنْهَا، إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ إِقْبَالٌ عَلَىٰ أَمْثَالِ هَذِهِ الْمَسَائِلِ؛ فَهُوَ يَخْبِطُ فِي الْحَيَاةِ خَبْطَ عَشْوَاءَ، بَلْ خَبْطَ عَمْيَاءَ!!

وَعَلَيْهِ؛ فَقَدْ يَجِدُ فِي نَفْسِهِ مِنْ ذَلِكَ الْكَثِيرَ.

لَوْ وَجَدَ؛ مَا الَّذِي يَلْزَمُهُ؟

يَنْبَغِي عَلَيْهِ أَلَّا يُعَدِّيَ بِهِ يَدًا وَلَا لِسَانًا، وَلَكِنْ مَا خَلَا جَسَدٌ مِنْ حَسَدٍ، وَالْمُؤْمِنُ يَحْسُدُ؛ وَلَكِنَّهُ فِي الْوَقْتِ عَيْنِهِ يَلْتَزِمُ دِينَ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

قِيلَ لِلْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ: أَيَحْسُدُ الْمُؤْمِنُ؟

قَالَ: «وَمَا أَنْسَاكَ إِخْوَةَ يُوسُفَ لَا أَبَا لَكَ؟!»(١).

فَإِخْوَةُ يُوسُفَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِلَا خِلَافٍ، وَمَعَ ذَلِكَ حَسَدُوا أَخَاهُمْ؛ لِمَا فَضَّلَهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِهِ مِنْ مَزَايَا وَخِصَالٍ، وَلِمَا أَنْعَمَ عَلَيْهِ بِهِ مِنَ النُّبُوَّةِ الَّتِي كَانَ

---

(١) أخرجه هناد بن السري في «**الزهد**»: (٢/ ٦٤٢)، وابن حبان في «**روضة العقلاء**»: (ص١٣٦)، وأبو الشيخ الأصبهاني في «**التوبيخ والتنبيه**»: (ص٤٢، رقم ٧٢)، بإسناد صحيح، عَنْ حُمَيْدٍ، قَالَ:
سَأَلَ رَجُلٌ الْحَسَنَ، فَقَالَ: «يَا أَبَا سَعِيدٍ، أَيَحْسُدُ الْمُؤْمِنُ؟» قَالَ: «لَا أَبَا لَكَ! أَمَا أَنْسَاكَ بَنِي يَعْقُوبَ حَيْثُ حَسَدُوا يُوسُفَ، وَلَكِنْ غُمَّ الْحَسَدَ فِي صَدْرِكَ، فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّكَ مَا لَمْ يَعْدُ لِسَانَكَ، أَوْ تَعْمَلْ بِهِ يَدُكَ».
وفي رواية: «... مَا لَمْ تَعْدُ بِهِ يَدًا وَلِسَانًا».

يَسْتَشْرِفُهَا يَعْقُوبُ عليه السلام، فَكَانَ مُحِبًّا لَهُ، مُقَرِّبًا لَهُ، فَحَسَدُوهُ وَهُمْ كُلُّهُمْ أَوْلَادُ نَبِيٍّ بْنِ نَبِيٍّ بْنِ نَبِيٍّ: يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، هَؤُلَاءِ أَبْنَاؤُهُ؛ وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَسْلَمُوا مِنْ هَذَا الْخُلُقِ الرَّذِيلِ.

وَأَخَذُوا أَخَاهُمْ بَعْدَ أَنِ احْتَالُوا عَلَىٰ أَبِيهِمْ، ثُمَّ تَآمَرُوا عَلَىٰ قَتْلِهِ، ثُمَّ أَشْفَقُوا عَلَيْهِ فَأَلْقَوْهُ فِي الْجُبِّ، ثُمَّ تَنَحَّوْا نَاحِيَةً حَتَّىٰ جَاءَتِ السَّيَّارَةُ -الْقَافِلَةُ-، فَاسْتُخْرِجَ، ثُمَّ كَذَبُوا عَلَىٰ أَبِيهِمْ لَمَّا جَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ، وَكُلُّ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ مِنَ الْكَبَائِرِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَهُمْ أَوْلَادُ نَبِيٍّ بْنِ نَبِيٍّ بْنِ نَبِيٍّ، وَلَمْ يَسْلَمُوا مِنْ مِثْلِ هَذَا الْخُلُقِ؛ فَمَاذَا تَصْنَعُ؟

النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ الْحَسَدَ يُدْخِلُ الرَّجُلَ الْقَبْرَ، وَيُدْخِلُ الْجَمَلَ الْقِدْرَ**»(١)، وَمَنْ عَلِمَ مِنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ يَحْسُدُ؛ فَيَنْبَغِي عَلَيْهِ أَنْ يَتَّقِيَ اللهَ رَبَّهُ، وَلَوْ نَظَرْتَ فِي كُتُبِ الْفِقْهِ؛ لَوَجَدْتَ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْحُدُودِ وَأَشْبَاهِهَا مِنَ الْأَحْكَامِ: أَنَّ الْفُقَهَاءَ تَكَلَّمُوا فِي الَّذِي يَكُونُ مَعْرُوفًا بِالْحَسَدِ.

---

(١) أخرجه ابن حبان في «**المجروحين**»: (٢/ ١٠٧، ترجمة عَليّ بن أبي عَليّ اللهبي)، وابن عدي في «**الكامل**»: (٦/ ٣١٦، ترجمة علي بْن أبي علي اللهبي) و(٨/ ١٤٧-١٤٨، ترجمة معاوية بْن هِشَام)، وأبو نعيم في «**حلية الأولياء**»: (٧/ ٩٠-٩١)، والقضاعي في «**المسند**»: (٢/ ١٤٠)، والخطيب في «**تاريخ بغداد**»: (١٠/ ٣٣٧، ترجمة شعيب بن أيوب)، من حديث: جَابِرٍ رضي الله عنه.

والحديث حسن إسناده الألباني في «**الصحيحة**»: (٣/ ٢٥٠-٢٥١، رقم ١٢٤٩).

هُنَاكَ أَقْوَامٌ مِنَ الْخِسَّةِ وَالْوَضَاعَةِ بِمَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يُوصَفَ، لَيْسَ لَهُمْ هَمٌّ إِلَّا أَنْ يُؤْذُوا إِخْوَانَهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَيَتَوَفَّرُونَ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَيَحْرِصُونَ عَلَيْهِ!!

لَوْ عُرِفَ بِالْحَسَدِ، ثُمَّ عَانَ إِنْسَانًا فَمَاتَ.. يَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِ حَتَّىٰ يَمُوتَ، أَوْ يَمْرَضَ، أَوْ يَحْدُثَ لَهُ مَا يَحْدُثُ مِمَّا هُوَ مَعْلُومٌ عِنْدَ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ، قَالُوا: هَلْ يُقَادُ مِنْهُ؟ يَعْنِي: يَكُونُ قَاتِلًا لَهُ، وَحِينَئِذٍ يُقْتَصُّ مِنْهُ؟ لِأَنَّهُ قَتَلَهُ بِعَيْنِهِ، بِالسُّمِّيَّةِ الْغَضَبِيَّةِ الَّتِي انْبَعَثَتْ مِنْ نَفْسٍ شِرِّيرَةٍ حَيَوَانِيَّةٍ؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ تُصِيبَ بَرِيئًا لَا ذَنْبَ لَهُ، وَكُلُّ ذَلِكَ مَعْلُومٌ.

فَعَلَىٰ الْإِنْسَانِ أَنْ يَتَّقِيَ اللهَ، وَأَنْ يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَنْعَمَ اللهُ ﷻ بِهِ عَلَىٰ غَيْرِهِ؛ إِنَّمَا هُوَ عَطَاءُ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَفَضْلُهُ، فَمَنْ نَازَعَ اللهَ فِي أَقْدَارِهِ فَلْيُنَازِعْهُ، وَمَنِ اعْتَرَضَ عَلَىٰ اللهِ فِي قِسْمَتِهِ فَلْيَعْتَرِضْ؛ وَلَكِنْ لَنْ تَجِدَ ظَالِمًا أَشْبَهَ بِمَظْلُومٍ مِنَ الْحَاسِدِ؛ لِأَنَّهُ مُؤَرَّقُ الْجَفْنِ، لَا يَنْعَمُ بِغُمْضٍ وَلَا نَوْمٍ، وَيَسُوؤُهُ مَا يُنْعِمُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِهِ عَلَىٰ الْمَحْسُودِ، فَالْمَحْسُودُ يَتَنَعَّمُ بِنِعْمَةِ اللهِ، وَهَذَا يَتَلَدَّدُ عَلَىٰ مِثْلِ الْجَمْرِ، وَالْآخَرُ هَنَّأَهُ اللهُ وَمَنَّاهُ، وَأَعْطَاهُ وَأَسْبَغَ عَلَيْهِ، فَهُوَ يَتَنَعَّمُ بِنِعْمَةِ رَبِّهِ، وَأَمَّا الْآخَرُ؛ فَفِي حَسْرَةٍ كَامِلَةٍ، وَفِي غَمٍّ لَا يَنْفَكُّ عَنْهُ.

فَنَسْأَلُ اللهَ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَنَا، وَأَنْ يُصَفِّيَ أَرْوَاحَنَا.

وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.

الْمَوْعِظَةُ التَّاسِعَةُ:

سُلُوكِيَّاتٌ خَاطِئَةٌ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

- **أَمَّا بَعْدُ:**

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

- **أَمَّا بَعْدُ:**

مَرَاحِلُ الْوُصُولِ إِلَى السُّلُوكِيَّاتِ الصَّحِيحَةِ

فَإِنَّ أَمْرًا مِنَ الْأُمُورِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَصِيرَ سُلُوكًا لَا بُدَّ أَنْ يَمُرَّ بِثَلَاثِ مَرَاحِلَ:

* الْمَرْحَلَةُ الْعَقْلِيَّةُ الذِّهْنِيَّةُ التَّصَوُّرِيَّةُ الْمَعْرِفِيَّةُ، وَالْمَرْحَلَةُ الذَّاتِيَّةُ الْقَلْبِيَّةُ الْوِجْدَانِيَّةُ، وَالْمَرْحَلَةُ التَّنْفِيذِيَّةُ الْعَمَلِيَّةُ التَّطْبِيقِيَّةُ.

هَذِهِ ثَلَاثُ مَرَاحِلَ لِكَيْ يَصِيرَ أَمْرٌ مِنَ الْأُمُورِ سُلُوكًا مَسْلُوكًا، وَعَادَةً مُعْتَادَةً، وَأَمْرًا مُتَّبَعًا، لَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَتَوَفَّرَ السَّيْرُ وَيَتَحَصَّلَ الْمَشْيُ فِي هَذَا الطَّرِيقِ لِتَحْصِيلِ هَذِهِ الْمَرَاحِلِ الثَّلَاثِ.

الْإِنْسَانُ يَعْرِفُ أَوَّلًا، يَعْرِفُ الشَّيْءَ، يَتَصَوَّرُهُ، يَعْقِلُهُ، يُحِيطُ بِهِ عِلْمًا، وَيُمْكِنُ أَنْ يَعْرِفَهُ وَيُحِيطَ بِهِ عِلْمًا ثُمَّ لَا يَنْفَعِلُ بِهِ، وَلَا يَتَحَرَّكُ لَهُ وِجْدَانُهُ، فَهَذِهِ هِيَ الْمَرْحَلَةُ الْأُولَىٰ، وَأَكْثَرُ النَّاسِ يَتَحَصَّلُونَ عَلَىٰ الْمَعْرِفَةِ، وَيَعْرِفُونَ ظَاهِرَ الْعِلْمِ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَنْفَعِلُونَ بِهِ، فَضْلًا عَنْ تَطْبِيقِهِ وَتَنْفِيذِهِ وَتَحْوِيلِهِ إِلَىٰ سُلُوكٍ وَاقِعٍ فِي الْحَيَاةِ.

الْمَرْحَلَةُ الْأُولَىٰ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ يَمُرَّ بِهَا الْإِنْسَانُ وَأَنْ يَجْتَازَهَا؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَكُونَ عِنْدَهُ السُّلُوكُ الْمَسْلُوكُ، وَالْعَادَةُ الْمُتَّبَعَةُ؛ هِيَ: الْمَعْرِفَةُ، هِيَ الْمَرْحَلَةُ

الذِّهْنِيَّةُ التَّصَوُّرِيَّةُ الَّتِي يَتَصَوَّرُ بِهَا الْإِنْسَانُ الْأَمْرَ، وَلَكِنْ إِذَا تَوَقَّفَ عِنْدَ هَذِهِ الْحُدُودِ، وَلَمْ يَنْفَعِلْ وِجْدَانُهُ بِمَا عَلِمَهُ وَمَا تَصَوَّرَهُ وَمَا أَحَاطَ بِهِ ذِهْنُهُ؛ فَهُوَ مُتَوَقِّفٌ عِنْدَ حُدُودِ الْمَرْحَلَةِ الْأُولَىٰ.

إِذَا انْفَعَلَ الْوِجْدَانُ، وَإِذَا اشْتَعَلَ الضَّمِيرُ، وَإِذَا صَارَ الْأَمْرُ كَأَنَّمَا هُوَ شَيْءٌ فِي الدِّمَاءِ يَجْرِي فِي الْعُرُوقِ، أَوْ أَمْرٌ مِنَ الْفِكْرِ يُخَالِطُ الْعَقْلَ، إِذَا صَارَ ذَلِكَ كَذَلِكَ؛ فَقَدْ تَحَصَّلَ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ الْمَرْحَلَةِ الثَّانِيَةِ، وَهِيَ الْمَرْحَلَةُ الْوِجْدَانِيَّةُ.

كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ -أَيْضًا- يَقِفُ عِنْدَ حُدُودِ الْمَرْحَلَةِ الْوِجْدَانِيَّةِ، يَنْفَعِلُ لِلدِّينِ، وَيَنْفَعِلُ لِلْمَعْلُومِ الشَّرْعِيِّ، وَلِلْمَعْلُومَةِ الدِّينِيَّةِ، وَلَكِنَّهُ يَتَوَقَّفُ عِنْدَ حُدُودِ الْمَعْرِفَةِ وَالِانْفِعَالِ، وَلَا يَصِيرُ الْأَمْرُ عِنْدَهُ تَطْبِيقًا وَعَمَلًا إِلَّا إِذَا وَصَلَ إِلَىٰ الْمَرْحَلَةِ الثَّالِثَةِ مِنْ مَرَاحِلَ ثَلَاثٍ لَا يَصِيرُ الْأَمْرُ الْمَعْلُومُ الْمُنْفَعَلُ بِهِ سُلُوكًا مَسْلُوكًا إِلَّا بِتَحْصِيلِهَا: «الْمَرْحَلَةُ الذِّهْنِيَّةُ الْعَقْلِيَّةُ، الْمَرْحَلَةُ الْقَلْبِيَّةُ الْوِجْدَانِيَّةُ، الْمَرْحَلَةُ الْعَمَلِيَّةُ الِانْفِعَالِيَّةُ التَّطْبِيقِيَّةُ الَّتِي يَتَحَوَّلُ بِهَا الْأَمْرُ إِلَىٰ سُلُوكٍ مَسْلُوكٍ وَوَاقِعٍ مُتَّبَعٍ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ».

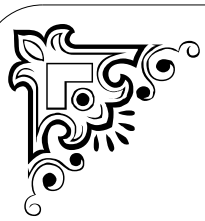

أَمْرَاضُنَا سُلُوكِيَّاتٌ خَاطِئَةٌ

مُعْظَمُ أَمْرَاضِنَا هِيَ مُخَالَفَةٌ لِلسُّلُوكِيَّاتِ الصَّحِيحَةِ، أَمْرَاضُنَا فِي جُمْلَتِهَا سُلُوكِيَّاتٌ خَاطِئَةٌ مُخْطِئَةٌ!!

نُعَانِي فِي مِصْرَ مِنْ مَرَضِ «الْبِلْهَارْسِيَا»، وَهَذَا الْمَرَضُ مَا هُوَ إِلَّا سُلُوكٌ خَاطِئٌ، رَجُلٌ يُخَالِفُ السُّلُوكَ السَّوِيَّ الَّذِي جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، فَيَتَوَرَّطُ فِي الْمُخَالَفَةِ، وَيَحْدُثُ مَا يَحْدُثُ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ آثَارٍ مُدَمِّرَةٍ لِهَذَا السُّلُوكِ الْخَاطِئِ!

أَمْرَاضُنَا سُلُوكِيَّاتٌ..

إِنْسَانٌ يَتَبَوَّلُ أَوْ يَتَبَرَّزُ فِي الْمِيَاهِ؛ رَاكِدَةً أَوْ جَارِيَةً!! قَدْ نَهَىٰ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ ذَلِكَ، وَنَهَىٰ عَنِ الْبَوْلِ فِي الْمَاءِ الرَّاكِدِ(١)، ....

(١) أخرج البخاري: (١/ ٣٤٦، رقم ٢٣٩) واللفظ له، ومسلم: (١/ ٢٣٥، رقم ٢٨٢)، من حديث: أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ:
قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا يَبُولَنَّ أَحَدُكُمْ فِي المَاءِ الدَّائِمِ الَّذِي لَا يَجْرِي، ثُمَّ يَغْتَسِلُ فِيهِ**».
وفي رواية مسلم: «**...، ثُمَّ تَغْتَسِلُ مِنْهُ**»، وله -أيضًا- في رواية (١/ ٢٣٦، رقم ٢٨٣): «**لَا يَغْتَسِلْ أَحَدُكُمْ فِي الْمَاءِ الدَّائِمِ وَهُوَ جُنُبٌ**».

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**اتَّقُوا الْمَلَاعِنَ الثَّلَاثَةَ: الْبَرَازَ فِي الْمَوَارِدِ، وَقَارِعَةِ الطَّرِيقِ، وَالظِّلِّ**»(١).

يَعْنِي: أَنْ يَتَبَرَّزَ الْإِنْسَانُ فِي ظِلِّ النَّاسِ وَفِي مَوَارِدِهِمْ وَفِي الْمِيَاهِ، هَذَا مَنْهِيٌّ عَنْهُ، فَإِذَا مَا خُولِفَ وَجَاءَ السُّلُوكُ الْخَاطِئُ الْمُخْطِئُ؛ كَانَتِ الْعَاقِبَةُ مَا هُوَ مَعْلُومٌ مِنْ إِهْدَارٍ لِحَيَوَاتٍ كَثِيرَةٍ، وَمِنْ إِهْدَارٍ لِمِلْيَارَاتٍ عَظِيمَةٍ، وَمِنْ تَدْمِيرٍ لِطَاقَاتِ بَلَدٍ هِيَ فِي أَمَسِّ الْحَاجَةِ إِلَىٰ كُلِّ ذَرَّةٍ مِنْ قُوَّةٍ، وَإِلَىٰ كُلِّ ذَرَّةٍ مِنَ اقْتِدَارٍ، وَمَعَ ذَلِكَ كُلُّ ذَلِكَ يُهْدَرُ بِسَبَبِ السُّلُوكِ الْخَاطِئِ.

الْإِنْسَانُ يَأْكُلُ بِشِمَالِهِ، وَفِي الدِّينِ أَنَّ الشِّمَالَ مَقْصُورَةٌ عَلَىٰ أُمُورٍ مِنَ النَّجَاسَاتِ تُبَاشِرُهَا، وَأَمَّا الْيَمِينُ الَّتِي هِيَ لِلْمُصَافَحَةِ، وَلِلطَّعَامِ وَلِلشَّرَابِ، وَلِلْمُنَاوَلَةِ، هَذِهِ الْيَمِينُ لَا تُبَاشِرُ تِلْكَ النَّجَاسَاتِ(٢)، حَتَّىٰ إِنَّ عِمْرَانَ بْنَ حُصَيْنٍ رضي الله عنه يَقُولُ -فِي الْوَقْتِ الَّذِي قَالَ فِيهِ-: «مَا مَسَسْتُ ذَكَرِي بِيَمِينِي مُنْذُ بَايَعْتُ

---

(١) أخرجه أبو داود: (١/ ٧، رقم ٢٦)، وابن ماجه: (١/ ١١٩، رقم ٣٢٨)، من حديث: مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه.

والحديث حسنه بشواهده الألباني في «**إرواء الغليل**»: (١/ ١٠٠، رقم ٦٢).

(٢) أخرج البخاري: (١/ ٢٥٣ - ٢٥٤، رقم ١٥٣ و ١٥٤)، ومسلم: (١/ ٢٢٥، رقم ٢٦٧)، من حديث: أَبِي قَتَادَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «**إِذَا بَالَ أَحَدُكُمْ فَلَا يَأْخُذَنَّ ذَكَرَهُ بِيَمِينِهِ، وَلَا يَسْتَنْجِي بِيَمِينِهِ**،...».

وفي رواية لمسلم: «**لَا يُمْسِكَنَّ أَحَدُكُمْ ذَكَرَهُ بِيَمِينِهِ وَهُوَ يَبُولُ، وَلَا يَتَمَسَّحْ مِنَ الْخَلَاءِ بِيَمِينِهِ**،...».

رَسُولَ اللهِ ﷺ» رضي الله عنه(١)؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ إِنَّمَا عَلَّمَنَا أَنْ يَسْتَنْجِيَ الْإِنْسَانُ وَأَنْ يَسْتَجْمِرَ، وَأَنْ يُبَاشِرَ النَّجَاسَاتِ الْمُخْتَلِفَةَ بِيُسْرَاهُ(٢)، وَهَذِهِ لَا تُصَافِحُ بِهَا، لَا تَأْكُلُ بِهَا؛ «**فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ بِشِمَالِهِ، وَيَشْرَبُ بِهَا**»(٣).

---

(١) أخرجه ابن سعد في «**الطبقات الكبرىٰ**»: (٤/ ٢١٥)، وأحمد في «**المسند**»: (٤/ ٤٣٩)، وفي «**الزهد**»: (ص١٢٣، رقم ٨٠٨)، والطبراني في «**المعجم الكبير**»: (١٨/ ١٠٤ و٢٠٣، رقم ١٩٢ و٤٩٥)، والحاكم: (٣/ ٤٧٢، رقم ٥٩٩٥)، بإسناد صحيح.

وروي عن عثمان رضي الله عنه، وأبي العالية، ومسلم بن يسار، نحوه.

(٢) أخرج أبو داود: (١/ ٩، رقم ٣٣ و ٣٤)، من حديث: عَائِشَةَ، قَالَتْ:

«**كَانَتْ يَدُ رَسُولِ اللهِ ﷺ الْيُمْنَىٰ لِطُهُورِهِ وَطَعَامِهِ، وَكَانَتْ يَدُهُ الْيُسْرَىٰ لِخَلَائِهِ وَمَا كَانَ مِنْ أَذًىٰ**».

والحديث صحح إسناده الألباني في هامش «**مشكاة المصابيح**»: (١/ ١١٣، رقم ٣٤٨)، وقال: «فما يفعله كثير من الناس من التسبيح باليسرىٰ أيضًا خلاف ما يفيده هذا الحديث من تخصيصها للخلاء والأذىٰ، بل خلاف الحديث الصحيح الصريح: «كان يعقد التسبيح بيمينه»».

(٣) أخرجه مسلم: (٣/ ١٥٩٨ - ١٥٩٩، رقم ٢٠٢٠)، من حديث: ابْنِ عُمَرَ:

أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «**إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَأْكُلْ بِيَمِينِهِ، وَإِذَا شَرِبَ فَلْيَشْرَبْ بِيَمِينِهِ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ بِشِمَالِهِ، وَيَشْرَبُ بِشِمَالِهِ**».

وفي رواية له: «**لَا يَأْكُلَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ بِشِمَالِهِ، وَلَا يَشْرَبَنَّ بِهَا؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ بِشِمَالِهِ، وَيَشْرَبُ بِهَا**».

وَالنَّبِيُّ ﷺ نَهَىٰ عَنِ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ بِالشِّمَالِ لِهَذَا الْغَرَضِ مِنَ الْمُشَابَهَةِ بِالشَّيْطَانِ، وَلِمَا يَتَرَتَّبُ عَلَىٰ ذَلِكَ مِمَّا يَأْتِي بِهِ الْعِلْمُ الَّذِي تُسْتَجَدُّ وَقَائِعُهُ وَمَعْلُومَاتُهُ عَلَىٰ امْتِدَادِ الدُّهُورِ وَالْأَعْصَارِ.

الْإِنْسَانُ يَشْرَبُ مِنَ الْإِنَاءِ فَيَتَنَفَّسُ فِيهِ، فَيُصِيبُ السُّلُّ مِنَ الْمَسْلُولِ كُلَّ شَارِبٍ بَعْدُ -إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ-.

الْمَرْأَةُ تُبَاشِرُ حَلْبَ دَابَّتِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ تَكُونَ آخِذَةً بِأُهْبَةِ نَظَافَتِهَا، فَيَأْتِي السُّلُّ، وَتَأْتِي الْأَمْرَاضُ مُخَالِطَةً لِذَلِكَ اللَّبَنِ، ثُمَّ تُوَزَّعُ الْأَمْرَاضُ بَعْدُ عَلَىٰ خَلْقِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ مِنَ الْمَسَاكِينِ، وَكُلُّ ذَلِكَ بِسَبَبِ سُلُوكٍ خَاطِئٍ.

الرَّجُلُ يَمْشِي حَافِيًا غَيْرَ مُنْتَعِلٍ مِنْ غَيْرِ مَا اسْتِنَانٍ بِالنَّبِيِّ الْعَدْنَانِ ﷺ، وَيُصِيبُهُ مَا يُصِيبُهُ مِنْ تِلْكَ الطُّفَيْلِيَّاتِ الَّتِي تَخْتَرِقُ الْأَنْسِجَةَ الْبَيْنِيَّةَ بَيْنَ أَصَابِعِ الْقَدَمَيْنِ، ثُمَّ يُعَانِي مَا يُعَانِي بَعْدُ، وَاللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ الْمُسْتَعَانُ، وَعَلَيْهِ التُّكْلَانُ.

إِذَنْ؛ هِيَ سُلُوكِيَّاتٌ خَاطِئَةٌ، وَالْأَمْرُ الصَّحِيحُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَصِيرَ سُلُوكًا إِلَّا إِذَا تَحَصَّلْتَ عَلَىٰ الْمَرْحَلَةِ الذِّهْنِيَّةِ الْعَقْلِيَّةِ التَّصَوُّرِيَّةِ؛ فَيَنْبَغِي أَنْ تَعْرِفَ الْمَعْلُومَةَ بَدْءًا، وَأَنْ تُحِيطَ بِهَا عِلْمًا، وَإِلَّا فَالنَّاسُ أَعْدَاءُ مَا جَهِلُوا.

وَالرَّسُولُ ﷺ نَهَىٰ عَنِ الشُّرْبِ قَائِمًا ﷺ(١)، ثُمَّ شَرِبَ مَرَّةً وَاحِدَةً.....

---

(١) أخرج مسلم: (٣/ ١٦٠٠ - ١٦٠١، رقم ٢٠٢٥)، من حديث: أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه:

«أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ نَهَىٰ عَنِ الشُّرْبِ قَائِمًا».

=

قَائِمًا(١)؛ لِيَدُلَّ عَلَىٰ الْجَوَازِ، وَلَكِنْ مَنْ شَرِبَ قَائِمًا فَلَا ثَوَابَ لَهُ؛ لِأَنَّهُ لَا يَتَّبِعُ السُّنَّةَ، وَإِنَّمَا هُوَ يَأْخُذُ بِالْمُبَاحِ الْمُسْتَوِي الطَّرَفَيْنِ، أَوْ هُوَ عَلَىٰ الْبَرَاءَةِ الْأَصْلِيَّةِ، وَأَمَّا سُنَّةُ الرَّسُولِ ﷺ فَهِيَ أَنْ يَشْرَبَ مِنْ قُعُودٍ.

هَلْ تَظُنُّ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ لَيْسَتْ فِيهِ فَائِدَةٌ؟

أَنَا أَعْتَقِدُ -لَا أَظُنُّ- أَنَّ فِيهِ مِنَ الْفَوَائِدِ مَا لَا يُحْصِيهِ إِلَّا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ مَا دَامَ الرَّسُولُ ﷺ قَدْ فَعَلَهُ وَنَهَىٰ عَنْ ضِدِّهِ ﷺ.

إِذَنْ؛ أَمْرَاضُنَا الْمَادِّيَّةُ الْجَسَدِيَّةُ هِيَ فِي جُمْلَتِهَا سُلُوكِيَّاتٌ خَاطِئَةٌ.

وَأَمْرَاضُنَا النَّفْسِيَّةُ فِي جُمْلَتِهَا -أَيْضًا- سُلُوكِيَّاتٌ خَاطِئَةٌ.

يَقُولُ النَّفْسِيُّونَ الْمُحْدَثُونَ: «إِنَّهُ لَا عُصَابَ فِي الْكِبَرِ إِلَّا بِعُصَابٍ فِي الصِّغَرِ».

يَعْنِي: الْإِنْسَانُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُصَابَ بِالْمَرَضِ النَّفْسِيِّ فِي كِبَرِهِ؛ إِلَّا إِذَا كَانَتَ أُصُولُ هَذَا الْمَرَضِ النَّفْسِيِّ قَدْ تَحَصَّلَ عَلَيْهَا فِي صِغَرِهِ.

=

وفي رواية: «**أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ زَجَرَ عَنِ الشُّرْبِ قَائِمًا**»، والحديث -أيضًا- في «صحيح مسلم» من رواية أنس وأبي هريرة، بنحوه.

(١) أخرج البخاري: (١٠/ ٨١، رقم ٥٦١٧)، ومسلم: (٣/ ١٦٠١ - ١٦٠٢، رقم ٢٠٢٧)، من حديث: ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ:

«**شَرِبَ النَّبِيُّ ﷺ قَائِمًا مِنْ زَمْزَمَ**».

وفي رواية: «**سَقَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ مِنْ زَمْزَمَ، فَشَرِبَ وَهُوَ قَائِمٌ**».

والحديث في «**صحيح البخاري**» من رواية علي بن أبي طالب رضي الله عنه، بنحوه.

وَحَدَّدَهَا زَعِيمُ هَؤُلَاءِ (سِيجْمُونْد فُرُويد) بِستِّ سَنَوَاتٍ؛ فَقَالَ: إِنَّ هَذِهِ السِّتَّ سَنَوَاتِ الْأُولَىٰ خَطِيرَةٌ جِدًّا فِي حِيَاةِ أَيِّ طِفْلٍ.

عِنْدَمَا تَأْتِي الْقَسْوَةُ، وَيَأْتِي الضَّرْبُ فِي هَذِهِ السِّنِّ الْبَاكِرَةِ، وَهُوَ مَمْنُوعٌ بِمَفْهُومِ حَدِيثِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ لِأَنَّهُ يَقُولُ ﷺ: «**مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ لِسَبْعٍ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا لِعَشْرٍ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ**»(١).

لَمْ يَأْتِ الضَّرْبُ عَلَىٰ تَرْكِ الصَّلَاةِ -وَلَا شَكَّ أَنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ شَيْءٌ فِي دِينِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مِنَ الْأُمُورِ الْعَمَلِيَّةِ أَعْظَمَ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ الْكَبِيرِ وَهُوَ الصَّلَاةُ-، وَتَرْكُ الصَّلَاةِ هُوَ أَكْبَرُ كَبِيرٍ يُمْكِنُ أَنْ يَأْتِيَ بِهِ الْإِنْسَانُ مِنَ الْأُمُورِ الْعَمَلِيَّةِ؛ لِأَنَّ الشَّهَادَتَيْنِ هِيَ أَمْرٌ قَلْبِيٌّ يُقِرُّ بِهِ الْقَلْبُ وَيَنْطِقُ بِهِ اللِّسَانُ.

وَأَمَّا تَرْكُ الصَّلَاةِ فَهُوَ أَمْرٌ يَتَعَلَّقُ بِالْجَسَدِ، لَيْسَ هُنَاكَ خَطَأٌ يُمْكِنُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ الطِّفْلُ وَهُوَ دُونَ العَاشِرَةِ يَكُونُ أَكْبَرَ مِنْ تَرْكِ الصَّلَاةِ، وَمَعَ ذَلِكَ الرَّسُولُ ﷺ لَمْ يَأْمُرْ بِالضَّرْبِ عَلَىٰ تَرْكِ الصَّلَاةِ إِلَّا عِنْدَ بُلُوغِ الْعَشْرِ.

يَقُولُ: «**مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ لِسَبْعٍ**»، مُجَرَّدُ أَمْرٍ، مَعَ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ مِنَ التَّرْكِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ، وَلَكِنِ الضَّرْبُ هَاهُنَا عَلَىٰ تَرْكِ الصَّلَاةِ مَمْنُوعٌ، بِنَصِّ حَدِيثِ الرَّسُولِ ﷺ: «**مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ لِسَبْعٍ**»، ثُمَّ: «**وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا لِعَشْرٍ**».

---

(١) أخرجه أبو داود: (١/ ١٣٣، رقم ٤٩٥)، من حديث: عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

والحديث صححه الألباني في «**إرواء الغليل**»: (١/ ٢٦٦، رقم ٢٤٧)، وله شاهد من حديث: سبرة بن معبد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

يَأْتِي هَذَا الرَّجُلُ -وَهُوَ ضَالٌّ مُنْحَرِفٌ كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ (سِيجْمُونْد فُرُويد)- يَقُولُ: «إِنَّهُ لَا عُصَابَ فِي الْكَبَرِ إِلَّا بِعُصَابٍ فِي الصِّغَرِ»، وَيُحَدِّدُ سِتَّ سَنَوَاتٍ الْأُولَىٰ.

نَقُولُ لَهُ: إِنْ كُنْتَ قَدِ اهْتَدَيْتَ لِهَذَا، وَكَانَ صَحِيحًا بِالْفِطْرَةِ أَوْ بِوَسَائِلِ الْعِلْمِ الْحَدِيثِ، فَاعْلَمْ أَنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا ﷺ قَدْ قَالَ ذَلِكَ مُنْذُ مَا يَزِيدُ عَلَىٰ أَلْفٍ وَأَرْبَعِمِائَةِ سَنَةٍ ﷺ.

إِذَنْ، النَّبِيُّ ﷺ عِنْدَمَا يُحَدِّدُ أَمْثَالَ هَذِهِ الأَشْيَاءِ؛ إِنَّمَا يَحْمِي الْإِنْسَانَ مِنْ أَنْ يَتَحَصَّلَ عَلَىٰ الْبَوَادِرِ الَّتِي تُؤَدِّي بِهِ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَىٰ الْمَرَضِ النَّفْسِيِّ.

وَإِذَنْ؛ فَهَذِهِ الْقَسْوَةُ الْمُفْرَطُ فِيهَا، وَهَذِهِ السُّلُوكِيَّاتُ الْخَاطِئَةُ؛ تُؤَثِّرُ عَلَىٰ النَّفْسِيَّاتِ الْغَضَّةِ الطَّرِيَّةِ، ثُمَّ يَتَأَتَّىٰ بَعْدَ ذَلِكَ الْمَرَضُ النَّفْسِيُّ، وَإِذَنْ؛ فَأَمْرَاضُنَا النَّفْسِيَّةُ -أَيْضًا- إِنَّمَا هِيَ سُلُوكِيَّاتٌ خَاطِئَةٌ.

وَانْظُرْ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ.. كَانَ إِذَا كَانَ مُحَدِّثًا، يَظُنُّ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْجَالِسِينَ فِي مَجْلِسِهِ أَنَّهُ يُحَدِّثُهُ خَاصَّةً؛ لِأَنَّهُ يُوَزِّعُ ﷺ إِقْبَالَهُ وَنَظَرَاتِهِ عَلَىٰ الْجَمِيعِ عَلَىٰ قَدْرٍ مُسْتَقِيمٍ مُتَسَاوٍ ﷺ، فَلَا يَحْسَبُ وَاحِدٌ مِنَ الْجَالِسِينَ وَلَا يَظُنُّ أَنَّهُ بَعِيدٌ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ، بَلْ كُلٌّ يَظُنُّ أَنَّهُ مِنْ خَاصَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ الْأَخَصِّينَ[1].

---

(١) أخرج ابن سعد في «**الطبقات الكبرىٰ**»: (١/ ٤٢٢ - ٤٢٥)، والترمذي في «**الشمائل**»: (ص ٣٤ - ٣٨ و ٢٧٦ - ٢٧٨، رقم ٨ و ٣٣٧)، والآجري في «**الشريعة**»: (٣/ ١٥٠٨ =

وَإِذَا صَافَحَ وَاحِدًا مِنْ أَصْحَابِهِ ﷺ لَا يَنْزِعُ يَدَهُ مِنْ يَدِ مُصَافِحِهِ حَتَّىٰ يَكُونَ الْمُسَلِّمُ -يَكُونُ الْمُصَافِحُ الْآخَرُ- هُوَ الَّذِي يَنْزِعُ يَدَهُ مِنْ يَدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ(١).

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ لَا يَقُولُ لِشَيْءٍ: (لَا) قَطُّ(٢).

=

- ١٥١٥، رقم ١٠٢٢)، والطبراني في «**المعجم الكبير**»: (٢٢/ ١٥٥ - ١٥٩، رقم ٤١٤)، من حديث: هِنْدِ بْنِ أَبِي هَالَةَ، وَكَانَ وَصَّافًا عَنْ حِلْيَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا انْتَهَىٰ إِلَىٰ قَوْمٍ جَلَسَ حَيْثُ يَنْتَهِي بِهِ الْمَجْلِسُ وَيَأْمُرُ بِذَلِكَ، يُعْطِي كُلَّ جُلَسَائِهِ بِنَصِيبِهِ، لَا يَحْسَبُ جَلِيسُهُ أَنَّ أَحَدًا أَكْرَمُ عَلَيْهِ مِنْهُ،... خَافِضُ الطَّرْفِ، نَظَرُهُ إِلَىٰ الْأَرْضِ أَطْوَلُ مِنْ نَظَرِهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ، جُلُّ نَظَرِهِ الْمُلَاحَظَةُ،...**» الحديث.

والملاحظة: أن ينظر الرجل بلحظ عينه، وهو شقها الذي يلي الصدغ والأذن، ولا يحدق إلىٰ الشيء تحديقًا.

(١) أخرج أبو داود: (٤/ ٢٥١ - ٢٥٢، رقم ٤٧٩٤)، والترمذي: (٤/ ٦٥٤ - ٦٥٥، رقم ٢٤٩٠)، وابن ماجه: (٢/ ١٢٢٤، رقم ٣٧١٦)، من حديث: أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: «**كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا اسْتَقْبَلَهُ الرَّجُلُ فَصَافَحَهُ، لَا يَنْزِعُ يَدَهُ مِنْ يَدِهِ حَتَّىٰ يَكُونَ الرَّجُلُ الَّذِي يَنْزِعُ، وَلَا يَصْرِفُ وَجْهَهُ عَنْ وَجْهِهِ حَتَّىٰ يَكُونَ الرَّجُلُ هُوَ الَّذِي يَصْرِفُهُ،...**» الحديث.

وفي رواية أبي داود: «...، **مَا رَأَيْتُ رَجُلًا أَخَذَ بِيَدِهِ فَتَرَكَ يَدَهُ، حَتَّىٰ يَكُونَ الرَّجُلُ هُوَ الَّذِي يَدَعُ يَدَهُ**».

(٢) أخرج مسلم: (٤/ ١٨٠٦، رقم ٢٣١٢)، من حديث: أَنَسٍ، قَالَ: «**مَا سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَىٰ الْإِسْلَامِ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ**»، قَالَ أَنَسٌ: فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَأَعْطَاهُ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ، فَرَجَعَ إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ: يَا قَوْمِ أَسْلِمُوا، فَإِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءً لَا يَخْشَىٰ الْفَاقَةَ.

=

مَا قَالَ (لَا) قَطُّ إِلَّا فِي تَشَهُّدِهِ لَوْلَا التَّشَهُّدُ كَانَتْ لَاؤُهُ نَعَمُ[١]

صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَمَا سُئِلَ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ، الدُّنْيَا جِيفَةٌ وَطُلَّابُهَا كِلَابٌ، وَ«**الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ؛ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلَّا ذِكْرَ اللهِ وَمَا وَالَاهُ**»[٢]، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ، وَكَمَا فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ -أَيْضًا-: «**لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، مَا سَقَىٰ كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ**»[٣].

=

والحديث بنحوه في الصحيحين من رواية جابر رضي الله عنه، قَالَ: «**مَا سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ شَيْئًا قَطُّ فَقَالَ: لَا**».

(١) البيت من قصيدة للفرزدق كما في «**ديوانه**»: (ص ٥١١) يمدح فيها زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، يقول في مطلعها:

(هَذَا الَّذِي تَعْرِفُ الْبَطْحَاءُ وَطْأَتَهُ... وَالْبَيْتُ يَعْرِفُهُ وَالْحِلُّ وَالْحَرَمُ)

(هَذَا ابْنُ خَيْرِ عِبَادِ اللهِ كُلِّهِمُ... هَذَا التَّقِيُّ النَّقِيُّ الطَّاهِرُ الْعَلَمُ)

(هَذَا ابْنُ فَاطِمَةٍ، إِنْ كُنْتَ جَاهِلَهُ... بِجَدِّهِ أَنْبِيَاءُ اللهِ قَدْ خُتِمُوا)

(٢) أخرجه الترمذي: (٤/ ٥٦١، رقم ٢٣٢٢)، وابن ماجه: (٢/ ١٣٧٧، رقم ٤١١٢)، من حديث: أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

قال الترمذي: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ»، وكذا حسنه الألباني في «**الصحيحة**»: (٦/ ٧٠٣، رقم ٢٧٩٧).

(٣) أخرجه الترمذي: (٤/ ٥٦٠، رقم ٢٣٢٠)، وابن ماجه: (٢/ ١٣٧٦، قم ٤١١٠)، من حديث: سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رضي الله عنه.

=

فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ، كَانَ النَّبِيُّ ﷺ فِي أَشَدِّ الْحَاجَةِ إِلَىٰ ثَوْبٍ -إِلَىٰ رِدَاءٍ، إِلَىٰ إِزَارٍ-، وَعَلِمَ وَاحِدٌ مِنْ أَصْحَابِهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَرَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ- بِحَاجَةِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَىٰ ذَلِكَ، فَجَاءَ إِلَىٰ الرَّسُولِ ﷺ بِثَوْبٍ، وَقَبِلَ النَّبِيُّ ﷺ الْهَدِيَّةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يَقْبَلُ الْهَدِيَّةَ وَلَا يَقْبَلُ الصَّدَقَةَ كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ، هَذَا الدِّينُ هُوَ دِينُ الْأَحَاسِيسِ، وَلَكِنَّهَا لَيْسَتِ الْأَحَاسِيسَ الْمُهَوَّمَةَ، وَإِنَّمَا هِيَ الْأَحَاسِيسُ الْمُنْضَبِطَةُ، هَذَا الدِّينُ دِينُ الْأَحَاسِيسِ الْمُنْضَبِطَةِ.

انْظُرْ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، امْرَأَةٌ مِنَ الْمِسْكِينَاتِ يُتَصَدَّقُ عَلَيْهَا بِلَحْمٍ، فَهُوَ عَلَيْهَا صَدَقَةٌ، تُهْدِيهِ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَيُطْبَخُ، وَيُقَدَّمُ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْكُلَ مِنْهُ، قَالُوا: أَعْلِمُوا النَّبِيَّ ﷺ بِمَا سَيَأْكُلُ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّمَا هُوَ لَحْمٌ تُصُدِّقَ بِهِ عَلَىٰ فُلَانَةٍ! وَمَعْلُومٌ أَنَّ الصَّدَقَةَ عَلَىٰ الرَّسُولِ ﷺ لَا تَجُوزُ، يَأْكُلُ الْهَدِيَّةَ وَيَأْخُذُهَا، وَلَا يَأْكُلُ الصَّدَقَةَ وَلَا يَقْبَلُهَا ﷺ.

مَا الَّذِي قَالَهُ الرَّسُولُ ﷺ؟

هَلْ رَدَّ هَذَا اللَّحْمَ الَّذِي جَاءَهُ هَدِيَّةً؟

قَالَ: «**هُوَ لَنَا هَدِيَّةٌ، وَعَلَيْهَا صَدَقَةٌ**» ﷺ(١).

=

قال الترمذي: «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ»، وكذا صححه لغيره الألباني في «**صحيح الترغيب والترهيب**»: (٣/ ٢٦٤، رقم ٣٢٤٠).

(١) أخرجه البخاري: (٣/ ٣٥٥، رقم ١٤٩٣)، ومسلم: (٢/ ١١٤١-١١٤٤، رقم ١٥٠٤)، من حديث: عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَشَدَّ النَّاسِ حَسَاسِيَةً فِي مَسْأَلَةِ -قَضِيَّةِ- الْمُعَامَلَةِ، لَمْ يَكُنْ يُحِدُّ الْبَصَرَ إِلَىٰ أَحَدٍ قَطُّ؛ يَعْنِي: لَا يَجْعَلُ نَظَرَهُ شَاخِصًا فِي نَظَرِ مُكَلِّمِهِ أَوْ مُقَابِلِهِ حَتَّىٰ يَكُونَ النَّاظِرُ إِلَيْهِ هُوَ الَّذِي يَخْفِضُ بَصَرَهُ كَاسِرًا لَهُ أَمَامَ بَصَرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَكِنْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَلْطَفَ النَّاسِ عِشْرَةً، وَلِذَلِكَ لَمَّا جَاءَ الرَّجُلُ الْأَعْرَابِيُّ لَا يَعْرِفُ الرَّسُولَ ﷺ، فَلَقِيَ النَّبِيَّ ﷺ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ؛ هَابَهُ حَتَّىٰ ارْتَعَدَتْ فَرَائِصُهُ -وَهِيَ تِلْكَ الْعَضَلَاتُ الدِّقَاقُ الَّتِي تَكُونُ فِي أَصْلِ الْكَتِفِ هُنَالِكَ بَيْنَ الْعُنُقِ وَبَيْنَ أَصْلِهِ مِنْ خَارِجٍ-، فَأَخَذَتْ فَرَائِصُهُ تَرْتَعِدُ، فَمَاذَا قَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ؟

قَالَ لَهُ: «**هَوِّنْ عَلَيْكَ! فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ؛ إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ**» ﷺ(١).

الْقَدِيدُ: اللَّحْمُ يُؤْخَذُ، يُقَدَّدُ، يُشَرَّحُ، يُشَرَّقُ؛ وَمِنْهُ سُمِّيَتْ أَيَّامُ التَّشْرِيقِ بِـ«**أَيَّامِ التَّشْرِيقِ**»، يَأْخُذُونَ الْهَدَايَا هُنَالِكَ، لَا الضَّحَايَا، فِي الْآفَاقِ وَالْبُلْدَانِ وَالْأَمْصَارِ، يَأْخُذُونَهَا فَيَجْعَلُونَهَا رِقَاقًا -شَرَائِحَ مِنَ اللَّحْمِ-، ثُمَّ يَجْعَلُونَهَا فِي

---

(١) أخرجه ابن ماجه: (٢/ ١١٠١، رقم ٣٣١٢)، من حديث: أَبِي مَسْعُودٍ، قَالَ:
أَتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ، فَكَلَّمَهُ، فَجَعَلَ تُرْعَدُ فَرَائِصُهُ، فَقَالَ لَهُ: «**هَوِّنْ عَلَيْكَ**...». **الحديثَ**.
وصحح إسناده الألباني في «**الصحيحة**»: (٤/ ٤٩٦، رقم ١٨٧٦).

مُقَابَلَةِ الشَّمْسِ عِنْدَ شُرُوقِهَا مُشَرِّقِينَ، فَيَحْدُثُ مَا يُسَمَّىٰ بِالْحِفْظِ عَلَىٰ سَبِيلِ التَّجْفِيفِ، وَهِيَ وَسِيلَةٌ مِنْ وَسَائِلِ الْحِفْظِ -كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ-.

فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «**هَوِّنْ عَلَيْكَ! فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ؛ إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ**» ﷺ.

إِذَنْ؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَصِلَ الْأَمْرُ عِنْدَنَا إِلَىٰ سُلُوكٍ؛ يَنْبَغِي عَلَيْكَ أَنْ تَعْرِفَهُ، وَيَنْبَغِي عَلَيْكَ أَنْ تَنْفَعِلَ بِهِ، ثُمَّ يَنْبَغِي عَلَيْكَ أَنْ تَأْخُذَ بِالْعَزْمِ الْعَازِمِ، وَبِالْأَمْرِ الْكَامِلِ الشَّامِلِ مِنْ أُمُورِ الْقُوَّةِ؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ تُطَبِّقَ دِينَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ فِي أَرْضِهِ، عَسَىٰ أَنْ نُفْلِحَ وَنَنْجَحَ.

❀❀❀❀

الْمَوْعِظَةُ الْعَاشِرَةُ:

آدَابُ الْمُعَاشَرَةِ الزَّوْجِيَّةِ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

- **أَمَّا بَعْدُ:**

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

- **أَمَّا بَعْدُ:**

مَقَامُ فَاطِمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ

فَقَدْ أَخْبَرَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهُ مَا كَانَ مِنْ أَحَدٍ أَشْبَهَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ فِي سَمْتِهِ، وَفِي دَلِّهِ، وَفِي مَشْيِهِ، وَفِي جِلْسَتِهِ، مِنْ فَاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَقْبَلَتْ قَامَ إِلَيْهَا فَقَبَّلَهَا، وَأَجْلَسَهَا فِي مَوْضِعِهِ ﷺ، وَكَانَ إِذَا أَقْبَلَ عَلَيْهَا وَذَهَبَ إِلَيْهَا؛ قَامَتْ إِلَيْهِ فَقَبَّلَتْهُ وَأَجْلَسَتْهُ ﷺ(١).

وَمَقَامُ فَاطِمَةَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَقَامٌ عَظِيمٌ جَلِيلٌ؛ دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُ الرَّسُولِ ﷺ لَمَّا أَرَادَ آلُ أَبِي جَهْلٍ أَنْ يُنْكِحُوا عَلِيًّا ابْنَتَهُمْ، وَعَلِيٌّ زَوْجُ فَاطِمَةَ بِنْتِ

---

(١) أخرج أبو داود في «**السنن**»: (٤/ ٣٥٥، رقم ٥٢١٧)، والترمذي في «**الجامع**»: (٥/ ٧٠٠، رقم ٣٨٧٢)، من حديث: عَائِشَةَ أُمِّ المُؤْمِنِينَ، قَالَتْ:
«مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَشْبَهَ سَمْتًا وَدَلًّا وَهَدْيًا بِرَسُولِ اللهِ فِي قِيَامِهَا وَقُعُودِهَا مِنْ فَاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَكَانَتْ إِذَا دَخَلَتْ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ قَامَ إِلَيْهَا فَقَبَّلَهَا وَأَجْلَسَهَا فِي مَجْلِسِهِ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا دَخَلَ عَلَيْهَا قَامَتْ مِنْ مَجْلِسِهَا فَقَبَّلَتْهُ وَأَجْلَسَتْهُ فِي مَجْلِسِهَا، فَلَمَّا مَرِضَ النَّبِيُّ ﷺ دَخَلَتْ فَاطِمَةُ فَأَكَبَّتْ عَلَيْهِ فَقَبَّلَتْهُ، ثُمَّ رَفَعَتْ رَأْسَهَا فَبَكَتْ، ثُمَّ أَكَبَّتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ رَفَعَتْ رَأْسَهَا فَضَحِكَتْ،...» الحديث.
والحديث جوَّد إسناده الألباني في هامش «**مشكاة المصابيح**»: (٣/ ١٣٢٩، رقم ٤٦٨٩)، وأصله في «الصحيحين» بنحوه، ويأتي إن شاء الله.

رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَرَادَ آلُ أَبِي جَهْلٍ أَنْ يُنْكِحُوا عَلِيًّا رضي الله عنه ابْنَتَهُمْ، فَخَطَبَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَىٰ الْمِنْبَرِ وَقَالَ: «**إِنَّ فَاطِمَةَ مِنِّي، وَإِنِّي أَتَخَوَّفُ أَنْ تُفْتَنَ فِي دِينِهَا، وَإِنِّي لَسْتُ أُحَرِّمُ حَلَالًا وَلَا أُحِلُّ حَرَامًا، وَلَكِنْ وَاللهِ لَا تَجْتَمِعُ بِنْتُ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَبِنْتُ عَدُوِّ اللهِ مَكَانًا وَاحِدًا أَبَدًا**»، فَتَرَكَ عَلِيٌّ الْخِطْبَةَ(١).

وَبَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ فِي ذَلِكَ الْبَيَانِ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ لَوْ حَدَثَ يَكُونُ فِتْنَةً لِفَاطِمَةَ -رَضِيَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَنْهَا-؛ لِأَنَّهُ تَكُونُ ضَرَّتُهَا بِنْتَ أَبِي جَهْلٍ، يَجْتَمِعَانِ تَحْتَ سَقْفٍ وَاحِدٍ، وَلِكُلٍّ مِنْ الْحَقِّ عَلَىٰ عَلِيٍّ مَا يُمَاثِلُ مَا لِلْأُخْرَىٰ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَلَا إِنَّ فَاطِمَةَ بَضْعَةٌ مِنِّي** -وَالْبَضْعَةُ: الْقِطْعَةُ مِنَ اللَّحْمِ-؛ **يُرِيبُنِي مَا رَابَهَا**». فَرَجَعَ عَلِيٌّ رضي الله عنه.

لَمَّا دَخَلَتْ فَاطِمَةُ رضي الله عنها عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ وَكَانَ مَرِيضًا، فَأَكَبَّتْ عَلَيْهِ، فَسَارَّهَا بِكَلَامٍ، وَأَسَرَّ إِلَيْهَا كَلَامًا، فَبَكَتْ، ثُمَّ أَكَبَّتْ عَلَيْهِ، فَسَارَّهَا بِكَلَامٍ فَضَحِكَتْ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: «إِنْ كُنْتُ لَأَحْسَبُ أَنَّهَا مِنْ أَكْمَلِ النِّسَاءِ، فَإِذَا هِيَ تَضْحَكُ وَتَبْكِي فِي آنٍ!!».

فَأَقْبَلَتْ عَلَيْهَا فَقَالَتْ: «بِمَ أَسَرَّ إِلَيْكِ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟».

---

(١) أخرجه البخاري في «**الصحيح**»: (٦/ ٢١٢، رقم ٣١١٠)، ومسلم في «**الصحيح**»: (٤/ ١٩٠٣، رقم ٢٤٤٩)، من حديث: الْمِسْوَر بْن مَخْرَمَةَ رضي الله عنه.

وفي رواية لهما: «**إِنَّ بَنِي هِشَامِ بْنِ الْمُغِيرَةِ اسْتَأْذَنُوا فِي أَنْ يُنْكِحُوا ابْنَتَهُمْ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، فَلَا آذَنُ، ثُمَّ لَا آذَنُ، ثُمَّ لَا آذَنُ، إِلَّا أَنْ يُرِيدَ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ أَنْ يُطَلِّقَ ابْنَتِي وَيَنْكِحَ ابْنَتَهُمْ؛ فَإِنَّمَا هِيَ بَضْعَةٌ مِنِّي، يُرِيبُنِي مَا أَرَابَهَا، وَيُؤْذِينِي مَا آذَاهَا**».

قَالَتْ: «إِنِّي إِذَنْ لَبَذِرَةٌ -وَالْبَذِرُ مِنَ الرِّجَالِ: الَّذِي يَنْقُلُ الْحَدِيثَ، وَلَا يَسْتَقِرُّ عَلَىٰ صَفْحَةِ قَلْبِهِ شَيْءٌ سَمِعَهُ، فَإِذَا جَلَسَ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ حَدَّثَ بِمَا كَانَ-، وَمَا كُنْتُ لِأُفْشِيَ سِرَّ رَسُولِ اللهِ».

فَلَمَّا قُبِضَ النَّبِيُّ ﷺ حَدَّثَتْ بِالَّذِي كَانَ، فَقَالَتْ: «إِنِّي لَمَّا أَكْبَبْتُ عَلَيْهِ الْمَرَّةَ الْأُولَىٰ، أَسَرَّ إِلَيَّ أَنَّ جِبْرِيلَ كَانَ يَأْتِيهِ فِي كُلِّ عَامٍ فِي رَمَضَانَ لِيُدَارِسَهُ الْقُرْآنَ مَرَّةً وَاحِدَةً، فَقَدْ جَاءَهُ فِي هَذَا الْعَامِ مَرَّتَيْنِ، فَعَلِمَ أَنَّ الْأَجَلَ قَدْ دَنَا، قَالَتْ: فَبَكَيْتُ، فَلَمَّا أَكْبَبْتُ عَلَيْهِ الْمَرَّةَ الثَّانِيَةَ أَسَرَّ إِلَيَّ أَنِّي -أَيْ فَاطِمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- أَسْرَعُ أَهْلِ بَيْتِهِ لُحُوقًا بِهِ، قَالَتْ: فَضَحِكْتُ»(١).

فَكَانَ الْأَمْرُ كَمَا قَالَ الرَّسُولُ ﷺ.

فَضْلُ فَاطِمَةَ وَعَظِيمُ قَدْرِهَا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَمْرٌ مَعْلُومٌ.

❀❀❀

(١) أخرجه البخاري في «**الصحيح**»: (٦/ ٦٢٧-٦٢٨، رقم ٣٦٢٣ و٣٦٢٤)، ومسلم في «**الصحيح**»: (٤/ ١٩٠٤-١٩٠٥، رقم ٢٤٥٠)، من حديث: عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قَالَتْ: أَقْبَلَتْ فَاطِمَةُ تَمْشِي كَأَنَّ مِشْيَتَهَا مَشْيُ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَرْحَبًا بِابْنَتِي**»، ثُمَّ أَجْلَسَهَا عَنْ يَمِينِهِ، أَوْ عَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ أَسَرَّ إِلَيْهَا حَدِيثًا فَبَكَتْ، ثُمَّ أَسَرَّ إِلَيْهَا حَدِيثًا فَضَحِكَتْ،... الحديث.

حِكْمَةُ النَّبِيِّ ﷺ فِي مُعَالَجَةِ الْمَشَاكِلِ الْأُسَرِيَّةِ

ذَهَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَىٰ بَيْتِ فَاطِمَةَ، فَلَمْ يَجِدْ عَلِيًّا فِي الْبَيْتِ، فَقَالَ: «أَيْنَ ابْنُ عَمِّكِ؟».

وَلَمْ يَقُلْ لَهَا: أَيْنَ زَوْجُكِ، وَإِنَّمَا قَالَ لَهَا: «**أَيْنَ ابْنُ عَمِّكِ؟**»؛ يَعْنِي زَوْجَهَا عَلِيًّا، فَذَكَّرَهَا؛ لِأَنَّهُ كَانَ قَدْ وَقَعَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ عَلِيٍّ شَيْءٌ مِنَ الْمُخَاصَمَةِ، فَأَرَادَ الرَّسُولُ ﷺ أَنْ يُذَكِّرَهَا بِالرَّحِمِ، فَقَالَ: «**أَيْنَ ابْنُ عَمِّكِ؟**».

فَقَالَتْ: كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ شَيْءٌ، فَغَاضَبَنِي، فَخَرَجَ فَلَمْ يَقِلْ عِنْدِي.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِإِنْسَانٍ: «**انْظُرْ أَيْنَ هُوَ؟**».

فَجَاءَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! هُوَ فِي المَسْجِدِ رَاقِدٌ، فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ، قَدْ سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ شِقِّهِ، وَأَصَابَهُ تُرَابٌ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَمْسَحُهُ عَنْهُ، وَيَقُولُ: «**قُمْ أَبَا تُرَابٍ! قُمْ أَبَا تُرَابٍ!**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في «**الصحيح**»: (١/ ٥٣٥، رقم ٤٤١)، ومسلم في «**الصحيح**»: (٤/ ١٨٧٤، رقم ٢٤٠٩)، من حديث سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ.

=

وَلَمْ يُرَاجِعْهُ فِي شَيْءٍ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَحْلَمُ النَّاسِ، وَأَرْحَمُ النَّاسِ، وَأَعْلَمُ النَّاسِ بِدَخَائِلِ نُفُوسِ النَّاسِ فِي تَعَامُلَاتِهِمْ وَسُلُوكِيَّاتِهِمْ، وَهَذِهِ مَسْأَلَةٌ نَفْسِيَّةٌ لَا بُدَّ مِنْ رِعَايَتِهَا، لَوْ أَنَّهُ ذَهَبَ فَقَالَ: كَيْفَ تُغْضِبُ ابْنَتِي، وَأَغْلَظَ لَهُ فِي الْقَوْلِ؛ مَا كَانَ لِيَرْجِعَ لَهُ مِنَ الْقَوْلِ مِنْ شَيْءٍ، وَلَكِنْ رُبَّمَا أَوْغَرَ صَدْرَهُ، وَمَا هَكَذَا يَكُونُ الْإِصْلَاحُ.

وَإِنَّمَا ذَهَبَ النَّبِيُّ ﷺ يُمِيطُ عَنْ ظَهْرِهِ التُّرَابَ بِيَدِهِ وَهُوَ يَقُولُ لَهُ مُكَنِّيًا إِيَّاهُ، وَكَانَتْ أَحَبَّ الْكُنَىٰ إِلَىٰ عَلِيٍّ -هُوَ أَبُو الْحَسَنِ، وَهُوَ أَبُو تُرَابٍ-؛ لِأَنَّ الَّذِي كَنَّاهُ بِهَا هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**قُمْ أَبَا تُرَابٍ! قُمْ أَبَا تُرَابٍ!**».

فَعَادَ بِهِ وَلَمْ يُفَاتِحْهُ فِي شَيْءٍ، وَانْتَهَتْ تِلْكَ الْعَاصِفَةُ بِخَيْرٍ، وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَعْلَمُ النَّاسِ بِسِيَاسَةِ النَّاسِ، وَأَعْرَفُهُمْ بِمَفَاتِيحِ قُلُوبِهِمْ.

عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه، قَالَ: اسْتَأْذَنَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، فَسَمِعَ صَوْتَ عَائِشَةَ عَالِيًا، فَلَمَّا دَخَلَ تَنَاوَلَهَا لِيَلْطِمَهَا، وَقَالَ: «أَلَا أَرَاكِ تَرْفَعِينَ صَوْتَكِ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ!!».

فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَحْجِزُهُ، وَخَرَجَ أَبُو بَكْرٍ مُغْضَبًا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ: «**كَيْفَ رَأَيْتِنِي أَنْقَذْتُكِ مِنَ الرَّجُلِ؟!**».

=

وفي رواية للبخاري: فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَمْسَحُ التُّرَابَ عَنْ ظَهْرِهِ، وَهُوَ يَقُولُ: «**اجْلِسْ يَا أَبَا تُرَابٍ**» مَرَّتَيْنِ.

قَالَ: فَمَكَثَ أَبُو بَكْرٍ أَيَّامًا، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَوَجَدَهُمَا قَدِ اصْطَلَحَا، فَقَالَ لَهُمَا: «أَدْخِلَانِي فِي سِلْمِكُمَا كَمَا أَدْخَلْتُمَانِي فِي حَرْبِكُمَا».

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**قَدْ فَعَلْنَا، قَدْ فَعَلْنَا**»(١).

❀❀❀

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ فِي «السُّنَنِ» (رَقْم ٤٩٩٩)، وَصَحَّحَ إِسْنَادَهُ ابْنُ حَجَرٍ فِي «فَتْح الْبَارِي» (٧/ ٢٧).

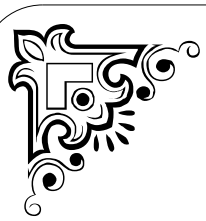

حَقِيقَةُ الْإِحْسَانِ إِلَى الزَّوْجَةِ

الْقَاعِدَةُ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي دِينِنَا الْحَنِيفِ: أَنَّ الْإِحْسَانَ إِلَىٰ الزَّوْجَةِ لَيْسَ أَنْ تَكُفَّ الْأَذَىٰ عَنْهَا، وَإِنَّمَا الْإِحْسَانُ إِلَىٰ الزَّوْجَةِ: أَنْ تَتَحَمَّلَ الْأَذَىٰ مِنْهَا.

وَهَذِهِ مَرْتَبَةٌ أَعْلَىٰ؛ لَيْسَ الْإِحْسَانُ إِلَىٰ الزَّوْجَةِ أَنْ تَكُفَّ الْأَذَىٰ عَنْهَا، وَإِنَّمَا الْإِحْسَانُ إِلَىٰ الزَّوْجَةِ أَنْ تَتَحَمَّلَ الْأَذَىٰ مِنْهَا.

وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «**خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي**» ﷺ(١).

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ سِيَاسَةً لِلزَّوْجَةِ، يُعَلِّمُنَا رَبُّنَا بِهِ ﷺ مَا نَأْخُذُ بِهِ وَمَا نَدَعُ.

كَانَ يَوْمًا عِنْدَ وَاحِدَةٍ مِنْ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ فِي نَوْبَتِهَا -هِيَ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-، فَأَرْسَلَتْ إِحْدَىٰ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ صَحْفَةً بِهَا طَعَامٌ، وَكَانَتْ صَنَاعًا تُحْسِنُ صُنْعَ

---

(١) أخرجه الترمذي في «**الجامع**»: (٥/ ٧٠٩، رقم ٣٨٩٥)، من حديث: عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وأخرجه ابن ماجه في «**السنن**»: (١/ ٦٣٦، رقم ١٩٧٧)، من حديث: ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. قال الترمذي: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ»، والحديث صححه الألباني في «**الصحيحة**»: (١/ ٥٧٥-٥٧٧، رقم ٢٨٥)، وروي عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مرفوعًا، بنحوه.

الطَّعَامِ.. فَأَرْسَلَتْ صَحْفَةً مِنْ طَعَامٍ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ عِنْدَ عَائِشَةَ فِي حُجْرَتِهَا وَمَعَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ.

جَاءَ الْغُلَامُ فَطَرَقَ أَوْ نَادَىٰ أَوِ اسْتَأْذَنَ، فَقَابَلَتْهُ عَائِشَةُ، فَقَالَ: هَذَا الطَّعَامُ أَرْسَلَتْهُ فُلَانَةُ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ -كَأَنَّهَا قَالَتْ: فِي بَيْتِي وَفِي نَوْبَتِي!!-، وَأَخَذَتْهَا غَيْرَةٌ، وَمَنِ الَّذِي يُغَارُ عَلَيْهِ إِذَا لَمْ يُغَرْ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ؟! هُوَ أَحَقُّ مَنْ يُغَارُ عَلَيْهِ ﷺ.

فَأَخَذَتْ عَائِشَةُ الصَّحْفَةَ -مِنْ فَخَّارٍ- فَضَرَبَتْ بِهَا الْأَرْضَ، فَتَنَاثَرَتْ قِطَعًا، وَانْتَثَرَ الطَّعَامُ.

وَهَذَا مَوْقِفٌ مُحْرِجٌ بِلَا شَكٍّ، إِذَا وَقَعَ مِنِ امْرَأَةِ الرَّجُلِ فِي مَحْضَرِ بَعْضِ أَصْحَابِهِ وَضِيفَانِهِ، لَوْ أَنَّ هَذَا وَقَعَ لِأَحَدِنَا لَغَضِبَ، لَا شَكَّ فِي هَذَا، وَأَمَّا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَهُوَ أَحْلَمُ النَّاسِ، قَامَ يَجْمَعُ الطَّعَامَ بِيَدِهِ الشَّرِيفَةِ وَيَقُولُ لِأَصْحَابِهِ مُعْتَذِرًا عَنْ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وَعَنْهُمْ-: «**غَارَتْ أُمُّكُمْ، غَارَتْ أُمُّكُمْ**»؛ يَعْنِي: مَسَّتْهَا الْغَيْرَةُ بِنِيرَانِهَا، فَصَنَعَتْ مَا صَنَعَتْ وَكَأَنَّهَا لَا تَدْرِي مَا تَأْتِي.

قَالَ: «**غَارَتْ أُمُّكُمْ، غَارَتْ أُمُّكُمْ**»، ثُمَّ دَعَا بِصَحْفَةِ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَنْهَا-، فَقَالَ: «**صَحْفَةٌ بِصَحْفَةٍ**»، فَأَرْسَلَ هَذِهِ مَكَانَ الَّتِي كُسِّرَتْ(١)، وَدَاوَىٰ الْأَمْرَ عِنْدَ أَصْحَابِهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، وَانْتَهَتِ الْمَسْأَلَةُ، وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ.

---

(١) أخرجه البخاري في «**الصحيح**»: (٥/ ١٢٤، رقم ٢٤٨١) و(٩/ ٣٢٠، رقم ٥٢٢٥)، من حديث: أَنَسٍ، قَالَ:

كَانَ النَّبِيُّ ﷺ عِنْدَ بَعْضِ نِسَائِهِ، فَأَرْسَلَتْ إِحْدَىٰ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ بِصَحْفَةٍ فِيهَا طَعَامٌ، فَضَرَبَتِ الَّتِي النَّبِيُّ ﷺ فِي بَيْتِهَا يَدَ الخَادِمِ، فَسَقَطَتِ الصَّحْفَةُ فَانْفَلَقَتْ، فَجَمَعَ النَّبِيُّ

وَأَمَّا الْغَيْرَةُ عَلَيْهِ ﷺ؛ فَإِنَّ عَائِشَةَ كَانَتْ عَظِيمَةَ الْغَيْرَةِ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ فِي غَيْرِ مَعْصِيَةٍ؛ يَعْنِي: مَا تَدْفَعُهَا الْغَيْرَةُ -كَمَا يَكُونُ مِنَ النِّسْوَةِ- إِلَىٰ الْإِتْيَانِ بِأَمْرٍ يَكْرَهُهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وَرَسُولُهُ ﷺ.

كَانَتْ مَرَّةً مَعَهُ فِي السَّفَرِ، وَكَانَ إِذَا أَرَادَ السَّفَرَ أَقْرَعَ بَيْنَ نِسَائِهِ -أَجْرَىٰ الْقُرْعَةَ بَيْنَ نِسَائِهِ-، فَعَلَىٰ أَيَّتِهِنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَتْ مَعَهُ، فَخَرَجَتْ عَائِشَةُ وَأُخْرَىٰ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفْرَةٍ.

فَكَانَتْ عَائِشَةُ فِي هَوْدَجٍ.. وَهُوَ مَا يَكُونُ فَوْقَ الرَّاحِلَةِ؛ فَوْقَ النَّاقَةِ أَوِ الْجَمَلِ، مِمَّا يُصْنَعُ لِلْمَرْأَةِ يُخْفِيهَا عَنْ أَعْيُنِ النَّاظِرِينَ.. فَكَانَتْ فِي هَوْدَجٍ، وَأُمُّ الْمُؤْمِنِينَ الْأُخْرَىٰ فِي هَوْدَجٍ آخَرَ.

كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُحَاذِي بِرَاحِلَتِهِ رَاحِلَةَ عَائِشَةَ، يُدْخِلُ رَأْسَهُ فِي هَوْدَجِهَا يُكَلِّمُهَا وَيُسِرُّ إِلَيْهَا؛ أَرَادَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنْ تَعْلَمَ مَنْزِلَتَهَا عِنْدَهُ، فَقَالَتْ لِأُخْتِهَا أَمِّ الْمُؤْمِنِينَ الْأُخْرَىٰ الَّتِي كَانَتْ مَعَهَا: غَيِّرِي مَعِي، فَكُونِي فِي هَوْدَجِي وَأَكُونُ فِي هَوْدَجِكِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْلَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

=

ﷺ فِلَقَ الصَّحْفَةِ، ثُمَّ جَعَلَ يَجْمَعُ فِيهَا الطَّعَامَ الَّذِي كَانَ فِي الصَّحْفَةِ، وَيَقُولُ: «**غَارَتْ أُمُّكُمْ**»، ثُمَّ حَبَسَ الخَادِمَ حَتَّىٰ أُتِيَ بِصَحْفَةٍ مِنْ عِنْدِ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا، فَدَفَعَ الصَّحْفَةَ الصَّحِيحَةَ إِلَىٰ الَّتِي كُسِرَتْ صَحْفَتُهَا، وَأَمْسَكَ المَكْسُورَةَ فِي بَيْتِ الَّتِي كَسَرَتْ.

وفي رواية للترمذي: (٣/ ٦٣٢-٦٣٣، رقم ١٣٥٩)، أنه قال ﷺ: «**طَعَامٌ بِطَعَامٍ، وَإِنَاءٌ بِإِنَاءٍ**».

فَلَمَّا سَارَ الرَّكْبُ، حَاذَىٰ النَّبِيُّ ﷺ بِرَاحِلَتِهِ الرَّاحِلَةَ الَّتِي يَظُنُّ أَنَّ عَائِشَةَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا وَالَّتِي كَانَتْ عَلَيْهَا قَبْلُ، فَأَدْخَلَ رَأْسَهُ فِي الْهَوْدَجِ وَعَائِشَةُ تَنْظُرُ مِنْ خِلَالِ السِّتْرِ -سِتْرِ الْهَوْدَجِ-، فَأَخَذَتْهَا الْغَيْرَةُ، فَأَنَاخَتْ رَاحِلَتَهَا، فَنَزَلَتْ، فَجَعَلَتْ تَضَعُ قَدَمَهَا فِي الْإِذْخِرِ -وَهُوَ حَشِيشٌ طَيِّبُ الرَّائِحَةِ يَكُونُ فِي الْحِجَازِ، وَقَدْ تَسْكُنُهُ بَعْضُ الْهَوَامِّ- فَجَعَلَتْ قَدَمَهَا فِي الْإِذْخِرِ وَهِيَ تَقُولُ: «اللَّهُمَّ سَلِّطْ عَلِيَّ حَيَّةً تَنْهَشُنِي، رَسُولُ اللهِ وَلَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقُولَ لَهُ شَيْئًا!»(١).

كَأَنَّهَا تَقُولُ: أَنَا الَّتِي أَتَيْتُ بِهِ لِنَفْسِي، أَنَا الْمَلُومَةُ! وَهِيَ تَعْلَمُ -أَيْضًا- أَنَّهَا لَوْ لُدِغَتْ لَخَفَّ إِلَيْهَا مُسْرِعًا رَسُولُ اللهِ ﷺ.

❀❀❀

(١) أخرجه البخاري في «**الصحيح**»: (٩/ ٣١٠، رقم ٥٢١١)، ومسلم في «**الصحيح**»: (٤/ ١٨٩٤، رقم ٢٤٤٥)، من حديث: عَائِشَةَ، قَالَتْ:
كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا خَرَجَ أَقْرَعَ بَيْنَ نِسَائِهِ، فَطَارَتِ الْقُرْعَةُ عَلَىٰ عَائِشَةَ وَحَفْصَةَ، فَخَرَجَتَا مَعَهُ جَمِيعًا، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا كَانَ بِاللَّيْلِ سَارَ مَعَ عَائِشَةَ يَتَحَدَّثُ مَعَهَا، فَقَالَتْ حَفْصَةُ لِعَائِشَةَ: أَلَا تَرْكَبِينَ اللَّيْلَةَ بَعِيرِي وَأَرْكَبُ بَعِيرَكِ، فَتَنْظُرِينَ وَأَنْظُرُ؟ قَالَتْ: بَلَىٰ، فَرَكِبَتْ عَائِشَةُ عَلَىٰ بَعِيرِ حَفْصَةَ، وَرَكِبَتْ حَفْصَةُ عَلَىٰ بَعِيرِ عَائِشَةَ، فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَىٰ جَمَلِ عَائِشَةَ وَعَلَيْهِ حَفْصَةُ، فَسَلَّمَ، ثُمَّ سَارَ مَعَهَا، حَتَّىٰ نَزَلُوا، فَافْتَقَدَتْهُ عَائِشَةُ فَغَارَتْ، فَلَمَّا نَزَلُوا، جَعَلَتْ تَجْعَلُ رِجْلَهَا بَيْنَ الْإِذْخِرِ وَتَقُولُ: «يَا رَبِّ، سَلِّطْ عَلَيَّ عَقْرَبًا أَوْ حَيَّةً تَلْدَغُنِي؛ رَسُولُكَ وَلَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقُولَ لَهُ شَيْئًا!».

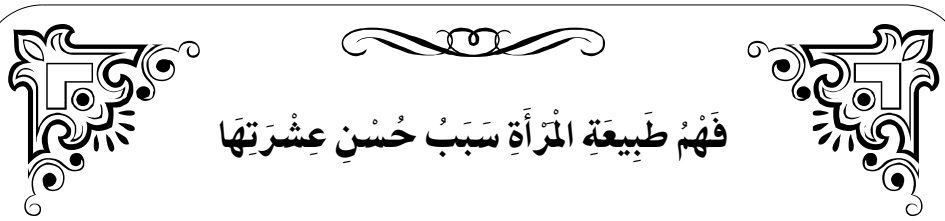

فَهْمُ طَبِيعَةِ الْمَرْأَةِ سَبَبُ حُسْنِ عِشْرَتِهَا

النَّبِيُّ ﷺ أَخْبَرَنَا عَنْ خُلُقِ الْمَرْأَةِ، فَقَالَ ﷺ: «**اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ؛ فَإِنَّ المَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلَاهُ، فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ**».

وَفِي رِوَايَةٍ: «**إِنَّ الْمَرْأَةَ كَالضِّلَعِ، إِذَا ذَهَبْتَ تُقِيمُهَا كَسَرْتَهَا، وَإِنْ تَرَكْتَهَا اسْتَمْتَعْتَ بِهَا وَفِيهَا عِوَجٌ**».

وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ: «**إِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، لَنْ تَسْتَقِيمَ لَكَ عَلَىٰ طَرِيقَةٍ، فَإِنِ اسْتَمْتَعْتَ بِهَا اسْتَمْتَعْتَ بِهَا وَبِهَا عِوَجٌ**،...»[(١)].

فَبَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ مُعَامَلَةَ الْمَرْأَةِ لَا يُمْكِنُ أَنْ تَسْتَقِيمَ إِلَّا مَعَ بَعْضِ الْمُدَارَاةِ، إِلَّا مَعَ بَعْضِ الْإِغْضَاءِ، إِلَّا مَعَ بَعْضِ الْمُسَامَحَةِ؛ وَمَعْلُومٌ «**أَنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا حَافَظَتْ عَلَىٰ خَمْسِهَا، وَصَامَتْ شَهْرَهَا، وَحَصَّنَتْ فَرْجَهَا، وَأَطَاعَتْ بَعْلَهَا؛ دَخَلَتْ جَنَّةَ رَبِّهَا**»[(٢)]؛ لِأَنَّ مِنْ خُلُقِ النِّسَاءِ كَمَا بَيَّنَ الرَّسُولُ ﷺ «**أَنَّهُنَّ يَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ**».

---

(١) أخرجه البخاري في «**الصحيح**»: (٦/ ٣٦٣، رقم ٣٣٣١)، ومسلم في «**الصحيح**»: (٢/ ١٠٩١، رقم ١٤٦٨)، من حديث: أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد في «**المسند**»: (١/ ١٩١، رقم ١٦٦١)، من حديث: عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ رضي الله عنه.

=

فَعَلَىٰ الرَّجُلِ أَنْ يَجْعَلَ هَذِهِ الْقَاعِدَةَ دَائِمًا نُصْبَ عَيْنَيْهِ وَبِإِزَاءِ عَيْنِ بَصِيرَتِهِ، الْمَرْأَةُ مَهْمَا صُنِعَ لَهَا تَجْحَدُ، وَتَكْفُرُ الْعَشِيرَ ومَنْ أَنْعَمَ عَلَيْهَا.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أُرِيتُ النَّارَ، فَإِذَا أَكْثَرُ أَهْلِهَا النِّسَاءُ؛ يَكْفُرْنَ**».

قِيلَ: أَيَكْفُرْنَ بِاللهِ؟

قَالَ: «**يَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ، وَيَكْفُرْنَ الْإِحْسَانَ، لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَىٰ إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ، ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا، قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ!**»(١).

لَوْ أَنَّنَا تَعَلَّمْنَا مِنْ نَبِيِّنَا ﷺ لَاسْتَقَامَتْ حَيَوَاتُنَا، وَلَسَكَنَتْ خُصُومَاتُنَا، وَلَقَرَّتْ وَاسْتَقَرَّتْ بُيُوتُنَا؛ لِأَنَّ الْمَرْءَ إِذَا كَانَ عَالِمًا بِأَنَّ هَذَا سَيَكُونُ حَتْمًا كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ، فَإِذَا سَمِعَهُ مِنَ الْمَرْأَةِ يَوْمًا لَا يُنْكِرُهُ، يَقُولُ: صَدَقَ النَّبِيُّ الَّذِي أَخْبَرَ ﷺ، وَهِيَ قَائِلَةٌ لَا مَحَالَةَ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَىٰ إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ، ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا، قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ!**».

فَتَجْحَدُ دَهْرًا مِنَ الْمَعْرُوفِ لِذَنْبٍ وَاحِدٍ!!

=

والحديث حسنه لغيره الألباني في «**صحيح الترغيب والترهيب**»: (٢/ ٤١٢، رقم ١٩٣٢)، وروي عن أبي هريرة وأنس رضي الله عنهما، بنحوه.

(١) أخرجه البخاري في «**الصحيح**»: ١/ ٨٣، رقم (٢٩)، ومسلم في «**الصحيح**»: ٢/ ٦٢٦، رقم (٩٠٧)، من حديث: ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما.

وفي الباب عن ابْنِ عَبَّاسٍ، وعِمْرَانَ، وابن عمر، وأبي هريرة، وأسامة بن زيد رضي الله عنهم، بنحوه.

النَّبِيُّ ﷺ يُخْبِرُنَا أَنَّ الْحَيَاةَ لَا تَسْتَقِيمُ عَلَىٰ جَادَّةٍ مُسْتَقِيمَةٍ مُضْطَرِدَةٍ بِحَالَةٍ وَاحِدَةٍ؛ لِأَنَّنَا لَسْنَا فِي الْجَنَّةِ، وَإِنَّمَا نَحْنُ فِي الدُّنْيَا، وَالدُّنْيَا دَارُ الْمُنَغِّصَاتِ وَالْمُكَدِّرَاتِ، وَالتَّعَبِ وَالنَّصَبِ، وَالْهُمُومِ وَالْغُمُومِ، وَالْأَتْرَاحِ وَالْأَحْزَانِ، وَفِيهَا مِنَ الْفَرَحِ مَا يَشُوبُ ذَلِكَ كَالْأَثَارَةِ تَلْحَقُ الْعَيْنَ.

فَبَيَّنَ لَنَا نَبِيُّنَا ﷺ طَبِيعَةَ الْمَرْأَةِ، وَقَالَ ﷺ: «**فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ** - فَقَدْ خُلِقَتْ حَوَّاءُ مِنْ ضِلَعِ آدَمَ-، **وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلَاهُ**»: فَالضِّلَعُ مِنَ الْعَمُودِ الْفَقْرِيِّ ثُمَّ يَأْتِي إِلَىٰ الْأَمَامِ؛ مِنَ الْأَضْلَاعِ مَا هُوَ ثَابِتٌ، وَمِنْهَا مَا هُوَ عَائِمٌ يَتَحَرَّكُ، حَتَّىٰ إِذَا مَا أَخَذَ الْمَرْءُ شَهِيقًا فَمَلَأَ صَدْرَهُ بِالْهَوَاءِ ارْتَفَعَتِ الْأَضْلَاعُ وَلَمْ تَثْبُتْ؛ لِأَنَّهَا لَوْ كَانَتْ ثَابِتَةً مَا اسْتَطَاعَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَتَنَفَّسَ إِلَّا فِي حُدُودِهَا، هَذَا الضِّلَعُ لَا يُؤَدِّي وَظِيفَتَهُ -يَحْمِي الرِّئَةَ وَالْقَلْبَ، وَيَسْتَقِيمُ بِهِ أَمْرُ الْإِنْسَانِ فِي حَيَاتِهِ، وَتَعْتَدِلُ بِهِ خِلْقَتُهُ- لَا يُؤَدِّي وَظِيفَتَهُ إِلَّا مَعَ اعْوِجَاجِهِ.

أَنْتَ تَصَوَّرِ الْآنَ أَنَّ الْأَضْلَاعَ كَانَتْ مُسْتَقِيمَةً، فَكُلٌّ مِنَّا أَضْلَاعُهُ مُسْتَقِيمَةٌ مِنْ أَمَامَ، وَكُلٌّ يَحْمِلُ صُنْدُوقًا وَيَمْشِي!! وَتُفَادِي أَخَاكَ حَتَّىٰ لَا يَصْطَدِمَ بِكَ!! أَوْ تَجْعَلُ هُنَاكَ مِنَ الْإِشَارَاتِ عَلَىٰ ذَلِكَ الصُّنْدُوقِ حَتَّىٰ لَا يَقَعَ التَّصَادُمُ!! فَهَذَا كُلُّهُ يُبَيِّنُ لَنَا نَبِيُّنَا ﷺ فِيهِ أَنَّنَا يَنْبَغِي أَنْ نُرَاعِيَهُ، يَقُولُ ﷺ: «**إِذَا ذَهَبْتَ تُقِيمُهَا كَسَرْتَهَا، وَإِنْ تَرَكْتَهَا اسْتَمْتَعْتَ بِهَا وَفِيهَا عِوَجٌ**».

فَعَلَىٰ الْإِنْسَانِ أَنْ يُحْسِنَ الْمُعَاشَرَةَ مَا اسْتَطَاعَ، وَقَبْلَ أَنْ يُطَالِبَ بِحَقِّهِ يَنْبَغِي عَلَيْهِ أَنْ يُؤَدِّيَ الْوَاجِبَ الَّذِي نَاطَهُ اللهُ بِعُنُقِهِ وَفَرَضَهُ عَلَيْهِ.

فَعَلَىٰ الْإِنْسَانِ إِذَا طَالَبَ الْمَرْأَةَ بِالْحَقِّ عَلَيْهَا أَنْ يُؤَدِّيَ إِلَيْهَا الْحَقَّ الَّذِي لَهَا عَلَيْهِ؛ تَسْتَقِيمُ الْحَيَاةُ؛ لِأَنَّ النَّاسَ فِيهِمْ ظُلْمٌ وَفِيهِمْ قَسْوَةٌ؛ الْأَبُ يَقُولُ لِابْنِهِ -وَلَا يُرَاعِي فِيهِ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً، وَلَا يُعْطِيهِ حَقًّا- يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَطِعْ وَالِدَيْكَ، وَإِنْ هُمَا أَمَرَاكَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ دُنْيَاكَ لَهُمَا فَاخْرُجْ**»(١).

وَيَقُولُ الْوَلَدُ لِأَبِيهِ -وَلَا يُرَاعِي حَقَّ أَبِيهِ- يَقُولُ لَهُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**»(٢).

يَقُولُ الرَّجُلُ لِامْرَأَتِهِ: «**فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ كَانَ قِيْحَةً تَبُضُّ دَمًا وَصَدِيدًا مِنْ مَفْرِقِ رَأْسِهِ إِلَىٰ أَخْمَصِ قَدَمِهِ، فَاسْتَقْبَلَتْهُ الْمَرْأَةُ فَلَعَقَتْهُ بِلِسَانِهَا، مَا وَفَّتْهُ حَقَّهُ عَلَيْهَا**»(٣)،.....

---

(١) أخرجه البخاري في «**الأدب المفرد**»: (ص ١٥، رقم ١٨)، والمروزي في «**تعظيم قدر الصلاة**»: (٢/ ٨٨٤ - ٨٨٥، رقم ٩١١)، واللالكائي في «**شرح أصول الاعتقاد**»: (٤/ ٩٠٤، رقم ١٥٢٤).

والحديث حسنه الألباني في «**صحيح الأدب المفرد**»: (ص ٣٨ - ٣٩، رقم ١٤)، وروي عن أم أيمن ومعاذ وخَبَّابِ بْنِ الْأَرَتِّ رضي الله عنهم، مرفوعًا، بنحوه.

(٢) أخرجه البخاري في «**الصحيح**»: (٨/ ١٤١، رقم ٨٩٣)، ومسلم في «**الصحيح**»: (٣/ ١٤٥٩، رقم ١٨٢٩)، من حديث: ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه أحمد في «**المسند**»: (٣/ ١٥٨-١٥٩، رقم ١٢٦١٤)، وابن أبي الدنيا في كتاب «**العيال**» ضمن موسوعة ابن أبي الدنيا الحديثية: (٤/ ٣٧٠، رقم ٥٢١)، والضياء في «**المختارة**»: (٥/ ٢٦٥-٢٦٦، رقم ١٨٩٥)، من حديث: أَنَسٍ رضي الله عنه، مرفوعًا.

=

«**وَلَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ، لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا**»(١).

وَهِيَ تَقُولُ لَهُ: أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «**كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**»، وَ«**أَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي، وَخَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ**»(٢)؟

فَكُلٌّ يُطَالِبُ بِحَقِّهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُؤَدِّيَ الَّذِي عَلَيْهِ، لَوْ جَمَعْنَا هَذِهِ الْمُتَقَابِلَاتِ اسْتَقَامَتِ الْحَيَاةُ.

وَصَلَّىٰ اللهُ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.

❀❀❀

=

والحديث صححه لغيره الألباني في «**صحيح الترغيب والترهيب**»: (٢/ ٤١٤-٤١٥، رقم ١٩٣٦)، وروي عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة وأبي أمامة ورجل من الأنصار رضي الله عنهم، مرفوعًا، بنحوه.

(١) أخرجه أبو داود في «**السنن**»: (٢/ ٢٤٤، رقم ٢١٤٠)، من حديث: قَيْسِ بْنِ سَعْدٍ رضي الله عنه، وأخرجه الترمذي في «**الجامع**»: (٣/ ٤٥٦، رقم ١١٥٩)، من حديث: أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، وأخرجه ابن ماجه في «**السنن**»: (١/ ٥٩٥، رقم ١٨٥٢)، من حديث: عَائِشَةَ رضي الله عنها، وأخرجه أيضًا: (رقم ١٨٥٣)، من حديث: عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي أَوْفَىٰ رضي الله عنه.

والحديث صححه الترمذي في «**إرواء الغليل**»: (٧/ ٥٤، رقم ١٩٩٨)، وروي -أيضًا- عن بريدة وأنس وزيد بن أرقم ومعاذ بن جبل وسُرَاقَة بْن مَالِكٍ وغَيْلَان بْن سَلَمَةَ رضي الله عنهم، مرفوعًا، بنحوه.

(٢) أخرجه الترمذي في «**الجامع**»: (٥/ ٧٠٩، رقم ٣٨٩٥)، من حديث: عَائِشَةَ رضي الله عنها، وأخرجه ابن ماجه في «**السنن**»: (١/ ٦٣٦، رقم ١٩٧٧)، من حديث: ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما.

قال الترمذي: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ»، والحديث صححه الألباني في «**الصحيحة**»: (١/ ٥٧٥-٥٧٧، رقم ٢٨٥)، وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه، مرفوعًا، بنحوه.

الْمَوْعِظَةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ:

الْكِبْرُ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

- **أَمَّا بَعْدُ:**

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

- **أَمَّا بَعْدُ:**

فَقَدْ أَخْرَجَ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»[١] بِسَنَدِهِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**».

فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا، وَأَنْ تَكُونَ نَعْلُهُ حَسَنَةً.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ: بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ**».

هَذَا الْأَمْرُ الَّذِي حَذَّرَ مِنْهُ النَّبِيُّ ﷺ، وَعَرَّفَهُ، وَحَدَّدَهُ؛ عَلَىٰ الْإِنْسَانِ أَنْ يَعْرِفَهُ، وَأَنْ يَحْذَرَهُ؛ لِأَنَّ اللهَ لَا يُسَامِحُ فِي شَيْءٍ مِنْهُ، مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ؛ لَنْ يُدْخِلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ، وَ«**مِثْقَالُ ذَرَّةٍ**»: شَيْءٌ يَسِيرٌ، شَيْءٌ قَلِيلٌ، شَيْءٌ لَا وَزْنَ لَهُ؛ وَلَكِنَّهُ إِنْ دَخَلَ الْقَلْبَ أَفْسَدَهُ، وَاسْتَحَقَّ صَاحِبُهُ النَّارَ.

«**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**».

اسْتَشْكَلَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ الْأَمْرَ، فَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ أَحَدَنَا يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا، وَأَنْ تَكُونَ نَعْلُهُ حَسَنَةً»، فَظَنَّ أَنَّ ذَلِكَ مِنَ الْكِبْرِ.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ مُفَسِّرًا، وَمُوَضِّحًا، وَمُبَيِّنًا: «**إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ**»؛ يَعْنِي: هَذَا لَيْسَ مِنَ الْكِبْرِ فِي شَيْءٍ، إِلَّا إِنْ قُصِدَ بِهِ أَنْ يَعْلُوَ النَّاسُ بِهِ النَّاسَ، فَمَنْ

---

(١) «**صحيح مسلم**»: (١/ ٩٣، رقم ٩١).
وفي رواية له: «**لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ، وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرِيَاءَ**».

قَصَدَ ذَلِكَ مِنَ النَّاسِ فَقَدِ اسْتَكْبَرَ بِهِ، وَأَمَّا أَنْ يَتَّخِذَ ذَلِكَ لِأَنَّهُ يُحِبُّهُ، وَيُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ظَاهِرُهُ جَمِيلًا مَقْبُولًا فِي غَيْرِ مَا إِسْرَافٍ، وَلَا مَخِيلَةٍ، وَلَا كِبْرِيَاءَ، وَلَا عُجْبٍ؛ فَهَذَا لَا شَيْءَ فِيهِ: «**إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ**».

«**الْكِبْرُ: بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ**».

«**بَطَرُ الْحَقِّ**»: دَفْعُهُ، وَرَدُّهُ عَلَىٰ مَنْ جَاءَ بِهِ؛ إِمَّا لِاخْتِلَافِ مَذْهَبِهِ، وَإِمَّا لِصِغَرِ سِنِّهِ، وَإِمَّا لِحَقَارَةِ أَصْلِهِ، وَإِمَّا لِفَقْرِهِ، الْمُهِمُّ أَنَّهُ يُرَدُّ عَلَيْهِ الْحَقُّ الَّذِي جَاءَ بِهِ.

رَدَّ الْمُشْرِكُونَ الْحَقَّ الَّذِي جَاءَ بِهِ الْمَأْمُونُ ﷺ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ كَانَ فَقِيرًا، وَلِأَنَّهُ ﷺ كَانَ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ أَشْيَاخِهِمْ صَغِيرًا ﴿**وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ**﴾ [الزخرف: ٣١]، لَيْسَ إِلَّا هَذَا؟! هُوَ ابْنُ أَبِي كَبْشَةَ!!

يَقُولُونَ ذَلِكَ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ، وَهُمُ الَّذِينَ وَصَفُوهُ بِالصَّادِقِ الْأَمِينِ، فَرَدُّوا الْحَقَّ عَلَيْهِ.

رَدُّ الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ مُهْلِكٌ، وَالنَّاسُ فِي رَدِّ الْحَقِّ طَبَقَاتٌ:

* مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَكْبِرُ عَلَىٰ الْحَقِّ بَعْدَ أَنْ يَعْرِفَهُ.

أَبُو جَهْلٍ وَقَدْ حَارَبَ الرَّسُولَ ﷺ حَرْبَهُ، فَلَمَّا مَكَّنَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مِنْهُ فِي بَدْرٍ -وَكَانَ بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ-؛ جَاءَ ابْنُ مَسْعُودٍ، فَلَمَّا رَآهُ مُجَنْدَلًا وَفِيهِ حَيَاةٌ قَالَ: «عَدُوُّ اللهِ أَبُو جَهْلٍ!»[1]، وَكَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ فِي بَدَنِهِ قِلَّةٌ، لَمَّا رَآهُ الْأَصْحَابُ

(١) أخرج البخاري: (٧/ ٢٩٣، رقم ٣٩٦١)، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: «أَنَّهُ أَتَىٰ أَبَا جَهْلٍ وَبِهِ رَمَقٌ يَوْمَ بَدْرٍ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: هَلْ أَعْمَدُ مِنْ رَجُلٍ قَتَلْتُمُوهُ».
=

يَوْمًا يُرِيدُ أَنْ يَأْتِيَ بِسِوَاكٍ مِنْ شَجَرَةِ أَرَاكٍ، فَانْكَشَفَتْ رِجْلُهُ، انْكَشَفَتْ سَاقُهُ، فَضَحِكَ الْأَصْحَابُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**تَضْحَكُونَ مِنْ دِقَّةِ سَاقَيْهِ، وَحُمُوشَةِ رِجْلَيْهِ؟! وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! إِنَّهُمَا لَأَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أُحُدٍ**»(١).

فَلَمَّا وَجَدَ أَبَا جَهْلٍ فِي تِلْكَ الْحَالِ؛ صَعِدَ عَلَىٰ صَدْرِهِ، وَاسْتَلَّ سَيْفَهُ -سَيْفَ نَفْسِهِ-، وَأَرَادَ أَنْ يَحْتَزَّ عُنُقَهُ؛ لِيَأْتِيَ بِرَأْسِهِ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، لَمَّا أَنْ قَعَدَ عَلَىٰ صَدْرِ أَبِي جَهْلٍ؛ قَالَ لَهُ أَبُو جَهْلٍ: «لَقَدِ ارْتَقَيْتَ مُرْتَقًىٰ صَعْبًا يَا رُوَيْعِيَ الْغَنَمِ!!»(٢).

=

وفي رواية لأبي داود (٣/ ٦٧، رقم ٢٧٠٩)، وأحمد (١/ ٤٤٤)، قَالَ: انْتَهَيْتُ إِلَىٰ أَبِي جَهْلٍ يَوْمَ بَدْرٍ وَقَدْ ضُرِبَتْ رِجْلُهُ، وَهُوَ صَرِيعٌ، وَهُوَ يَذُبُّ النَّاسَ عَنْهُ بِسَيْفٍ لَهُ، فَقُلْتُ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَخْزَاكَ يَا عَدُوَّ اللهِ، فَجَعَلْتُ أَتَنَاوَلُهُ بِسَيْفٍ لِي غَيْرِ طَائِلٍ، فَأَصَبْتُ يَدَهُ، فَنَدَرَ سَيْفُهُ، فَأَخَذْتُهُ فَضَرَبْتُهُ بِهِ، حَتَّىٰ قَتَلْتُهُ،...».

(١) أخرجه أحمد: (١/ ٤٢٠، رقم ٣٩٩١)، والبزار: (٥/ ٢٢١، رقم ١٨٢٧)، وابن حبان: (١٥/ ٥٤٦، رقم ٧٠٦٩)، والطبراني في «**المعجم الكبير**»: (٩/ ٧٥، رقم ٨٤٥٣)، وفي «**مسند الشاميين**»: (٣/ ١٧٢، رقم ٢٠١٦)، من طرق: عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ: أَنَّهُ كَانَ يَجْتَنِي سِوَاكًا مِنَ الْأَرَاكِ، وَكَانَ دَقِيقَ السَّاقَيْنِ، فَجَعَلَتِ الرِّيحُ تَكْفَؤُهُ، فَضَحِكَ الْقَوْمُ مِنْهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مِمَّ تَضْحَكُونَ؟**»، قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللهِ، مِنْ دِقَّةِ سَاقَيْهِ! فَقَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَهُمَا أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أُحُدٍ**».

والحديث صححه لغيره الألباني في «**الصحيحة**»: (٦/ ٥٧٠، رقم ٢٧٥٠)، وله شاهد من رواية علي بن أبي طالب وقُرَّةَ بنِ إِيَاسٍ رضي الله عنهما، وعن إبراهيم النخعي، مرسلًا.

(٢) أخرجه ابن هشام في «**السيرة**»: (١/ ٦٣٦)، وإبراهيم الحربي في «**غريب الحديث**»: (١/ ٣٠٦، باب صعب)، والطبري في «**تاريخه**»: (٢/ ٤٥٥)، وأبو نعيم في «**معرفة**
=

كِبْرُهُ لَا يُفَارِقُهُ؛ حَتَّىٰ فِي تِلْكَ الْحَالِ!!

كَانَ الْوَاجِبُ أَنْ يَقُولَ: أَنَا الْآنَ أَشْهَدُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، لَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ، وَأَعَزَّهُ، وَأَعَزَّ دِينَهُ...؛ وَلَكِنْ.. كِبْرُهُ لَا يُفَارِقُهُ إِلَّا بِطُلُوعِ رُوحِهِ!! «لَقَدِ ارْتَقَيْتَ مُرْتَقًىٰ صَعْبًا يَا رُوَيْعِيَ الْغَنَمِ!!»، ثُمَّ لَمْ يَرْتَضِ لِنَفْسِهِ أَنْ يُذْبَحَ بِسَيْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ، فَقَالَ: «أَدُلُّكَ عَلَىٰ مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ؛ خُذْ سَيْفِي فَاحْتَزَّ بِهِ رَقَبَتِي!!»، فَكَانَ، وَجَاءَ بِرَأْسِهِ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

«**الْكِبْرُ: بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ**».

إِذَا تَبَيَّنَ لَكَ الْحَقُّ؛ فَيَنْبَغِي عَلَيْكَ أَنْ تَتَّبِعَهُ، لَا تَنْظُرْ إِلَىٰ مَا كَانَ عَلَيْهِ الْآبَاءُ، وَلَا الْأَجْدَادُ، وَلَا مَا نَشَأْتَ عَلَيْهِ فِي بِيئَتِكَ، وَلَا مَا تَعَارَفَ عَلَيْهِ النَّاسُ؛ فَإِنَّ النَّاسَ قَدْ يُجْمِعُونَ عَلَىٰ الْخَطَأِ وَالْبَاطِلِ، لَا عَلَىٰ الصَّوَابِ؛ فَالنَّبِيُّ ﷺ بَعَثَهُ اللهُ فِي قَوْمٍ مُشْرِكِينَ، يَعْبُدُونَ الْأَوْثَانَ، وَيُقَدِّسُونَ الْأَصْنَامَ، وَيَكْفُرُونَ بِاللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَيُشْرِكُونَ بِهِ، وَكَانُوا مُطْبِقِينَ عَلَىٰ ذَلِكَ؛ فَهَلْ نَقُولُ: إِنَّ الرَّأْيَ الْعَامَّ هُوَ الَّذِي عَلَىٰ صَوَابٍ؟!!

=

الصحابة»: (٥/ ٢٤٤٣، ترجمة معاذ بن عمرو بن الجموح)، والبيهقي في «**الدلائل**»: (٣/ ٨٦)، من طريق: ابْنِ إِسْحَاقَ، قَالَ: زَعَمَ رِجَالٌ مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ، أَنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ كَانَ يَقُولُ:

قَالَ لِي: لَقَدِ ارْتَقَيْتَ مُرْتَقًىٰ صَعْبًا يَا رُوَيْعِيَ الْغَنَمِ! قَالَ: ثمَّ احْتَزَزْتُ رَأْسَهُ، ثُمَّ جِئْتُ بِهِ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَذَا رَأْسُ عَدُوِّ اللهِ أَبِي جَهْلٍ،...

كَانَ الرَّأْيُ الْعَامُّ عَلَىٰ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ!!

وَأَمَّا الْحُنَفَاءُ؛ فَكَانُوا قِلَّةً، وَأَمَّا الَّذِينَ تَعَلَّمُوا عِلْمَ الْكِتَابِ السَّابِقِ -كَوَرَقَةَ بْنِ نَوْفَلٍ-؛ فَكَانُوا لَا يُعَدُّونَ عَلَىٰ أَصَابِعِ الْيَدِ الْوَاحِدَةِ مِنْ قِلَّتِهِمْ.

فَهَلْ قَالَ الرَّسُولُ ﷺ لِهَؤُلَاءِ لَمَّا أَتَوْا بِحُجَّتِهِمْ: نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا -أَيْ: مَا وَجَدْنَا- عَلَيْهِ آبَاءَنَا؟! هَلَ سَلَّمَ لَهُمْ؟! كَانَ آبَاؤُهُمْ مُشْرِكِينَ، كَانُوا جَهَلَةً كَافِرِينَ.

فَيَنْبَغِي عَلَيْكَ أَنْ تَتَجَرَّدَ، وَقَدْ دَعَاهُمُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ إِلَىٰ ذَلِكَ، نَبِيُّكُمْ رَسُولُ اللهِ، خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، هُوَ الصَّادِقُ الْأَمِينُ؛ لَمَّا أَنْ حَارَبُوهُ، وَأَرَادُوا قَتْلَهُ؛ كَانَتْ أَمَانَاتُهُمْ عِنْدَهُ، يَأْتَمِنُونَهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ، وَيَثِقُونَ فِي عَقْلِهِ؛ وَلَكِنْ لَا يُسَلِّمُونَ لَهُ فِي دِينِهِ، يَقُولُونَ: يَعِيبُ آلِهَتَنَا وَدِينَ آبَائِنَا، وَيُسَفِّهُ حُلُومَنَا وَحُلُومَ آبَائِنَا وَأَجْدَادِنَا!!

كِبْرٌ فِي الْقُلُوبِ، وَالرَّسُولُ ﷺ عِنْدَهُمْ هُوَ الصَّادِقُ الْأَمِينُ، مَا كَانَ لِيَدَعَ الْكَذِبَ عَلَىٰ النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَىٰ رَبِّ النَّاسِ، كَمَا قَالَ أَبُو جَهْلٍ: ذَلِكَ رَجُلٌ كُنَّا نَدْعُوهُ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ بِمَا أَتَىٰ بِهِ بِالصَّادِقِ الْأَمِينِ، وَهُوَ عَلَىٰ مَا كَانَ عَلَيْهِ ﷺ.

النَّبِيُّ ﷺ لَمَّا أَتَاهُمْ بِمَا أَتَاهُمْ بِهِ، كَذَّبُوهُ؛ لِلْعَصَبِيَّةِ: أَنَتْبَعُ هَذَا؟! أَنَسِيرُ وَرَاءَهُ؟! مَا هَذَا الَّذِي جَاءَ بِهِ؟! إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ تِلْكَ الْمُوَاضَعَاتِ فِي عِنَادِهِمْ، وَكِبْرِهِمْ، وَكُفْرِهِمْ.

نَصَحَهُمُ اللهُ؛ لِأَنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَصِلَ إِلَىٰ الْحَقِّ إِلَّا إِذَا اتَّبَعْتَ هَذِهِ النَّصِيحَةَ: ﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ

﴿تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ﴾ [سبأ: ٤٦]، هَذَا مُحَمَّدٌ ﷺ!! تَقُولُونَ: مَجْنُونٌ!! لَقَدْ ظَلَّ فِيكُمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَبْلَ أَنْ يَدْعُوَكُمْ إِلَىٰ تَوْحِيدِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَهُوَ الْحَكِيمُ فِيكُمْ، وَهُوَ الصَّادِقُ وَالْأَمِينُ؛ فَمَا الَّذِي جَدَّ؟!!

النَّبِيُّ ﷺ.. عَانَدُوهُ، وَحَارَبُوهُ، فَاحْذَرْ أَنْ تَتَوَرَّطَ فِي الْكِبْرِ؛ فَإِنَّ اللهَ لَا يُدْخِلُ أَحَدًا الْجَنَّةَ وَفِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ.

«**الْكِبْرُ: بَطَرُ الْحَقِّ**»: إِيَّاكَ أَنْ تَدْفَعَ الْحَقَّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ، إِذَا تَبَيَّنَ لَكَ الْحَقُّ -مِنْ: قَالَ اللهُ، قَالَ رَسُولُهُ، قَالَ الصَّحَابَةُ-، إِذَا رَدَدْتَهُ؛ فَأَنْتَ عَلَىٰ خَطَرٍ كَبِيرٍ، لَا تَرُدُّهُ إِلَّا كِبْرًا!!

«**الْكِبْرُ: بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ**»: احْتِقَارُهُمْ، وَالنَّظَرُ إِلَيْهِمْ بِمُؤَخَّرِ الْعَيْنِ، وَعَدُّهُمْ هَبَاءً لَا قِيمَةَ لَهُمْ، وَمَا يَعْلَمُ التَّقِيَّ مِنْ غَيْرِهِ إِلَّا اللهُ، وَالْمِيزَانُ الَّذِي بِهِ الْإِكْرَامُ عِنْدَ اللهِ: تَقْوَىٰ اللهِ؛ فَالرَّسُولُ ﷺ.. يَنْصَحُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ الَّذِينَ كَذَّبُوهُ، وَكَفَرُوا بِهِ، وَعَانَدُوهُ: ﴿۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾؛ دَعُوكُمْ مِنَ الْجَمْعِ، لَا تُفَكِّرُوا فِي جَمَاعَةٍ؛ فَإِنَّ التَّفْكِيرَ الْجَمَاعِيَّ تَفْكِيرٌ كَتَفْكِيرِ الْقَطِيعِ.

وَأَنْتَ تَجِدُ الْقَطِيعَ يَسِيرُ لَا يَدْرِي إِلَىٰ أَيْنَ يَسِيرُ!! وَإِنَّمَا حَيْثُ يَقُودُهُ قَائِدُهُ، مِنَ الْأَنْعَامِ، مِنَ التُّيُوسِ، أَوْ مِنَ الْحَمِيرِ، أَوِ الْبِغَالِ!! هُوَ قَطِيعٌ يَسِيرُ!!

لَا تُفَكِّرْ تَفْكِيرًا جَمَاعِيًّا؛ لِأَنَّ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ قَدْ نَهَاكَ عَنْ ذَلِكَ: ﴿۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾.

ابْتَعِدْ قَلِيلًا كَيْ تَرَىٰ أَكْثَرَ؛ يَعْنِي: إِنْ كُنْتَ مُنْغَمِسًا فِي شَيْءٍ، فَلَنْ تَرَىٰ سِوَاهُ، فَإِذَا ابْتَعَدْتَ عَنْهُ قَلِيلًا، تَسْتَطِيعُ أَنْ تَرَاهُ.

هَذِهِ الْوَرَقَةُ فِيهَا كَلَامٌ مَكْتُوبٌ، لَوْ أَنِّي جَعَلْتُهَا هَكَذَا مُلْصَقَةً بِعَيْنَيَّ؛ فَأَنَا لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقْرَأَهَا، وَلَوِ ابْتَعَدْتُ عَنْهَا قَلِيلًا، رَأَيْتُهَا رُؤْيَةً حَسَنَةً؛ فَابْتَعِدْ قَلِيلًا كَيْ تَرَىٰ أَفْضَلَ، أَمَّا أَنْ تَكُونَ مُنْغَمِسًا، تُقَادُ كَمَا يُقَادُ الْقَطِيعُ؛ هَذَا حَرَامٌ، هَذَا لَا يَجُوزُ، تَدْمِيرٌ لِلْأُمَّةِ، وَعَبَثٌ بِمُقَدَّرَاتِهَا وَبِمُسْتَقْبَلِهَا.

الْحَقُّ فِي: **قَالَ اللهُ، قَالَ رَسُولُهُ، قَالَ الصَّحَابَةُ.**

هَذَا هُوَ الْحَقُّ، وَهَذَا هُوَ الْعِلْمُ، وَهَذَا هُوَ الدِّينُ، وَهَذِهِ هِيَ الْعِصْمَةُ؛ لِأَنَّ اللهَ جَعَلَ الْعِصْمَةَ فِي الْوَحْيِ الْمَعْصُومِ.

أَسْأَلُ اللهَ -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ- أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَنَا، وَأَنْ يُحَسِّنَ أَفْعَالَنَا وَأَعْمَالَنَا، إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.

الْمَوْعِظَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ:

هَلْ عَمِلْتَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ؟!

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

- **أَمَّا بَعْدُ:**

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

- **أَمَّا بَعْدُ:**

فَعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذْ بَصُرَ بِجَمَاعَةٍ، فَقَالَ: «**عَلَامَ اجْتَمَعَ عَلَيْهِ هَؤُلَاءِ؟**».

قِيلَ: عَلَىٰ قَبْرٍ يَحْفِرُونَهُ.

قَالَ: فَفَزِعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَبَدَرَ بَيْنَ يَدَيْ أَصْحَابِهِ مُسْرِعًا حَتَّىٰ انْتَهَىٰ إِلَىٰ الْقَبْرِ، فَجَثَا عَلَيْهِ، قَالَ الْبَرَاءُ: فَاسْتَقْبَلْتُهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ لِأَنْظُرَ مَا يَصْنَعُ، فَبَكَىٰ حَتَّىٰ بَلَّ الثَّرَىٰ مِنْ دُمُوعِهِ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا، قَالَ: «**أَيْ إِخْوَانِي، لِمِثْلِ الْيَوْمِ فَأَعِدُّوا؟**»(١).

وَالنَّبِيُّ ﷺ كَانَ دَائِمَ الذِّكْرِ لِلْمَوْتِ، فَكَانَ لَا يُفَارِقُهُ ذِكْرُ الْمَوْتِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي يَعْرِفُ وَظِيفَتَهُ فِي الْحَيَاةِ يَعْرِفُ أَنَّهُ سَوْفَ يَلْقَىٰ اللهَ، وَسَوْفَ يَسْأَلُهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَنْ كُلِّ مَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ، وَأَسَرَّ وَأَعْلَنَ.

فَالنَّبِيُّ ﷺ قَبْلَ الْوَفَاةِ ذَهَبَ إِلَىٰ الْبَقِيعِ، ثُمَّ رَجَعَ، وَكَانَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَدِ افْتَقَدَتْهُ، فَلَمَّا جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ لَهَا: «**إِنَّهُ كَانَ يَسْتَغْفِرُ لِأَهْلِ الْبَقِيعِ**»(٢).

---

(١) أخرجه ابن ماجه في «**السنن**»: (٢/ ١٤٠٣، رقم ٤١٩٥)، وأحمد في «**المسند**»: (٤/ ٢٩٤) واللفظ له.

والحديث حسنه الألباني في «**الصحيحة**»: (٤/ ٣٤٤-٣٤٥، رقم ١٧٥١).

(٢) أخرجه مسلم في «**الصحيح**»: (٢/ ٦٦٩-٦٧٠، رقم ٩٧٤)، من حديث: عَائِشَةَ، قالت:

قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ جِبْرِيلَ أَتَانِي، فَقَالَ: إِنَّ رَبَّكَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَأْتِيَ أَهْلَ الْبَقِيعِ فَتَسْتَغْفِرَ لَهُمْ»، قَالَتْ: فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَخْرُجُ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ إِلَىٰ الْبَقِيعِ، فَيَقُولُ: «**السَّلَامُ**

فَقَالَتْ: وَارَأْسَاهُ!

فَقَالَ: «**بَلْ أَنَا وَارَأْسَاهُ يَا عَائِشَةُ!**»(١)، ثُمَّ دَخَلَ فِي مَرَضِ الْمَوْتِ حَتَّىٰ قَبَضَهُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﷺ.

فَعَلَىٰ الْإِنْسَانِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ مَسْئُولٌ مَسْئُولِيَّةً فَرْدِيَّةً وَمُبَاشِرَةً عَنْ كُلِّ مَا يَأْتِي بِهِ مِنَ الْأُمُورِ الِاخْتِيَارِيَّةِ بِطَوَاعِيَّتِهِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ، وَأَنَّهُ مَسْئُولٌ عَنْ ذَلِكَ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَأَنَّهُ لَنْ يَنْفَعَ أَحَدٌ أَحَدًا، وَإِنَّمَا يَنْفَعُ الْإِنْسَانَ عَمَلُهُ، فَمَنْ قَدَّمَ الْعَمَلَ الصَّالِحَ؛ وَجَدَهُ فِي قَبْرِهِ، وَوَجَدَهُ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ، وَوَجَدَهُ عَلَىٰ الصِّرَاطِ، وَوَجَدَهُ فِي جَنَّةِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

وَمَنْ قَدَّمَ الْعَمَلَ الطَّالِحَ السَّيِّئَ؛ وَجَدَهُ فِي قَبْرِهِ، وَوَجَدَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الْعَرَصَاتِ عِنْدَ سُؤَالِ رَبِّهِ إِيَّاهُ، وَكَذَلِكَ يَجِدُهُ عَلَىٰ الصِّرَاطِ؛ فَإِنَّهُ يَتَعَثَّرُ أَوْ يَسْقُطُ فِي النَّارِ وَبِئْسَ الْقَرَارُ، ثُمَّ يَجِدُهُ بَعْدَ ذَلِكَ عَذَابًا مُقِيمًا فِي النَّارِ إِنْ لَمْ يَغْفِرْ لَهُ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ.

=

عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، وَأَتَاكُمْ مَا تُوعَدُونَ غَدًا، مُؤَجَّلُونَ، وَإِنَّا -إِنْ شَاءَ اللهُ- بِكُمْ لَاحِقُونَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأَهْلِ بَقِيعِ الْغَرْقَدِ».

(١) أخرجه البخاري في «**الصحيح**»: (١٠/ ١٢٣، رقم ٥٦٦٦) و(١٣/ ٢٠٥، رقم ٧٢١٧)، عن القَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ، قَالَ: قَالَتْ عَائِشَةُ: وَارَأْسَاهْ! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**بَلْ أَنَا وَارَأْسَاهْ!**...» الحديث.

فَعَلَىٰ الْإِنْسَانِ أَنْ يَلْمَحَ هَذَا الْمَلْمَحَ، وَأَنْ يَجْتَهِدَ فِي تَأْصِيلِهِ فِي نَفْسِهِ، وَأَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ مَسْئُولٌ مَسْئُولِيَّةً فَرْدِيَّةً مُبَاشِرَةً عَنْ كُلِّ مَا يَأْتِي بِهِ، وَعَنْ كُلِّ مَا يَتَكَلَّمُ بِهِ، وَعَنْ كُلِّ مَا يُسِرُّهُ فِي قَلْبِهِ، وَيَعْتَقِدُهُ فِي ضَمِيرِهِ، هُوَ مَسْئُولٌ مَسْئُولِيَّةً مُبَاشِرَةً، وَأَنَّهُ لَنْ يَنْفَعَهُ أَحَدٌ؛ إِلَّا إِذَا قَدَّمَ الْعَمَلَ الصَّالِحَ.

وَمِنَ الْمَعْلُومِ: أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا مَاتَ؛ فَإِنَّ مَنْ كَانَ حَوْلَهُ مِمَّنْ يُحِبُّهُ.. إِذَا كَانُوا مِنَ النِّسَاءِ؛ كَانُوا مَعَهُ إِلَىٰ بَابِ الدَّارِ، وَأَمَّا إِذَا كَانُوا مِنَ الرِّجَالِ؛ فَمَعَهُ إِلَىٰ بَابِ الْقَبْرِ، ثُمَّ يَضَعُونَهُ فِي التُّرَابِ وَيَرْجِعُونَ، وَتَمْضِي الْحَيَاةُ فِي سَبِيلِهَا الْمَعْلُومِ.

فَعَلَىٰ الْإِنْسَانِ أَلَّا يُعَوِّلَ عَلَىٰ أَحَدٍ، وَأَنْ يَجْتَهِدَ فِي أَنْ يُرْضِيَ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَأَنْ يَعْرِفَ الْوَظِيفَةَ الَّتِي كَلَّفَهُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بِهَا فِي هَذَا الْوُجُودِ؛ لِأَنَّ اللهَ لَمْ يَخْلُقِ النَّاسَ عَبَثًا، وَلَمْ يَتْرُكْهُمْ سُدًى، وَإِنَّمَا خَلَقَهُمْ لِغَايَةٍ، وَأَرْسَلَ إِلَيْهِمُ الرُّسُلَ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْكُتُبَ، ثُمَّ تَرَكَهُمْ فِي فُسْحَةٍ مِنَ الْعُمُرِ، حَدَّدَهَا بَدْءًا وَمُنْتَهًىٰ، فَإِذَا مَا انْتَهَتْ؛ قَابَلُوا بَعْدَ ذَلِكَ مَا يَكُونُ مِنْ أَوَّلِ مَنَازِلِ الدَّارِ الْآخِرَةِ، وَهُوَ مَا يَكُونُ فِي الْقَبْرِ(١).

---

(١) أخرج الترمذي في «**الجامع**»: (٤/ ٥٥٣-٥٥٤، رقم ٢٣٠٨)، وابن ماجه: (٢/ ١٤٢٦، رقم ٤٢٦٧)، عَنْ هَانِئٍ مَوْلَىٰ عُثْمَانَ، قَالَ: كَانَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ إِذَا وَقَفَ عَلَىٰ قَبْرٍ يَبْكِي حَتَّىٰ يَبُلَّ لِحْيَتَهُ، فَقِيلَ لَهُ: تَذْكُرُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ وَلَا تَبْكِي، وَتَبْكِي مِنْ هَذَا! قَالَ:
إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ الْقَبْرَ أَوَّلُ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ؛ فَإِنْ نَجَا مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ، وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ**».
قَالَ: وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا رَأَيْتُ مَنْظَرًا قَطُّ إِلَّا وَالْقَبْرُ أَفْظَعُ مِنْهُ**».
=

وَالنَّبِيُّ ﷺ أَخْبَرَنَا أَنَّ الْإِنْسَانَ مَهْمَا كَانَ صَالِحًا؛ فَلَا بُدَّ أَنْ يَجِدَ فِي الْقَبْرِ شِدَّةً[١]، فَهَذِهِ الْمِحْنَةُ وَهَذِهِ الْكُرْبَةُ إِذَا مَا كَانَتْ يَسِيرَةً، وَانْكَشَفَتْ وَانْجَلَتْ؛ فَمَا بَعْدَهَا أَيْسَرُ مِنْهَا، وَإِذَا كَانَتْ عَسِيرَةً، فَلَمْ تَنْكَشِفْ وَلَمْ تَنْجَلِ؛ فَإِنَّ مَا بَعْدَهَا يَكُونُ أَعْسَرَ مِنْهَا.

وَالنَّبِيُّ ﷺ أَخْبَرَنَا أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ؛ انْضَمَّ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّىٰ تَخْتَلِفَ أَضْلَاعُهُ[٢]؛ يَعْنِي: حَتَّىٰ تَصِيرَ الْأَضْلَاعُ الْيُسْرَىٰ إِلَىٰ جِهَةِ الْيَمِينِ، وَالْيُمْنَىٰ إِلَىٰ جِهَةِ الْيَسَارِ.

=

قال الترمذي: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ»، وكذا حسنه الألباني في «**صحيح الترغيب والترهيب**»: (٣/ ٣٩١-٣٩٢، رقم ٣٥٥٠).

(١) أخرج إسحاق في «**المسند**»: (٢/ ٥٣٢، رقم ١١١٤)، وأحمد: (٦/ ٥٥ و٩٨)، وابنه عبد الله في «**السنة**»: (٢/ ٥٩٤، رقم ١٤١٢)، وأبو القاسم البغوي في «**حديث علي بن الجعد**»: (ص٢٣٣، رقم ١٥٤٨)، وابن حبان: (٧/ ٣٧٩، رقم ٣١١٢)، والطبراني في «**الأوسط**»: (٥/ ٤٣-٤٤، رقم ٤٦٢٧)، من حديث: عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ، أَنَّهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ لِلْقَبْرِ ضَغْطَةً، لَوْ نَجَا مِنْهَا أَحَدٌ لَنَجَا مِنْهَا سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ**».
والحديث صححه بشواهده الألباني في «**الصحيحة**»: (٤/ ٢٦٨-٢٧١، رقم ١٦٩٥)، وله شاهد من رواية ابن عباس رضي الله عنهما، مرفوعًا، بنحوه.

(٢) أخرج أبو داود: (٤/ ٢٣٩-٢٤٠، رقم ٤٧٥٣ و٤٧٥٤)، وأحمد: (٤/ ٢٨٧-٢٨٨)، من حديث: الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي جِنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَانْتَهَيْنَا إِلَىٰ الْقَبْرِ وَلَمَّا يُلْحَدْ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ كَأَنَّ عَلَىٰ رُءُوسِنَا الطَّيْرَ،... فذكر حديث القبر الطويل، وفيه:

=

كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَقُولُ: نَحْنُ نَضَعُ الْمَيِّتَ فِي الْقَبْرِ، وَنَضَعُهُ عَلَىٰ الْأَرْضِ، كَمَا هِيَ الْمَقَابِرُ الْحَدِيثَةُ عَلَىٰ حَسَبِ مَا دَعَتْ إِلَيْهِ الضَّرُورَةُ؛ فَأَيْنَ هُوَ انْضِمَامُ الْقَبْرِ هَذَا؟!

كَذَلِكَ مَا يَكُونُ مِنَ السُّؤَالِ مِنَ الْمَلَكَيْنِ لِلْمَيِّتِ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ، وَانْصَرَفَ عَنْهُ الْمُشَيِّعُونَ؛ فَإِنَّهُ يَأْتِيهِ مَلَكَانِ وَصَفَهُمَا النَّبِيُّ ﷺ بِأَوْصَافِهِمَا، فَإِنَّهُمَا أَزْرَقَانِ، يَنْقَدِحُ مِنْ أَعْيُنِهِمَا الشَّرَرُ، يَخُدَّانِ الْأَرْضَ بِأَنْيَابِهِمَا، يَتَعَثَّرَانِ فِي شُعُورِهِمَا، مَعَهُمَا مِرْزَبَةٌ لَوِ اجْتَمَعَ الثَّقَلَانِ عَلَىٰ أَنْ يُحَرِّكُوهَا مِنْ مَوْضِعِهَا قِيدَ أُنْمُلَةٍ مَا اسْتَطَاعُوا، فَيُجْلِسَانِهِ، وَيَسْأَلَانِهِ ثَلَاثَةَ أَسْئِلَةٍ: مَنْ رَبُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ وَمَا تَقُولُ فِي الرَّجُلِ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ ﷺ؟(١)

=

«...، **وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ...، يَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ! هَاهْ! لَا أَدْرِي!! فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ! هَاهْ! لَا أَدْرِي!! فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ! هَاهْ! لَا أَدْرِي!! فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ كَذَبَ، فَافْرِشُوا لَهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَىٰ النَّارِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا، وَسَمُومِهَا، وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّىٰ تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ، ثُمَّ يُقَيَّضُ لَهُ أَعْمَىٰ أَبْكَمُ مَعَهُ مِرْزَبَّةٌ مِنْ حَدِيدٍ، لَوْ ضُرِبَ بِهَا جَبَلٌ لَصَارَ تُرَابًا، فَيَضْرِبُهُ بِهَا ضَرْبَةً يَسْمَعُهَا مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ،...**».

والحديث صححه الألباني في «**صحيح الترغيب والترهيب**»: (٣/ ٣٩٧-٤٠١، رقم ٣٥٥٨)، وأصله في الصحيحين مختصرًا، والحديث في الصحيحين -أيضًا- من رواية أنس وأبي هريرة رضي الله عنهما، بنحوه.

(١) أخرج الترمذي: (٣/ ٣٧٢، رقم ١٠٧١)، من حديث: أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ:

=

وَبَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ الْإِجَابَةَ فِي الْقَبْرِ يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا كَثِيرٌ مِنَ الْآثَارِ؛ فَإِمَّا نَعِيمٌ فِي الْقَبْرِ، وَإِمَّا عَذَابٌ.

وَالرَّسُولُ ﷺ لَمَّا أَخْبَرَنَا عَنْ هَذَا السُّؤَالِ فِي الْقَبْرِ؛ قَدْ كَشَفَ لَنَا مَا نُسْأَلُ عَنْهُ، وَأَعْطَانَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ الْمَنْهَجَ الَّذِي نُذَاكِرُهُ؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ نَسْتَخْلِصَ الْأَجْوِبَةَ عَنْ هَذِهِ الْأَسْئِلَةِ، وَأَعْطَانَا فُسْحَةً مِنَ الْوَقْتِ، قَدْ تَمْتَدُّ أَحْيَانًا إِلَىٰ قَرْنٍ مِنَ الزَّمَانِ.

=

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا قُبِرَ الْمَيِّتُ** - أَوْ قَالَ: **أَحَدُكُمْ** - **أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ، يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا: الْمُنْكَرُ، وَلِلْآخَرِ: النَّكِيرُ**،...». الحديث.

وزاد الطبراني في «**الأوسط**»: (٥/ ٤٤-٤٥، رقم ٤٦٢٩) من رواية أُخْرَىٰ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: «...، **أَعْيُنُهُمَا مِثْلُ قُدُورِ النُّحَاسِ، وَأَنْيَابُهُمَا مِثْلُ صَيَاصِي الْبَقَرِ، وَأَصْوَاتُهُمَا مِثْلُ الرَّعْدِ**،...».

وَنَحْوُهُ عند عَبْدِ الرَّزَّاقِ في «**المصنف**»: (٣/ ٥٨٢، رقم ٦٧٣٨)، وابن أبي زمنين في «**أصول السنة**»: (ص١٥١، رقم ٨٠)، وابن أبي داود في «**البعث**»: (ص١٨-١٩، رقم ٧)، ومن طريقه الأصبهاني في «**الحجة**»: (١/ ٤٧٦-٤٧٧، رقم ٣٢٤-٣٢٥)، من حديث: عمر رضي الله عنه، مرفوعًا، وَزَادَ: «...، **يَحْفِرَانِ الْأَرْضَ بِأَنْيَابِهِمَا، وَيَطَآنِ فِي أَشْعَارِهِمَا، مَعَهُمَا مِرْزَبَّةٌ لَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهَا أَهْلُ مِنًىٰ لَمْ يُطِيقُوا رَفْعَهَا، هِيَ أَيْسَرُ عَلَيْهِمَا مِنْ عَصَاتِي هَذِهِ**،...»، وروي نحوه -أيضًا- عن البراء وابن عباس رضي الله عنهم، مرفوعًا، وعن أبي الدرداء رضي الله عنه، موقوفًا.

قال الترمذي: «حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ»، وكذا حسنه الألباني في «**الصحيحة**»: (٣/ ٣٧٩-٣٨٠، رقم ١٣٩١)، وفي «**صحيح الترغيب والترهيب**»: (٣/ ٤٠٢، رقم ٣٥٦٠).

عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ؛ كُلُّ مُكَلَّفٍ مَعَهُ فُسْحَةٌ مِنَ الْوَقْتِ؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُذَاكِرَ مُذَاكَرَةً صَحِيحَةً، وَأَنْ يَجْتَهِدَ فِي الْحُصُولِ عَلَىٰ الْأَجْوِبَةِ، وَالْأَجْوِبَةُ يَسِيرَةٌ: رَبِّيَ اللهُ، دِينِيَ الْإِسْلَامُ، نَبِيِّي مُحَمَّدٌ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَأَزْكَىٰ السَّلَامِ-؛ وَلَكِنْ هَلْ هَذِهِ الْإِجَابَةُ تَأْتِي بِنْتَ لَحْظَتِهَا؟!!

هَلِ الْإِنْسَانُ يُجِيبُ عِنْدَمَا يُسْأَلُ هَذِهِ الْأَسْئِلَةَ لِأَنَّهُ يَكُونُ دَائِمًا مُثَبَّتًا، حَتَّىٰ وَلَوْ كَانَ حَافِظًا لِلْإِجَابَةِ، وَلَكِنَّهُ مُنْكِرُ الْقَلْبِ لِهَذِهِ الْإِجَابَةِ، لَيْسَ بِمُؤْمِنٍ إِيمَانًا صَحِيحًا؛ فَهَلْ هُوَ يَسْتَطِيعُ حِينَئِذٍ أَنْ يُجِيبَ بِمَحْصُولِ اللَّحْظَةِ الَّتِي يُسْأَلُ فِيهَا؟!!

إِنَّ الَّذِي يَجْرِي فِي الْقَبْرِ يُشْبِهُهُ مَا يَجْرِي فِي لِجَانِ الِاخْتِبَارَاتِ؛ فَإِنَّ الطَّالِبَ الَّذِي يَكِدُّ، وَيَجِدُّ، وَيَتْعَبُ، وَيُذَاكِرُ، وَيَدَعُ الشَّهَوَاتِ وَالْمَلَذَّاتِ وَاللَّعِبَ طِيلَةَ عَامٍ كَامِلٍ؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَكُونَ جَاهِزًا بِجَاهِزِيَّةٍ حَقِيقِيَّةٍ لِلْإِجَابَةِ عَنِ الْأَسْئِلَةِ الَّتِي تُطْرَحُ عَلَيْهِ فِي لَجْنَةِ الِاخْتِبَارِ؛ إِذَا مَا جَرَىٰ قَلَمُهُ سَيَّالًا عَلَىٰ وَرَقَةِ إِجَابَتِهِ؛ فَهَذَا لَيْسَ بِابْنِ لَحْظَتِهِ، وَلَا بِابْنِ سَاعَتِهِ، وَإِنَّمَا هَذَا مَحْصُولُ وَنَتِيجَةُ عَامٍ كَامِلٍ مِنَ الْكَدِّ، وَالْجِدِّ، وَالْكَدْحِ، وَالسَّهَرِ، وَالْعَرَقِ، وَالْمُعَانَاةِ.

وَكَذَلِكَ الْفَاشِلُ الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُجِيبَ إِذَا مَا سُئِلَ؛ حَيْرَتُهُ، وَمَا هُوَ فِيهِ مِنَ الِارْتِبَاكِ وَالِاضْطِرَابِ، لَيْسَ بِابْنِ لَحْظَتِهِ؛ وَإِنَّمَا هُوَ حَصِيلَةُ عَامٍ مَضَىٰ مِنَ الْفَشَلِ، مِنَ الْعَبَثِ، مِنَ الضَّيَاعِ، مِنَ الشَّتَاتِ؛ فَحِينَئِذٍ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُجِيبَ عَنِ الْأَسْئِلَةِ الْمَطْرُوحَةِ عَلَيْهِ.

كَذَلِكَ الشَّأْنُ فِي الْقَبْرِ: مَنْ رَبُّكَ؟

الْمَرْءُ يَعْرِفُ الْإِجَابَةَ؛ وَلَكِنَّهُ لَنْ يُثَبَّتَ فِي الْقَبْرِ إِلَّا إِذَا بَذَلَ الْمَجْهُودَ؛ فَإِنَّ اللهَ ﷻ يُثَبِّتُ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

فَإِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ كَادًّا جَادًّا، آخِذًا الْأُمُورَ بِلَا عَبَثٍ وَلَا لَعِبٍ، مُلْتَفِتًا إِلَىٰ مَصَالِحِهِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا؛ فَإِنَّهُ يَسْتَطِيعُ الْإِجَابَةَ حِينَئِذٍ بِيُسْرٍ وَسُهُولَةٍ.

وَأَمَّا إِذَا كَانَ مُضَيِّعًا لِرَأْسِ الْمَالِ -أَعْنِي: لِعُمُرِهِ-، مُبَدِّدًا لِأَوْقَاتِهِ، مُسْتَهِينًا بِحَيَاتِهِ؛ فَهَذَا إِذَا مَا سُئِلَ فِي قَبْرِهِ؛ فَإِنَّهُ لَنْ يَسْتَطِيعَ الْإِجَابَةَ.

فَعَلَىٰ الْمَرْءِ أَنْ يُعِدَّ لِذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ مَصِيرٌ مَحْتُومٌ، فَصَيْرُورَةُ الْمَرْءِ إِلَىٰ الْمَوْتِ قَدَرٌ مَحْتُومٌ، وَهَذِهِ الصَّيْرُورَةُ صَيْرُورَةٌ حَتْمِيَّةٌ، لَنْ يَفِرَّ مِنْهَا أَحَدٌ.

صَيْرُورَةُ الْإِنْسَانِ إِلَىٰ الْمَوْتِ صَيْرُورَةٌ حَتْمِيَّةٌ.

لَنْ يُفْلِتَ أَحَدٌ مِنْ هَذَا الْمَمَاتِ بِحَالٍ؛ وَلَكِنَّ الْمَسْأَلَةَ إِنَّمَا تَكُونُ عَلَىٰ حَسَبِ الضِّيقِ وَالِاتِّسَاعِ فِي الْمَسَافَةِ الزَّمَنِيَّةِ، عَلَىٰ حَسَبِ مَا يُقَدِّرُهُ رَبُّ الْبَرِيَّةِ؛ فَإِنَّ اللهَ جَعَلَ لِلْأَعْمَارِ بَدْءًا وَمُنْتَهًىٰ، وَلَنْ تَزِيدَ بِحَالٍ أَبَدًا.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ مِسَاحَةَ الشَّكْلِ إِذَا كَانَ مُسْتَطِيلًا -مَثَلًا-؛ فَإِنَّهَا تَكُونُ حَاصِلَ ضَرْبِ الْبُعْدَيْنِ، فَهَذَا حِينَئِذٍ تَكُونُ مِسَاحَتُهُ كَبِيرَةً أَوْ صَغِيرَةً عَلَىٰ حَسَبِ ذَلِكَ، فَإِذَا كَانَ عِنْدِي أَنَا ضِلْعٌ ثَابِتٌ -وَهُوَ الْبَدْءُ وَالْمُنْتَهَىٰ فِي الْحَيَاةِ-؛ فَلِمَ لَا تَتَّسِعُ الْحَيَاةُ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ؟!

وَلِمَ لَا يَأْتِي الْمَرْءُ بِعَمَلِ أُسْبُوعٍ مِنَ الْخَيْرَاتِ وَفِعْلِ الصَّالِحَاتِ فِي يَوْمٍ؟!

وَلِمَ لَا يَأْتِي بِعَمَلِ شَهْرٍ فِي أُسْبُوعٍ؟!

وَلِمَ لَا يَكِدُّ وَيَكْدَحُ؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَأْتِيَ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ الَّذِي يَأْتِي بِهِ غَيْرُهُ فِي عَامٍ؛ يَأْتِي هُوَ بِهِ فِي شَهْرٍ وَاحِدٍ؟!

لِمَ لَا يَسْتَثْمِرُ الْمَرْءُ أَوْقَاتَهُ؟!

وَالنَّبِيُّ ﷺ كَانَ دَائِمَ الذِّكْرِ لِرَبِّهِ؛ قَائِمًا، وَقَاعِدًا، وَعَلَىٰ جَنْبٍ.

فَالنَّبِيُّ ﷺ عَلَّمَنَا كَيْفَ نَعْبُدُ، وَهَذِهِ عِبَادَةٌ يَسِيرَةٌ؛ بَلْ جَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ هَذِهِ الْعِبَادَةَ عِوَضًا عَنِ الْمَالِ الْمَفْقُودِ.

الْمَرْءُ إِذَا مَا لَمْ يُوَسَّعْ عَلَيْهِ بِالْمَالِ، وَلَمْ يَجِدْ مَا يُنْفِقُهُ فِي وُجُوهِ الْخَيْرِ مِنْ مَالِهِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يَكُونُ لَهُ وَجْهٌ آخَرُ يَسْتَطِيعُ الْمَرْءُ أَنْ يُعَوِّضَهُ بِهِ، فَقَدْ جَاءَ فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ إِلَىٰ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالُوا: ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالدَّرَجَاتِ الْعُلَىٰ، وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ.

فَقَالَ: «**وَمَا ذَاكَ؟**».

قَالُوا: يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ وَلَا نَتَصَدَّقُ، وَيُعْتِقُونَ وَلَا نُعْتِقُ.

فَقَالَ رَسُولَ اللهِ ﷺ: «**أَفَلَا أُعَلِّمُكُمْ شَيْئًا تُدْرِكُونَ بِهِ مَنْ سَبَقَكُمْ، وَتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ بَعْدَكُمْ، وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إِلَّا مَنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعْتُمْ؟**».

قَالُوا: بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللهِ.

قَالَ: «**تُسَبِّحُونَ، وَتُكَبِّرُونَ، وَتَحْمَدُونَ، دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ مَرَّةً**»(١).

فَهَذِهِ عِلَاوَةٌ مِنَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ عَظِيمَةٌ، وَقَلَّ مَنْ يَفْعَلُهَا، فَلَا يَفْعَلُهَا إِلَّا الْمُوَفَّقُ، فَإِنَّهُ بَعْدَ أَنْ يَفْرُغَ مِنَ الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ -سَوَاءٌ كَانَ فِي الْجَمَاعَةِ، أَوْ كَانَ يُصَلِّي صَلَاةً فَرْدِيَّةً-؛ فَإِنَّهُ يَطِيرُ كَالطَّائِرِ الَّذِي كَانَ مَحْبُوسًا فِي قَفَصٍ!!

كَمَا هُوَ حَالُ الْمُنَافِقِ فِي الْمَسَاجِدِ؛ فَإِنَّ مَثَلَ الْمُنَافِقِ فِي الْمَسْجِدِ كَمَثَلِ الطَّائِرِ فِي الْقَفَصِ.

وَأَمَّا مَثَلُ الْمُؤْمِنِ فِي الْمَسْجِدِ؛ فَمَثَلُهُ هُوَ مَثَلُ السَّمَكِ فِي الْمَاءِ، إِنْ خَرَجَ مِنْهُ مَاتَ؛ فَحَيَاتُهُ، وَسَعَادَةُ قَلْبِهِ، وَاطْمِئْنَانُ ضَمِيرِهِ، وَقَرَارَةُ فُؤَادِهِ، إِنَّمَا تَكُونُ فِي بُيُوتِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ لِأَنَّهُ يَجْعَلُ كُلَّ الدُّنْيَا خَارِجَهُ.

فَالنَّبِيُّ ﷺ دَلَّ عَلَىٰ هَذَا الْأَمْرِ الْيَسِيرِ مِنَ الذِّكْرِ الَّذِي هُوَ يَسِيرٌ عَلَىٰ مَنْ يَسَّرَهُ اللهُ عَلَيْهِ، وَهَذَا الذِّكْرُ: هُوَ أَنْ يُسَبِّحَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ مَرَّةً: **سُبْحَانَ اللهِ، سُبْحَانَ اللهِ**... ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ مَرَّةً.

---

(١) أخرجه البخاري: (٢/ ٣٢٥، رقم ٨٤٣)، ومسلم: (١/ ٤١٦-٤١٧، رقم ٥٩٥)، من حديث: أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

وفي رواية لمسلم: «**تُسَبِّحُ اللهَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَتَحْمَدُ اللهَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَتُكَبِّرُ اللهَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ**».

الْحَمْدُ لِلهِ، الْحَمْدُ لِلهِ... ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ مَرَّةً.

اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ... ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ مَرَّةً.

فَإِنَّكَ تَلْحَقُ مَنْ سَبَقَكَ، وَلَا يُدْرِكُكَ مَنْ بَعْدَكَ.

ذَهَبَ فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ رضي الله عنهم بِهَذِهِ الْعِلَاوَةِ، فَسَمِعَ بِهَا أَغْنِيَاءُ الصَّحَابَةِ، فَرَجَعَ الْفُقَرَاءُ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ شَاكِينَ، فَقَالَ: «**مَا هُنَالِكَ؟**».

قَالُوا: سَمِعَ إِخْوَانُنَا مِنَ الْأَغْنِيَاءِ بِمَا دَلَلْتَنَا عَلَيْهِ، فَعَمِلُوا مِثْلَهُ.

قَالَ: «**وَمَا أَصْنَعُ؟! هَذَا فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ**».

فَعَلَىٰ الْإِنْسَانِ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي أَنْ تَكُونَ مِسَاحَةُ عُمُرِهِ مِسَاحَةً وَاسِعَةً بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ.

الْبَدْءُ وَالْمُنْتَهَىٰ لَا يُمْكِنُ تَغْيِيرُهُ.

لَحْظَةُ الْمِيلَادِ يَبْدَأُ مِنْهَا الْعَدُّ التَّنَازُلِيُّ مُقْتَرِبًا الْمَرْءُ بِحَيَاتِهِ إِلَىٰ مَمَاتِهِ، فَكُلَّمَا مَرَّتْ لَحْظَةٌ؛ فَهِيَ مُقَرِّبَةٌ إِلَىٰ الْقَبْرِ لَحْظَةً، وَكُلَّمَا مَرَّ يَوْمٌ مِنْ حَيَاةِ الْكَائِنِ الْإِنْسَانِيِّ؛ فَهُوَ مُقَرِّبٌ مِنْ نِهَايَتِهِ يَوْمًا، وَكَذَلِكَ السَّنَةُ وَالْعَامُ؛ وَلِذَلِكَ تَعْجَبُ مِنَ الْمُغَفَّلِينَ الَّذِينَ يَحْتَفِلُونَ بِانْقِضَاءِ عَامٍ مِنْ أَعْمَارِهِمْ!! إِنَّهُ قَرَّبَكَ هَذَا الْعَامُ بِانْصِرَامِهِ مِنْ قَبْرِكَ، مِنْ مَصِيرِكَ، مِنْ مَوْتِكَ.. قَرَّبَكَ عَامًا؛ فَمَاذَا تَنْتَظِرُ؟!!

وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**أَعْمَارُ أُمَّتِي بَيْنَ السِّتِّينَ وَالسَّبْعِينَ، وَأَقَلُّهُمْ مَنْ يَجُوزُ ذَلِكَ**»(١).

أَعْمَارُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَيْنَ السِّتِّينَ وَالسَّبْعِينَ، فَهَذَا هُوَ مُتَوَسِّطُ عُمُرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، كَمَا قَالَ الرَّسُولُ.

«**وَأَقَلُّهُمْ مَنْ يَجُوزُ ذَلِكَ**»؛ أَيْ: قَلِيلٌ مَنْ يُجَاوِزُ ذَلِكَ، وَهَذَا يَشْهَدُ بِهِ الْوَاقِعُ، كَمَا قَالَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ: «**وَأَقَلُّهُمْ مَنْ يَجُوزُ ذَلِكَ**».

فَالْمَرْءُ يَنْبَغِي عَلَيْهِ أَنْ يَقِفَ عَلَىٰ رَأْسِ طَرِيقِهِ مُتَأَمِّلًا فِي دَرْبِهِ، نَاظِرًا إِلَىٰ مَصِيرِهِ، رَاجِعًا إِلَىٰ رَبِّهِ، قَاضِيًا مَا عَلَيْهِ مِنْ حَاجَاتِهِ، مُؤَدِّيًا مَا عَلَيْهِ مِنْ وَاجِبَاتِهِ، وَكَذَلِكَ يَنْبَغِي عَلَيْهِ أَلَّا يَظْلِمَ؛ لِأَنَّ مَنْ ظَلَمَ، فَإِنَّهُ لَنْ يُفْلِتَ بِظُلْمِهِ أَبَدًا؛ حَتَّىٰ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْغِيبَةِ، حَتَّىٰ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْوُقُوعِ فِي عِرْضِ الْمُسْلِمِ، بِالْكَلَامِ فِي حَقِّهِ بِمَا يَسُوءُ، بِمَا يَكْرَهُهُ؛ حَتَّىٰ وَلَوْ كَانَ فِيهِ، فَإِنَّ الْغِيبَةَ: أَنْ تَذْكُرَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ؛ وَلَوْ كَانَ فِيهِ.

قَالَ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ؟

قَالَ: «**إِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ**»(٢)؛ فَهَذَا بُهْتَانٌ، وَلَيْسَ بِغِيبَةٍ.

---

(١) أخرجه الترمذي: (٥/ ٥٥٣، رقم ٣٥٥٠)، وابن ماجه: (٢/ ١٤١٥، رقم ٤٢٣٦)، من حديث: أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

قال الترمذي: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ»، وصححه لغيره الألباني في «**الصحيحة**»: (٢/ ٣٨٥-٣٨٦، رقم ٧٥٧).

(٢) أخرج مسلم: (٤/ ٢٠٠١، رقم ٢٥٨٩)، من حديث: أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه:

=

وَأَمَّا الْغِيبَةُ؛ فَهِيَ: أَنْ تَذْكُرَ أَخَاكَ بِمَا فِيهِ مِمَّا يَكْرَهُهُ.

هَذِهِ هِيَ الْغِيبَةُ؛ فَحَذَارِ أَنْ تَذْكُرَهُ بِمَا هُوَ فِيهِ مِمَّا يَكْرَهُ ذِكْرَهُ؛ لِأَنَّكَ إِنْ فَعَلْتَ، فَقَدِ اغْتَبْتَهُ.

كَيْفَ تَخْرُجُ مِنْهُ؟!

هَذَا مِنْ حُقُوقِ الْعِبَادِ، وَلَا خُرُوجَ مِنْهُ إِلَّا بِقَضَاءِ حَقِّ الْعَبْدِ؛ فَكَيْفَ تَقْضِيهِ؟

إِمَّا أَنْ تَذْهَبَ إِلَيْهِ لِتَسْتَحِلَّهُ، فَتَقُولُ: وَقَعْتُ فِيكَ، وَتَكَلَّمْتُ فِي حَقِّكَ؛ فَاعْفُ عَنِّي، وَاجْعَلْنِي فِي حِلٍّ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ ذَلِكَ مِمَّا تَكِزُّ بِهِ النَّفْسُ، وَلَا تَسْمَحُ بِهِ؛ فَإِنَّكَ لَوْ ذَكَرْتَ إِنْسَانًا بِسُوءٍ، ثُمَّ ذَهَبْتَ إِلَيْهِ فَقُلْتَ: ذَكَرْتُكَ بِسُوءٍ فَاجْعَلْنِي فِي حِلٍّ؛ قَالَ: لَا وَاللهِ، حَتَّىٰ أَعْرِفَ مَا قُلْتَ!

فَإِذَا قُلْتَ لَهُ: قُلْتُ فِيكَ كَذَا وَكَذَا؛ قَالَ: وَاللهِ لَا سَامَحْتُكَ أَبَدًا!

وَرُبَّمَا نَشَبَتْ بِسَبَبِ ذَلِكَ أُمُورٌ عَظِيمَةٌ تُرَاقُ فِيهَا الدِّمَاءُ.

قَالَ الْعُلَمَاءُ: وَلَوْ لَمْ يَعْفُ عَنْكَ إِذَا مَا وَقَعْتَ فِيهِ إِلَّا بِأَنْ تَدْفَعَ لَهُ مَالًا؛ فَادْفَعْهُ، فَإِنَّكَ إِنْ دَفَعْتَهُ الْيَوْمَ؛ فَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْ تَأْتِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالْحِسَابُ

=

أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ؟**»، قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «**ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ**»، قِيلَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ: «**إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ**».

بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، فَيَأْخُذُ مِنْ حَسَنَاتِكَ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُكَ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِهِ، فَطُرِحَ عَلَىٰ الْأَبْعَدِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ.

فَلِمَاذَا تُوَرِّطُ نَفْسَكَ؟!

وَلِمَاذَا لَا تَتَّقِي اللهَ رَبَّكَ؟!

وَلِمَاذَا لَا تَعْرِفُ وَظِيفَتَكَ فِي الْحَيَاةِ؟!

لِمَاذَا لَا تَكُونُ جَادًّا مُتَّزِنًا؟!

لِمَاذَا يَكُونُ الْإِنْسَانُ هَازِلًا غَيْرَ جَادٍّ -كَمَا هُوَ شَأْنُ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ-؟!

هَذِهِ الْحَيَاةُ وَظِيفَةٌ، وَهِيَ مِنْحَةٌ مِنَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، مَنْ لَمْ يَسْتَغِلَّهَا اسْتِغْلَالًا صَحِيحًا كَانَتْ عَلَيْهِ مِحْنَةً.

هَذِهِ الْحَيَاةُ نِعْمَةٌ، مَنْ لَمْ يَسْتَغِلَّهَا اسْتِغْلَالًا صَحِيحًا عَادَتْ عَلَيْهِ نِقْمَةً.

فَعَلَىٰ الْإِنْسَانِ أَنْ يَجْتَهِدَ، وَأَنْ يَتَّقِيَ اللهَ رَبَّهُ، وَأَنْ يَتَخَلَّصَ مِنْ ظُلْمِهِ، مِنْ ظُلْمِ نَفْسِهِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ، وَمِنْ ظُلْمِ مَنْ حَوْلَهُ؛ كَائِنًا مَنْ كَانَ؛ حَتَّىٰ يَقْدُمَ عَلَىٰ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ نَظِيفًا سَوِيًّا سَلِيمًا، وَحَتَّىٰ يَعْفُوَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ عَنْهُ.

وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.

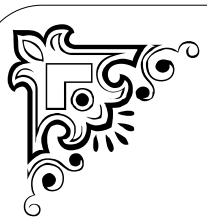

الْفِهْرِسُ

الْمَوْعِظَةُ الْأُولَىٰ: احْرِصْ عَلَىٰ مَا يَنْفَعُكَ! ٥

الْمَوْعِظَةُ الثَّانِيَةُ: تَوَقَّفْ! ٢٧

الْمَوْعِظَةُ الثَّالِثَةُ: فَضْلُ تَعْلِيمِ الْعِلْمِ ٤١

الْمَوْعِظَةُ الرَّابِعَةُ: الْإِسْلَامُ دِينُ نِظَامٍ وَالْتِزَامٍ ٥٧

الْمَوْعِظَةُ الْخَامِسَةُ: تَحْذِيرٌ شَدِيدٌ لِمَنْ يَتْرُكُ الصَّلَاةَ ٧١

الْمَوْعِظَةُ السَّادِسَةُ: شُرُوطُ الصَّبْرِ وَالتَّوْبَةِ ٨٥

الْمَوْعِظَةُ السَّابِعَةُ: سِرُّ السَّعَادَةِ ١٠٥

الْمَوْعِظَةُ الثَّامِنَةُ: احْذَرْ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْحَاسِدِينَ! ١٢٥

الْمَوْعِظَةُ التَّاسِعَةُ: سُلُوكِيَّاتٌ خَاطِئَةٌ ١٣٥

الْمَوْعِظَةُ الْعَاشِرَةُ: آدَابُ الْمُعَاشَرَةِ الزَّوْجِيَّةِ ١٥٣

الْمَوْعِظَةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: الْكِبْرُ ١٧١

الْمَوْعِظَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: هَلْ عَمِلْتَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ؟! ١٨١